قبسٌ من نورِ المسيرة

الشيخ المُجاهِد

بسّام السّعدي

يتذكّر

قبسٌ من نورِ المسيرة

الشيخ المجاهد

بسام السعدي

يتذكر

مرّرها الكاتب

عصري فياض

مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى

1444هـ - 2022م

غزة - فلسطين

تمت الفهرسة في مكتبة وزارة الثقافة الفلسطينية

رقم الإيداع 1884/ 2022

الرقم المعياري الدولي 978-9950-8515-7-3

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس)

مؤسسة مهجة القدس

+ 972 8 2 8 3 8 8 9 1

+ 972 8 2 8 6 0 3 4 3

+ 972 5 9 8 6 9 1 8 1 0

almuhja@hotmail.com

www.almuhja.ps

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

صَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ

[الأحزاب: 23]

إهداء

لِرُوحِ والديَّ الأكرمينْ،

أبيَ: الضياء والسند

والشهيدة أمي: الحنان والرضا

للزوجة المجاهدة (أم إبراهيم)، والدة الشهيدين، والأسيرة أم الأسرى، والصابرة

لأكثر من ثماني سنين وعقدين

لروح فلذتيّ عبد الكريم وإبراهيم التوأمين

المجاهدين، الصادقين، الكرّارين الشهيدين

لروح الأمينين الشهيدين،

الدكتور فتحي الشقاقي، والدكتور رمضان عبد الله شلّح

ولقامة وهامة الأمين على الأرواح، القائد الحاجّ

زياد النخالة (أبو طارق) حامل لواء الحُسْنيَيّن

تقديم
مذكرات تختصر الزمن الفلسطيني

بقلم الأستاذ:
محمد فارس جرادات
كاتب وباحث فلسطيني

مشهد ملحمي فلسطيني متكامل؛ إنها ذاكرة الشيخ المجاهد بسام السعدي وذكرياته وتجربته المترعة بينابيع الكف التي تلاطم المخرز هنا في حنايا المخيم، وهناك في مرج الزهور، وعبر دياجير الأسر والسجون، وهو يُطرّزها بِسَنا المشاعل، في أتون مطاردات الاحتلال، يطاردهم ويطاردونه طوال عقود خلت، وما كلّت قبضات يده، وعزائم ذاكرته عن إيقاد كل الزوايا في هذا الأتون المفعم بعبق المخيم، عبق جنين ورفح والحارثية حتى هداريم ونفحة.

أن تتنسّم نفحات أبي إبراهيم السعدي، فأنت تقتحم كل صنوف المحن والمنح، محن المحتل العبري، مطاردة وسجنًا ونفيًا وقتلًا، ومنح الرحمن وبركات عطائه؛ صبرًا وحكمة وقبولًا وعوضًا، ربح البيع أبا إبراهيم، فداء الإسلام وتراب الوطن.

إنّها ذاكرة الشيخ القائد بسام السعدي، تختصرها الشهادة في عبيرها، لحظة ارتقاء روح والدته، والمحتل يقتحم بيتها بوحشيته لينهش كبرياءها فما خدش منها إلّا شغاف قلب أم وجدّة طوت على ذاكرة الوطن كل فصول الصبر، وتاج عزها بسام الراغب يطبع قبلة الوداع على جبين ولديه الفارسين؛ إبراهيم وعبد الكريم، وهما يشهران سلاح الطهر في وجه همجية المحتل، وابن أخيه غسان؛ الطفل بسام، وهو يرتقي كريحانة من رياحين الزهراء في ضواحي مرج بن عامر الحبلى بأجيال من زنابق المخيم تنادي في غسق الليل وانبلاج الفجر؛ حيّ على الجهاد.

زغردت هنادي هناك وسط جمع ممن ينهشون لحم حيفا، سقط الجنرال وسط الحشد في مكابي، وقف الكيان بكل جبروته الأمني رافعًا راية الحيرة

والبؤس، هناك كان الشيخ في زنزانته حبيس عجزهم، ليتلقفه هاتف شارون إلى رئيس الشاباك؛ عندكم بسام السعدي فأفرغوا في جسده كل أحقاد خيبر ومكابي وأزقة المخيم، ليبوح بهذا السرّ الكامن قوة في جنين، فهل يبوح الشيخ؟ وهو الذي في مقتبل شبابه قد حوّله جنود جفعاتي وجولاني إلى لوح تدريب مهشم، ليسب عرفات أو الخميني، فما لانت له قناة ولا كلّت له عزيمة.

كانت بضع كلمات ونسخًا من الطليعة، أرخاها خالد جرادات ذات يوم ثمانينيّ، في جعبة هذا السعديّ المتديّن، إجابته على السؤال الفلسطيني الملحّ عن حركة إسلامية عريضة عابرة للحدود، وقد أدارت له الظهر عقودًا، هي إجابة الشقاقي والإسلام البديل؛ وعيًا وثورة في وجه المحتل ومن يرتبط معه من قوى الطاغوت، أثلجت صدره وطوى على جناحيه وطنًا يرفض القسمة، وأمة عاين بعض رجالها في دمشق وبيروت.

قراءة مذكرات الشيخ بسام؛ سفر سرمديّ يتجاوز الخيال، ليغوص في كل ثنايا قصة طليعة إسلامية، تختصر الزمن الفلسطيني في كل جوانبه الملحمية، فهو الأسير المحرر سنوات تتلوها سنوات، وهو الأب الحاني لأسرة كل فروعها بين شهيد وأسير، أولاده وحتى زوجته المريضة، قد أخذ منها الأسر مراتٍ ومرات، وبين أسر وأسر ثمة مطاردات أربع؛ ومداهمات جعلته الصيد الوفير، بحسب تعبير الإعلام العبري ووكلائه في مرابعنا الممزقة بين بطش العبري والمتآمرين.

وقد تجاوز من العمر؛ الستين، فقد لازمته الحكمة لعقود، حكمة غمر بها كل شرائح المخيم والأسر والجهاد، وتواضع قلّ له مثيل، ولا نزكّي على الخالق أحدًا، ولكنها حكمة الشيخ بسام وتواضعه، وصدره الذي طالما اتسع للجميع، حتى ليظن كل ظان أنه ليس في الرجل عناد القابض على كل هذا الجمر المرصع بالدم والقهر وعرق الزنازين، فإذا ما اقترب مقترب من ثوابت الدين ووحدانية الوطن وحرمة الدماء تجده، وإن بهدوء الواثق، كقطعة فولاذ لا تسمع على وقعها غير نبضك، أو لعله نبض جنين يسارع للفوز بطلوع النهار عبر قوافل لا يردها رادّ عن نهاية الانتصار.

تقديم
اكتملت أركان القضية في سيرة

بقلم الأستاذ:
وليد إبراهيم الهودلي
كاتب وأديب فلسطيني

أقف صغيرًا أمام شجرة عملاقة مثمرة بأحسن أنواع الثمر، ذات بهجة وروعة تسرّ الناظرين، وتظل وقت الهاجرة بظلالها الوافرة كل من يأوي إليها هاربًا من لهيب شمس الظهيرة، وتطعم من ثمرها ما لذّ وطاب، قل إن شئت نخلة أو زيتونة أو تينة أو برتقالة، أو قل إنها شجرة حوَت كل أنواع الثمر.

لقد وجدت نفسي وأنا أقرأ هذا التاريخ المشرّف لهذه الشخصية الفذّة أمام شخصية جامعة من سلالة عائلة مجاهدة، هيأت له أن يكون عظيمًا، وأن ينبته نباتًا حسنًا، وجعلت منه ذا سيرة يشار إليه بالبنان، وتتعلّمها الأجيال لترتوي منها كرامة ونخوة وعزة وشجاعة وإقدامًا وفكرًا ثوريًا، وروحًا جهادية عالية.

سيرة أيّ سيرة أثمرت الشهداء حبًا وعشقًا لرب عظيم ووطن عزيز.

لقد اكتملت أركان القضية في سيرة، وأركان أمة في شخصية فريدة؛ من خلال هذه السيرة تقف على مفاصل القضية، وعلى خط الوعي والثورة الذي أسسه وأطلق عنانه الأمين العام المؤسس لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين الدكتور فتحي الشقاقي، وقد التقت كما التقى البحران من غير أن يكون بينهما برزخ لا يبغيان، اشتدّ أواره وعيًا لكل أطراف الفكر والسياسة، ولم يكتف بالقول والتنظير، وإنما ذهب إلى خنادق المواجهة الساخنة ليُفعّلَ كل طاقاته في دائرة الفعل، وإغاظة المحتل، ولم يكتف بذلك، بل جعل من بيته مع زوجته الكريمة أم إبراهيم مصنعًا للرجال الأبطال، فلم يتردد أبناؤه لحظة أمام نداء الواجب، فقدما روحيهما حبًا وطواعية لله تعالى، فكان بذلك من يسبق غيره، ومن يسبق فعله كلمته مجاهدًا هو وأبناؤه وكل ما يملك من

مـال وولـد، بالفعـل، ضرب مثـلًا لـلأسرة المجاهـدة المضحيـة بالغـالي والنفيـس، فـأيُّ رجـال هـؤلاء الرجـال؟ أقـدام راسـخة في الأرض وجبـاه في عنـان السـماء تشـم رائحـة الجنـة وتتـوق وتعشـق لقـاء رب عزيـز رحيـم، فـإذا كان الـكلام عـن التضحيـة بالنفس شـيئًا، والفعـل شيء آخـر، فـإنّ التضحيـة بالولد مختلـف عن هذا وهـذا، بالفعـل نحـن نتحـدث عـن رجـال اسـتثنائيين بـكل معنـى الكلمـة، وعـن حدائـق ذات بهجـة لا مثيـل لهـا إلا في الجنـة.

طُفـتُ في هـذه السـيرة الجليلـة، وقطفـت مـن ثمارهـا العظيمـة، رأيـت المطـاردة عـلى أصولهـا، وكيـف يحمـل المـرء روحـه عـلى كفـه، ويسـير بهـا دون أن يعبـأ بكيـد عـدو بلغـت قدراتـه مـا بلغـت، وقـد ضرب في هـذا الميـدان أفضـل المثـل، وكان مدرسـة تـدرّس ويكتـب فيهـا المؤلفـات، وكيـف إذا أضفنـا سـيرته العظيمـة في سـجون الاحتـلال، وكيـف حـوّل السـجون إلى فرصـة، وكيـف أصبـح معقـلًا للأحـرار وصناعـة الـذات الثوريـة بامتيـاز، غـيَّر قواعـد الاشـتباك بـما يقلـب السـحر عـلى السـاحر، ويجعـل مـع إخوانـه مـن السـجن أكاديميـة علميـة وثقافيـة وأمنيـة، لم يكـن السـجن نهايـة المطـاف، ولم يُمكّـن السـجان مـن الوصـول لأي هـدف مـن أهدافـه، بـل كان بمثابـة نقطـة تحـوّل كبـيرة لـكل مـن يلتقـي بـه، فيحمل الـروح العاليـة، ويتأثـر بحالـه قبـل مقالـه، كان القـدوة والنمـوذج قبـل أن يتكلـم، وإن تكلّـم نزلـت كلماتـه بـكل سلاسـة وهـدوء إلى أعـماق القلـوب لتفعـل فعلهـا العظيـم، وتنـزل منزلهـا الجميـل.

باختصـار شـديد لا تتحملـه هـذه السـيرة الثريـة والمحملـة بكنـوز عظيمـة؛ أقـول إن توثيـق تجاربنـا في غايـة الـضرورة والأهميـة كـما قـال الروائـي الفلسـطيني إبراهيـم نـصر الله: «إن لم تكتـب قصصـك، كتبهـا عـدوك وتبناهـا».

التُربة والفسيلة

في الجهة اليسرى لمدينة جنين الفلسطينية، ينزرع قلبها النابض، تدخله فتشعر بخفقانه الدائم بالحيوية والثورة، إنه مخيم اللاجئين الفلسطينيين الذي أنشئ عام 1953م، وحمل أسماء متعددة، «مخيم العودة» و«مخيم المحطة»، نسبة إلى محطة القطارات التركية التي تتربع على منتصف جهته الشمالية، ثم استقر الاسم لاحقًا على «مخيم جنين»، نسبة لتلك المدينة التي احتوته، فأصبحت حاضنته اللصيقة، وأصبح قطعة منها، تسير، _سواء كنت ماشيًا أو مستقلًا سيارة_ من بابه الشماليّ، وتعرج من منتصفه ناحية المسجد الكبير فتجد معملًا كبيرًا للطوب ولبيع مواد البناء، تسأل لمن هذا بعد أن أدهشك المشهد؟ فهنا أثرٌ، وبصمةٌ خالفت بعضًا من الصورة النمطية عن المخيمات.

فيقال لك: هذا لأبناء المرحوم راغب عبد الرحمن السعدي، اللاجئ القادم من قرية «المزار».

ويبرز سؤال آخر، ومن هي «المزار»؟ فيقال لك: «المزار» هي تلك القرية الفلسطينية الوادعة المدمرة، والمهجورة حاليًا، والتي كانت تعجّ بالحياة قبل النكبة الفلسطينية في عام 1948م، تقع شمال شرق مدينة جنين، وعلى بعد تسعة كيلومترات منها، على قمة من سلسلة قمم جبال «فقوعة»، حيث ترتفع عن مستوى سطح البحر نحو 350 مترًا، وهي محاطة بأراضي مجموعة قرى حولها من الاتجاهات الأربعة هي: «نورس» و«عرانة» و«عربونة» و«فقوعة» و«زرعين» و«الجلمة» و«مقيبلة» و«صندله»، وقد سميّت بهذا الاسم؛ لأنها تضم مدفنًا لبعض شهداء وقادة معركة عين جالوت الشهيرة في التاريخ الإسلامي، والتي جرت في عام 1260م الموافق 656هـ بين المسلمين المماليك والمغول، وانتصر فيها المماليك نصرًا عزيزًا مؤزرًا.

لم تكن أرض «المزار» مسكونة قبل تلك المعركة، إلى أن دُفن فيها بعض القادة والشهداء إثر تلك الواقعة، وبعد أن جاءت الدولة العثمانية بعد حقبة من الزمن، وكانت هذه الدولة تعتني بالطرق الصوفية، والاهتمام بالمقامات والأضرحة، قامت بجلب أربعة إخوة من قرية «جبا»

في الجولان السوري، والتي يوجد فيها مقام الشيخ سعد الدين الجد الأول لعائلة السعدي، وجعلتهم كسدنة لتلك المقامات، وهؤلاء الإخوة الأربعة الذين كانوا ينتسبون لعائلة الشيخ سعد الدين، كانوا نواة تلك القرية، وبدايات إعمارها بالسكان والحياة، وقد دلّت الروايات والسير على أن أحدهم توجه إلى مدينة نابلس، وأسس هناك عائلة سعد الدين التي تعتبر جزءًا من نسل الشيخ سعد الدين الأول، بينما بقي الإخوة الثلاثة الآخرون في تلك المنطقة، لينشئوا مع أطفالهم ونسائهم وأحفادهم نواة تلك القرية التي أصبحت حتى عام 1948م، معلمًا هامًا في التاريخ والجغرافيا الفلسطينية، خاصة لجهة كونها مسقط رأس أحد قادة الثورة البارزين في التاريخ الفلسطيني الحديث، وهو الشيخ المجاهد فرحان السعدي، الذي قاوم الانتداب البريطاني، والتدخل اليهودي الصهيوني في أرض فلسطين، حتى قضى شهيدًا على يد الاستعمار الإنجليزي بعد أن ألقي القبض عليه في «المزار»، ونفذ فيه حكم الإعدام شنقًا بتاريخ 26/ 11/ 1937م في ساحة سجن عكا في يوم من أيام رمضان الفضيل، وقد بلغ من العمر تسعة وسبعين عامًا.

الشيخ فرحان السعدي هو خال جدة الشيخ بسام السعدي من جهة الأم، كان يسكن في قرية نورس المجاورة لقرية المزار، لكنه كان يقضي الكثير من الأوقات عند أخته وأقاربه في المزار وهو مطارد؛ وذلك لأن المزار كانت بكل سكانها من أقاربه من عائلة السعدي، وكذلك لموقعها المرتفع والمشرف على الأماكن المجاورة لها والبعيدة عنها، كان الشيخ بسام يسمع من والدته وجدّه وجدته معظم قصص البطولة والفداء التي كان يقودها الشيخ فرحان وابن عمه الشيخ نمر السعدي، والشيخ القسام الذي كان يزور الشيخ فرحان والشيخ نمر في نورس والمزار وبسمة طبعون، وكانت والدة الشيخ بسام تحدثه عن الأسلحة والذخيرة التي كانت تأتي إلى الثوار من سوريا، وتخبئها جدّته بين أكياس القمح وفي داخل التبن.

الشيخ فرحان سجن لمدة ثلاث سنوات على إثر أحداث هبّة البراق في العام 1929م التي شارك فيها بقوة، حيث نظم خلية عسكرية كانت تهاجم المستوطنات الصهيونية. بعد خروجه من السجن تعرف على الشيخ عز الدين، أمّا أقارب القسّام فيقولون إنّ العلاقة بين السعدي والقسّام كانت قبل هذا التاريخ حيث التقوا في سوريا عندما كان يعمل الشيخ فرحان مع الشرطة العسكرية التركية (الجندرما).

شارك الشيخ فرحان مع ابن عمه نمر السعدي في الخلايا الأولى التي أنشأها القسّام قبل الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936م، وكانوا مسؤولين عن شراء السلاح وتخزينه والتدريب عليه.

عندما شعر الشيخ القسام أن تنظيمه السري على وشك الانكشاف للمخابرات البريطانية، انتقل مع أنصاره إلى منطقة جنين، وذلك لطيبة أهلها وطبيعة المنطقة الجبلية المؤهلة لانطلاق الثورة.

الشيخ فرحان صاحب الرصاصة الأولى في ثورة القسّام، حيث قتل روزنفلد مدير شرطة شطّة قرب بيسان وجرح مرافقه الشاويش الإنجليزي وطورد للاحتلال البريطاني من أواخر عام 1935م حتى 22/ 11/ 1937م، عندما ألقي القبض عليه في قرية المزار في بيت أخته، بعد أن قاد الثورة لمدة عامين بعد استشهاد القسّام وخاض الكثير من المعارك، في تلك الليلة ذهب جد الشيخ بسام الشيخ السعدي إلى المسجد ليصلي الفجر، وقبل وصوله للمسجد بخطوات في ظلمة الفجر، وجد المسجد مطوّقًا من قبل قوة كبيرة من الجنود الإنجليز، وسمع الضابط البريطاني يسأل إمام المسجد، أين بيت ذيب نهار السعدي؟ فعرف الحج ذيب السعدي أنهم يريدون الشيخ فرحان، فرجع على الفور وأخبر الشيخ بذلك، وكان الشيخ ذيب قد أعدّ مخبئًا محكمًا في كاووش الدوابّ في مخزن العلف، دخل الشيخ فرحان المخبأ، لأنه كان قد حلف يمينًا أن لا يطلق النار داخل القرية حرصًا على الأهالي من بطش الإنجليز.

جاء الجنود البريطانيون، وقرعوا الباب، ففتح لهم الحج ذيب الباب، وكانت فرس الشيخ فرحان مربوطة عند الباب، قال الضابط للحج ذيب، لمن هذه الفرس؟ وكانت فرسًا عربية أصيلة، فقال الحاج هذه لي، نظر الضابط فرآه فلاحًا بسيطًا، فضربه بعقب المسدس على جبهته فسال الدم بغزارة وملأ وجهه، وقال له الضابط بصوت مرتفع، أنت من ركاب هذه الفرس؟! هذه الفرس لا يركبها إلا الشيخ فرحان.

فتشوا المنزل والبيوت المجاورة، وأخرجوا الرجال والنساء، وأجلسوهم في الحارات، واستمر التفتيش من الفجر حتى العصر ولم يجدوا الشيخ، لولا أن وشى به أحد العملاء الذي دلّهم على مخبئه، أخرجوا الشيخ فرحان بكل احترام، وألبسوه عباءته وحمّلوه بندقيته التي أفرغوها من الذخيرة، وساروا حوله في موكبٍ مهيب.

أعدم الشيخ بعد أربعة أيام في سجن عكا وهو صائم في شهر رمضان، وكان لإعدامه وقع كبير على الشعب الفلسطيني؛ لأن قصته تتشابه مع قصة المجاهد الكبير الشيخ عمر المختار الذي أعدمه الاحتلال الإيطالي في هذا السن الكبيرة.

عمّ الحزن على الشيخ فرحان عموم الأراضي الفلسطينية، تعاطفًا مع الشيخ، هذا المجاهد الكبير الذي كانت له مكانة كبيرة في قلوب أبناء شعبه، حيث كانت تُرى حلقات النساء الكبيرة في ساحات القرى المجاورة لبلدته في مشهد حزن وبكاء جماعي بعد انتشار خبر إعدامه والتحاقه بالرفيق الأعلى.

لذلك التاريخ، وتلك الجغرافيا ينتمي أبناء المرحوم راغب عبد الرحمن السعدي، خاصة رابعهم «بسام»، كان وما زال له مع الأيام والسنين حكايات فلسطينية، فيها كل ألوان جهادها وكفاحها ومعاناتها وصبرها ومطارداتها واعتقالاتها، وتضحيات فلذات كبده ارتقاءً وإصابة واعتقالًا، حتى عقيلته الكريمة طالها بأس الأعداء، وما زال العطاء مستمرًا، حتى يعودوا للمزار، وتعود إليهم.

حكايات يسردها ويوثقها، يكتبها للتاريخ، وللأجيال؛ لتكون زيتا تُسرجْ فيه التجارب، وعبرةً تغذّي وعي كل باحث عن النور في هذا الظلام الذي يظلل حياتنا بفعل الاحتلال.

الجذور

تقول الحكاية إنّ عبد الله السعدي جد والد الشيخ المجاهد بسام السعدي، أي جد الحاج راغب السعدي ـ رحمهما الله ـ توفي في ريعان الشباب، ودفن في «المزار» وكانت امرأته من بلدة «اليامون» الواقعة غرب مدينة جنين، من عائلة (زين الدين)، وقد ترك خلفه مجموعة من الأطفال ذكورًا وإناثًا، وبعد وفاته بمدة شعرت زوجته بالغربة، فقررت أن تحمل أولادها، وتذهب بهم إلى أهلها في «اليامون»، وفعلًا ودون أن تبلّغ أحدًا، جمعت ما يمكن حمله من حاجيات وأغراض، واصطحبت أولادها وبناتها، ويمّمت وجهها غربًا شطر بلدة «اليامون» عابرة بلدتها «المزار» وأراضيها بعد ظهر ذلك اليوم حتى وصلت مساءً إلى جانب أراضي «مقيبلة» وهناك رآها بعض

أهل القرية فاستهجنوا ذلك المشهد، سيدة تحمل أطفالها الصغار، وتشق الطريق بهم مع دنوّ الليل، وبدء إرخاء الظلام سدوله على المعمورة، استغربوا ذلك، وسألوها من تكون؟ وإلى أين تذهب؟

فقالت: أنا من «المزار»، زوجي توفّي قبل مدة، ولابد لي من العودة إلى بلدي.

فقالوا لها: لكن الليل قد حَلّ، و«اليامون» بعيدة على المسير، والليل موحش، وأنت سيدة لا حول لك ولا قوة، والطريق غير آمنة، وهناك خطر حقيقي على الأطفال، فقد تتخطفهم الضِبَاعُ أو الوحوش.

صمتت بعد أن أدركت حقيقة ما يقولون، فتابعوا كلامهم ناصحين لها:

ابقي هنا حتى الصباح، عندها لكل حادثة حديث.

فاستجابت، وأرخت حملها، ولجأت لأحد المنازل هناك، وقضت ليلتها بانتظار اليوم التالي.

في الصباح جاؤوا بطعام الإفطار لها ولأطفالها، وجلسوا يحدثونها برفق؛ لعلها تعدل عن فكرة العودة إلى بلد أهلها، وأن تبقى هنا في «مقيبلة» معزّزة مكرّمة قريبة من أرض زوجها المرحوم كي تزرعها، وتفلحها، وتكون قريبة منها، فهي في أمسّ الحاجة لدخل يسدّ رمق أطفالها الأيتام، وأشاروا عليها ببناء بيت صغير من الطين والحجارة، وهم سيعتنون بها، ويدعمونها عبر التكافل الاجتماعي الذي كان شائعًا بقوة في تلك الفترة، فاقتنعت بالفكرة.

وما أن انتهت من وجبة الإفطار حتى بحثوا برفقتها عن مكان قريب من مساكنهم، وشرعوا بجلب الحجارة والتراب والماء، وحفر الأساسات ومزج التراب بالماء لإنتاج الطين الليّن، وبناء البيت الصغير لها ولأطفالها، والذي كان عبارة عن غرفة صغيرة، وما أن انجلت أيام قليلة حتى كان البيت ملاذًا ومأمنًا لها ولأطفالها، تُمضي فيه بقية حياتها، فشعرت بنوع من الاستقرار، وشرعت في العمل بأرضها بجد ونشاط؛ لتربي أطفالها الذين كان أكبرهم يسمى عبد الرحمن.

ومع مرور الوقت وتعاقب السنين كبر عبد الرحمن، وأصبح المسؤول الأول عن تربية إخوته، فقد أصبح في سن الشباب، وكان لابد له من الزواج والبحث عن العروس المناسبة،

فتزوج العروس الأولى، وهي من عائلة حمّاد من قرية «مقيبلة»، وأنجبت له طفلة، ولم تنجب غيرها، وبعد سنوات نمت في رأس عبد الرحمن فكرة الزواج بأخرى سعيًا لإنجاب الأبناء الذكور، فرأى في وفاة ابن عم له في قرية «المزار» ترك زوجة وطفلتين _كانت شقيقة المجاهد فرحان السعدي_ رأى في ذلك مناسبة في تحقيق هدفين، الهدف الأول الحفاظ على زوجة ابن عمه وطفلتيها، والثاني تحقيق الرغبة في الزواج الثاني، فكان له ما أراد، وبعد سنوات أنجبت له الزوجة الثانية طفلًا أسماه «عقاب»، فرح به كثيرًا، لكن هذا الطفل أصيب بالمرض، وتوفي صغيرًا، فعادت حياة عبد الرحمن إلى المربع الأول، فأخذ يبحث عن زوجة ثالثة؛ ليحقق حلمه الذي تأخر _في أن يكون له أطفال ذكور_ فوقع الخيار هذه المرة على فتاة من عائلة «خلوف» من قرية «مقيبلة» التي يسكن فيها، فتزوجها، وأنجب منها ثلاثة أطفال ذكور، كان أوسطهم قد سمّي راغب، الذي أنجب الشيخ بسام السعدي لاحقًا.

كأبيه، نشأ الشاب راغب السعدي مزارعًا، يعمل في أرضه في سهل «مقيبلة»، وسهل «المزار»، ولم يكن ينقطع عن التواصل مع عائلته وأصوله في «المزار» و«نورس»، حتى كانت الثورة، ومن بعدها النكبة التي شهدت في يوم الثلاثين من مايو (أيار) من عام 1948م، هجومًا كبيرًا، من قبل قوات «الهاغانا» و«البلماخ» الصهيونيتين على بلدة «المزار»، وما تلاه من قتل وقصف وتشريد دفع بأهلها وأهل القرى المجاورة مثل «نورس» و«زرعين» وقسم من أهالي «مقيبلة» إلى الفرار بأهلهم؛ خوفًا من بطش تلك العصابات، فسار راغب السعدي مع أقربائه وأهله نحو أراضي «عربونة»، والتي لا تبعد إلا ثلاثة كيلومترات عن «المزار»، وحطّوا رحالهم في تلك الأراضي التي تقابل أرضهم، وتجاور بعضها من جهة الشمال، بل إن قسمًا من أراضي شمال «عربونة» كان يملكها أناس من عائلة السعدي، وبعد قرار الهدنة أصبحت تلك الأرض التي تقع فيها خيمهم أرضًا حدودية، الأمر الذي دفع السلطات الأردنية _التي كانت تدير الضفة الفلسطينية وقتها_ إلى منعهم من البقاء فيها بحجة منع المهربين من استغلال تلك التجمعات والعبور إلى الداخل المحتل.

كان قرار إخلاء تلك المنطقة قد تزامن مع ما عرف بسنة «الثلجة»، أي فترة ما بعد العام 1950م، ذلك العام الذي أنشئ فيه مخيم جنين على الأرض الواقعة غرب مدينة جنين من قبل

وكالة الغوث والحكومة الأردنية بمساحة 372 دونمًا، فرحل راغب السعدي إلى المخيم، وبنى له ولأولاده بيتًا من الطين على طرف سكة الحديد في الطرف الشمالي الشرقي من المخيم.

عمل راغب السعدي في تجارة المواشي وبيع اللحوم، حيث كان يذهب إلى مدينة المفرق الأردنية، ويحضر من هناك شاحنة محمّلة بالماعز والضأن والعجول والأبقار أحيانًا؛ ليبيعها للقصابين في المخيم والمدينة واللواء، كما أنشأ لنفسه ملحمة ممتهنًا القِصابة، وعمل أيضًا في الزراعة والفلاحة، وعندما أصبح يملك قدرًا من المال، قام بإنشاء معمل لصناعة الطوب، وبذلك توسعت أرزاقه، وأصبح ممن استعادوا بعضًا من دخلهم بعد النكبة بفضل نشاطه وسعيه الدؤوب وراء الرزق، خاصة وأن الله رزقه بعائلة كبيرة مكونة من أربعة عشر فردًا، منهم ستة أبناء أكبرهم عبد اللطيف، فيما كان رابعهم الشيخ بسام، إضافة إلى ست بنات.

صرخة الروح

في الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون أول) من عام 1960م، أي بعد اثنيْ عشر عامًا من النكبة والتشرد الذي ألقى بعائلة الحاج راغب السعدي في مخيم جنين، وُلد له الابن الرابع من الذكور على الترتيب، فأسماه «بسام»، وقد فرح به كثيرًا بالرغم من أن الله قد مّنَّ عليه بالذرية الكثيرة من الأبناء والبنات قبله، فكانت طفولة بسام في عائلة الحاج راغب السعدي (أبو العبد) في المخيم في ظل أسرة لاجئة، حملت عبء اللجوء وذكرياته المؤلمة، من حيث المعاناة العامة، والتي لم تكن تخلو من الذكريات المضيئة التي كانت تتغنى بها الأسرة والعائلة ولا زالت، ولاسيّما وجود القائد والثائر الفلسطيني مفجّر ثورة عام 1936م الشيخ المجاهد القائد فرحان السعدي، أحد رموز العائلة والوطن، والذي كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمجاهد الكبير عز الدين القسام.

نشأ بسام، وهو الطفل الصغير، في حالة من العيش الكريم قياسًا مع محيطة من أقرانه من اللاجئين وأبناء عائلته؛ لكَون والده منهمكًا في نشاطات تجاريّة كثيرة ومتنوعة، من تجارة المواشي والقصابة والفلاحة والزراعة ومعمل الطوب، فقد وفرت هذه المصادر للعائلة المال الذي كان يؤمّن لهم العيش الكريم، كما كان هناك مقام ومكانة لوالده الحاج راغب السعدي بين

عائلته وجيرانه ومخيمه، جعل منه وجيهًا، يؤم مجلسه الأقرباء والجيران والأصدقاء، وقد شكلت تلك العوامل أرضية خصبة لنشأة مميزة للطفل بسام الذي نما في كنف والده الذي كان يحبه حبًا جمًّا، وخاصة أن من خصال طفله بسام الهدوء البعيد عن الصخب، والصمت الطويل، والتحلي بالصبر، والابتعاد عن ممارسة الحراك الفطري الفوضوي الذي يميّز الأطفال غالبًا، فقرّبه والده منه، وكان يأذن له أن يؤم مجالس الكبار معه، يستمع لأحاديثهم، والتي كان يغلب عليها الحديث في السياسة، وبطولات المجاهدين، وعلى رأسهم الشيخ فرحان السعدي، والذي كان ذا قربى من والدة الشيخ بسام السعدي من ناحية الأم، فقد كان شقيق جدة والدته.

وكان لكثرة ذكر الشيخ المجاهد فرحان السعدي في المجالس الأثر الكبير في تكوين فكرة الثورة لدى الطفل والفتى اليافع بسام في حينه، وعندما أصبح يافعًا واظب كما والده على الاستماع لنشرات الأخبار والبرامج الإخبارية عبر المذياع، سواء أكان ذلك عبر إذاعة «هيئة الإذاعة البريطانية – الـ بي بي سي»، أو إذاعة جمهورية مصر العربية من القاهرة، أو صوت العرب، ولاحقًا صوت الثورة الفلسطينية، صوت منظمة التحرير الفلسطينية، وكان بسام وبالرغم من صغر سنه يجالس والده في تلك الحالات، وينصت بكثير من الاهتمام لتلك الأخبار التي لم يكن يعرف _في البداية_ معناها كاملًا، لكنها شيئًا فشيئًا أصبحت تشكل بداية معرفته السياسية، فنما عنده حب الوطن، والتعلق بقضايا الشعب والأمة، وكان ذلك ممّا لفت انتباه والده، فعزز ذلك فيه عندما تدرّج في السن، ولم يمنعه عن مجلس من مجالسه أبدًا، بل أصبح يصطحبه معه في زياراته للأقارب والجيران والأصدقاء، وبذلك كانت نواة الثقافة الوطنية للطفل بسام من خلال هذا السلوك الذي كان لوالده دور كبير فيه.

النقش في الذاكرة

في ذلك اليوم الموافق للخامس من يونيو (حزيران) من عام 1967م، فوجئ أهالي مخيم جنين بصوت طلقات المدفعية الأردنية المتمركزة في مرتفع «الجابريات» (المرتفع الذي يعلو المخيم) ومن جبال برقين وجنين، وهي تطلق العنان لقذائفها لتدك بها المستوطنات الصهيونية على امتداد

ما يعرف بخط الهدنة آنذاك المقابل لسهل مرج بن عامر وجبال «جلبون»، وعندما تساءلوا عن السبب، علموا أن الحرب قد اندلعت في أكثر من جبهة، من الجولان وسيناء حتى الضفة وغزة، وأن هجومًا للقوات الصهيونية واسعًا قد بدأ على كل هذه الجبهات دفعة واحدة، فشعر سكان المخيم، وكل عموم أهالي فلسطين بالقلق والارتباك، خاصة وأن الذاكرة ما زالت تحمل صورًا لبطش القوات الصهيونية في حرب عام 1948م، وما قبلها، وما بعدها، لكن معظمهم تريث قليلًا حتى تنجلي الصورة أكثر، ويكونوا على علم بما يحدث، وما هي إلا ساعات حتى بدأت الدبابات الصهيونية بالهجوم على منطقة جنين من محورين:

الأول: من مرج بن عامر إلى واد حسن الواقع غرب لواء جنين قرب قرية كفر قود، ومن ثم إلى مثلث الشهداء ومن هناك إلى جنين.

الثاني: سلكت الدبابات الشارع الرئيسي حيفا – جنين، والتقت القوتان في المقاطعة.

عندها أحسّ السكان بالخطر، شرعوا بالنزوح، وكانت أسرة الحاج راغب السعدي ضمن هؤلاء النازحين. أسرع الحاج راغب السعدي إلى خزانته الخاصة، واستلّ منها رزمة من المال تقدر بمئات الدنانير التي كانت ذات قيمة شرائية عالية في ذلك الوقت، وفي ذروة الارتباك الشديد أعطاها لزوجته أم العبد، وقال لها: أخفيها جيدًا، فلا أحد يعلم نتيجة الحرب.

فقامت بدسّها في ثنايا زنارها الذي يطوق وسطها، ثم انطلق ركب النزوح صعودًا إلى منطقة «الجابريات» وسط صوت المدافع وغارات الطائرات، وكان الحاج راغب السعدي يحمل طفله بسام وشقيقته بالتناوب، وكلما سار عدة أمتار، التفت للخلف؛ ليتفقد أفراد عائلته، حتى وصلوا بلدة «قباطية»، والتي تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب جنين، وكانت شبه فارغة من أهلها، فسار هو ومن انضم إليه من الأقارب والمعارف جنوبًا إلى سهل «صانور»، ومن ثم إلى «جبع»، وصعدوا جبال «جبع» حتى انتهى بهم المسير في قرية «ياصيد»، الواقعة شمال مدينة نابلس.

هناك وصل الجميع منهكين من التعب الشديد، فألقوا بأنفسهم تحت أشجار الزيتون، وقرروا المبيت هناك؛ حتى تنجلي صورة الحرب.

باتت جماعة الحاج راغب السعدي في العراء، وبالرغم من كون حزيران شهرًا من أشهر الصيف الحارة إلا أن لسعة برد كانت ترافق منتصف الليل حتى الصباح في تلك المنطقة المرتفعة، فأدرك أبو العبد أنه لابد من إيواء الأطفال والنساء في غرفة، أو مكان يقيهم برد الليل، تلفت حوله، فرأى قريبًا منه بيتًا مكونًا من غرفتين، تعلوه غرفة من الإسمنت دون نوافذ، ولها باب حديدي مغلق، ذهب لذلك البيت وتبعه بسام، نادى أهل البيت، فأطلت عليه امرأة شابة، فألقى عليها السلام، وطلب منها فتح غرفتها العليا لإيواء الأطفال والنساء.

يبدو أن السيدة خشيت أن يستوطن هؤلاء النازحون اللاجئون في الغرفة، ولا يخرجوا منها، فاعتذرت متذرعة بأن زوجها مغترب في ألمانيا، وقد أقسمت يمينًا أن لا تفتح البيت لأحد حتى يعود.

جهد أبو العبد في إقناعها بالأمر، فتارة يحاول إغراءها بالمال، وتارة أخرى يحاول أن يستدرّ عطفها، لكنها لم تقبل عرضه، وأصرت على موقفها، فاستشاط غضبًا، وهدد بفتح الغرفة عنوة، إزاء ذلك انصاعت السيدة لطلبه، فبات الأطفال والنساء ليلتهم الثانية _ومنهم بسام وإخوانه وأخواته ووالدته، ومن رافقهم من الأطفال والنساء_ في تلك الغرفة، ففرح الحاج راغب السعدي بما كان، وسأل السيدة:

هل يوجد هنا دكان قريب من البيت؟

أشارت بوجود دكان على بعد عشرات الأمتار، فذهب على عجل، وابتاع منه تنكة بسكويت كبيرة، وكل ما في الدكان من كعك، وأحضرها لأطفاله وأطفال مَن معه، ولأطفال تلك السيدة أيضًا، واشترى الحليب كاملًا في ذلك المساء من صاحبة المنزل التي كانت تملك عددًا من الأغنام، وقام بتوزيعها على الجميع.

في الصباح الباكر، وبعد أن انجلت الصورة الأولى للحرب، ودوت في فضاء الأمة النكسة والهزيمة، هدأت المدافع والغارات على معظم الجبهات، فقرر الحاج أبو العبد العودة لبيته في مخيم جنين، فتقدمت منه تلك السيدة تعتذر عما أبدته من امتناع عن فتح الغرفة في البداية، وبررت الأمر في خوفها من تملّك الغرفة، والبقاء بها طويلًا، لكنها لمّا تعرفت على أبي العبد، ومن معه، وعلى كرمه وشهامته شعرت بالندم، وقالت له:

أفعالك تدل على أنّك وجيه في قومك.

تحرّك أبو العبد ومن معه من أهله وأقربائه وأصدقائه عائدين، ساروا نفس المسار الذي سلكوه قبل يومين، وفي المساء وصلوا إلى بلدة «قباطية»، وهناك باتوا ليلتهم في المسجد حتى الصباح في انتظار مزيد من الأخبار التي ستقرر ما إذا كان من الممكن تحقيق عودتهم السريعة إلى بيوتهم، وبعد ساعات الظهيرة، بثّت الإذاعة الصهيونية بيانًا تدعو فيه النازحين إلى العودة إلى بيوتهم، فشدوا الرحال من قباطية إلى جنين، وعند المساء كانوا على بوابة جنين الجنوبية، فكانت دورية من الجيش الصهيوني المحتل في انتظارهم.

توقف المسير الزاحف، وقد تقدم ضابط من تلك القوة، وكان يتكلم العربية بطلاقة (يبدو أنه كان درزيًا) شاهد أحد العائدين ـ وهو رجل من دار العموري من المخيم ـ يرتدي قميصًا «كاكي» اللون، قريبًا من قميص الجيش الأردني، فأوقفه وأراد اعتقاله، فاقتربت منه زوجته تستعطفه حتى لا يتم اعتقاله، وكانت تلك السيدة تحمل طفلًا بين يديها، فمد الطفل يده إلى وجه ذلك الجندي بعفوية، فرقّ الضابط لذلك الطفل، وعدل عن اعتقال الرجل، لكنه منعهم من العودة، وقال:

بإمكانكم العودة غدًا، فقد حلَّ المساء، ومنع التجول قد بدأ.

وفعلًا عادوا، وكرّروا المبيت في مسجد قباطية، ليعودوا في اليوم التالي نهارًا إلى بيوتهم، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع الطويل الذي لم ينته بعد.

سجل اليوم الثاني للحرب ارتقاء الشهيد الأول في مخيم جنين برصاص الاحتلال وهو الشاب عبد الله عطية نبهان أثناء محاولته الفرار من المخيم بعد عودته بأيام من ألمانيا، وقد أطلقت النار عليه؛ لأنه كان يرتدي عقالًا وكوفية حمراء اللون، اعتقادًا منهم أنه جندي في الجيش الأردني، كما فقد من المخيم عدد من الشبان الذين ذهبوا للتطوع والقتال في معركة القسطل في القدس، حيث ذهبوا ولم يعودوا لغاية الآن، منهم سامي زوايدة ووحيد الغول.

حفظت ذاكرة الطفل بسام هذه الصور بعمق، لتشكل في وعيه ووجدانه صورًا حية عن الاحتلال وممارساته، وعن الشعب الفلسطيني ومعاناته، وامتزجت تلك الصور، وتلك

الأحداث في مخزونه الطريّ الذي كان قد نهله من موائد الجلسات، وما تراه عينه صبح مساء، لتكوّن مرحلة جديدة من الإدراك، وفهم طبيعة الصراع، وانتظار فصوله القادمة، إلى الأحداث الجسيمة والصدامات الواسعة والقاسية، وهذه حتمية تاريخية سارت على مر العصور، بين كل غاصب محتل، وشعب مقهور تحت الاحتلال.

إلا أن ذلك لم يمنع استمرار الحياة، أو يوقف عجلاتها، بل كان لابد أن تمضي الأيام وتأخذ استحقاقاتها، ففي عام 1967م دخل الطفل بسام ابن السنوات الست مدرسة الوكالة في المخيم محاطًا بإخوته الذين يكبرونه سنًا، قاسم، وجمال، وأمام وجود إخوة له، وذكائه ونباهته ومكانة والده، ومعرفة الهيئة التدريسية له ولأسرته، أحيط بسام بقدرٍ كبير من الاهتمام، حيث توفر له الاستقرار، والتفرغ لإظهار قدرته في التحصيل المدرسي، ومبشرًا بمستقبل واعد.

أنهى بسام الصف الأول، وكانت شهادته المدرسية تشير إلى أنه من العشرة الأوائل، ودخل عامه الثاني في نفس المدرسة، ونال التفوق نفسه، الأمر الذي عزز مكانته عند والده، وبعد أن أنهى الصف الثاني في عام 1969م، وحلول العطلة الصيفية، كان بسام قد شق طريقه بين المتفوقين والملتزمين والمواظبين على الدراسة والتعلم.

انبلاج الضوء

استيقظت الشعوب العربية بعد عام 1967م، ومنها الشعب الفلسطيني على هول النكبة الثانية، وعلى الهزيمة المدوّية التي أضافت للذاكرة المجروحة من النكبة الأولى 1948م، جرحًا غائرًا آخر، لم يمضِ عليها من العمر الزمني سوى تسعة عشر عامًا، فكانت الصدمة، وتسلل اليأس لكثير من النفوس، في المقابل ارتفعت درجة السادية في نفوس المحتلين، فاستفردوا بالشعوب العربية التي وقعت تحت الاحتلال في كل من الضفة وغزة وسيناء والجولان، وانعكست مظاهر هذه السادية في القتل والعدوان والاعتقال وفرض الضرائب ومصادرة الأراضي والسيطرة على المياه والأجواء وتدنيس المقدسات، والسيطرة عليها واستباحتها، وكبت الحريات، وحرمان الناس أصحاب الأرض من أدنى حقوقهم، وفرض القوانين الظالمة في التنقل سواء أكان ذلك

داخليًا أم خارجيًا، وغيرها من الممارسات الاستبدادية والقاسية ضد الشعب الفلسطيني خاصة في الضفة والقطاع وسيناء، وعلى حدود قناة السويس، وكذلك في الجولان العربي السوري المحتل.

بالمقابل، لم تفتّ هذه النكبة التي تلت النكبة الأولى في عضد الشعور المقاوم، فبعد أن مضى سنتان على انطلاق الثورة الفلسطينية، وما تلا ذلك من عمليات فدائية ناجحة في عمق فلسطين، وفي كل الأرض العربية المحتلة، انطلقت على كل من جبهتيّ مصر والجولان السوري حرب الاستنزاف، حرب قالت للعدو، إن الشعوب العربية، ومنها الشعب الفلسطيني لن يسكتوا على الضيم، ولن يقبلوا بالاحتلال مهما كان الثمن، فكانت العمليات الفدائية القادمة من الأغوار، خصوصًا، تتناغم مع مدافع وعمليات حرب الاستنزاف على جبهتيّ سيناء والجولان، وهذا الأمر ـ وبغض النظر عن حجمه، وتفاوت مستوى فعله اليومي أو الأسبوعي أو الشهري ـ أفسد على المحتل فرحة انتصاره، وأبلغه بما لا يدع مجالًا للشك أن سياسة التوسع والاستبداد ونهب الأرض والسيطرة عليها، لم ولن تقبله شعوب المنطقة، وأن الجسد السرطاني الصهيوني مرفوض، ولابد من أن تنهض الشعوب العربية وجيوشها يومًا، وتستأصل هذا الورم الخبيث من الجسد العربي.

ومضت الأيام والأشهر والسنوات القليلة التي تلت هذا المشهد، فكان لمعركة الكرامة التي جرت في الحادي والعشرين من شهر مارس (آذار) من عام 1968م، وما أبلاه الفدائيون الفلسطينيون القلائل، والجيش الأردني في تلك المنطقة من مقاومة جحافل الجيش الصهيوني الغازي لمنطقة شمال الأغوار الأردنية، الأثرَ الكبير في تدفق الآلاف، بل عشرات الآلاف من الشباب الفلسطيني والعربي للانضمام للثورة الفلسطينية، والتطوع للتدرب في معسكراتها؛ لمقارعة العدو من خلال أطول جبهة مع الأرض الفلسطينية المحتلة، وهي جبهة الأردن، وهنا تنبه المحتلون، وحماتهم في الولايات المتحدة ودول الغرب إلى مخاطر تصاعد هذه الظاهرة، فدرسوا الأمر، ووجدوا في بعض ممارسات أبناء الثورة الفلسطينية الذين انضموا إليها عبر بوابات الانضمام الهائل والكبير والمفاجئ، وجدوا في ذلك فرصة للإيقاع بين الشعبين، فألّبوا النظام الأردني وقتها ضد العمل الفدائي والفدائيين.

اكتملت فصول المؤامرة ضد العمل الفدائي، فوقعت أحداث أيلول الأسود بين الجيش الأردني والفدائيين، عام 1970م، فكان قرار تجميع الفدائيين في أحراش جرش بعد إخراجهم من المدن والبلدات الأردنية، ومن ثمَّ الهجوم الكاسح عليهم، والذي أدى إلى وقوع مجازر واسعة، انتهت برحيل الفدائيين الفلسطينيين إلى لبنان، لتكون لبنان محطة جديدة من محطات دول الطوق في مقارعة العدو.

لقد كان لتلك الأحداث صدىً حزين في قلوب الشعب الفلسطيني أينما كان، وخاصة في المحتل من أرضه، فالعلاقة بين الشعبين الفلسطيني والأردني علاقة أخوية تمتد لجذور وأصول واحدة، وعائلاتهما في طرفي النهر واحدة تاريخيًا، وهما شعب واحد في مكانين هو في الأصل واحد، فبلاد الشام كانت تعرف بأنها منطقة واحدة، أهم مدنها دمشق والقدس وبيروت وعكا وعسقلان ويافا وغزة والبتراء والسلط.

كان للاستعمار البريطاني والفرنسي، وما نتج عنهما من اتفاقيتيّ «سايس بيكو» و«سان ريمو»، اللتين قسّمتا تركة العثمانيين الأتراك الذين كانوا يحكمون المنطقة إلى أربعة أقسام: لبنان اقتطعوه من الجسد السوري، والأردن من فلسطين الكبرى (التاريخية)، وبذلك وبعد الذي جرى على الشعب الفلسطيني وثورته في الأردن أضيفت نكبة جديدة لنكباته المتلاحقة أثرت في نفوس الجميع، ومنهم الفتى الصاعد بسام السعدي، وكان في ذلك الوقت قد بلغ من العمر عشرة أعوام فقط، وقد دخل الصف الرابع الابتدائي في مدرسة الوكالة في المخيم إلا أنه حزن لما جرى من أحداث بين نظام الحكم الأردني والمقاومة الفلسطينية في ذلك الوقت.

لم تلغِ الأحداث المؤسفة في الأردن طبيعة الصراع الحقيقي بين العرب والعدو الصهيوني، ولم تحرف البوصلة عن توجهات الجميع، فالثورة الفلسطينية وطّنت نفسها على الواقع الجديد في لبنان مستفيدة من تواجد اللاجئين هناك، وسرعان ما نسجوا علاقات طيبة مع اللبنانيين، وخاصة الأحزاب الوطنية التي كانت في معظمها تحت تأثير حالة المد القومي العربي، وكانوا متحدين في وجه الأفكار الانعزالية لبعض القوى اليمينية اللبنانية، وجبهتا سوريا ومصر لا زالتا في حرب الاستنزاف التي كان في ظلها يُحَضِّرُ لحرب استعادة ما خسره العرب على الجبهتين إبان نكسة عام 1967م.

يوم السبت في السادس من أكتوبر (تشرين أول) 1973م، والموافق للعاشر من شهر رمضان، كان الفتى بسام يتمشى مع أصدقاء له في ساحة المخيم الممتدة والواسعة، لقضاء بعض الوقت قبل أن يحين موعد الإفطار، وكان الحديث بين أولئك الفتية حول أمور تهمهم، وغالبها في التحصيل العلمي، ومواقف تحدث في المدرسة، والقدرة على تحمل الصيام من جوع وعطش، ولا يخلو الأمر من الضحك والابتسام، بالرغم من الإرهاق البادي على الأطفال الصائمين منهم، تجاوزت الساعة الثانية بقليل، واقتربت من الساعة الثالثة، لاحظ بسام علو صوت أجهزة المذياع المنتشرة في بيوت المخيم، وهي تتحدث عن حدث ما، جذبه ذلك المشهد، وشد انتباهه، وما أثار فضوله هو تصفيق الرجال وبعض الشبان الذين كانوا يكبرونه سنًا لشيء قد حدث.

عاد بسام على الفور إلى بيته بعد أن استأذن أصحابه، فوجد والده وإخوانه وبعض الأقارب والجيران قد تجمعوا حول المذياع مصغين صامتين، وهو ينقل أخبار مهاجمة القوات المصرية والسورية لمواقع الجيش الصهيوني المحتل وثكناته على جبهتيّ سيناء والجولان، فأدرك الجميع أن حربًا جديدة قد اندلعت بين العرب مجتمعين ومتضامنين من جهة، وبين العدو الصهيوني من جهة أخرى، فبدأت فصول تلك الحرب تعكس نتائجها على الشعور العربي والفلسطيني بعد تحقيق نتائج مثيرة وغير متوقعة من قبل الجيشين العربيين المصريّ والسوريّ، ومن معهما من جيوش عربية أخرى على الجيش الصهيوني الذي كان يوسم «بالجيش الذي لا يقهر».

تابع بسام الأخبار ساعة بساعة، ولحظة بلحظة بانفعال وفرح، ولم يكن قرار الاحتلال بقطع الكهرباء عن المناطق الفلسطينية بحائل عن متابعة نشرات الأخبار، ومتابعة كل جديد من أخبار الجبهات، فزيارة الحوانيت الصغيرة في المخيم لشراء «البطاريّة» لشحن المذياع أصبحت عادة يومية لمعظم الناس، وشبه يومية لبسام وإخوته حتى لا يفوتهم نبأ، ولا يمر عنهم خبر.

وأتاح الظلام الدامس ليلًا المجال إلى مشاهدة لمعان الصواريخ القادم من فوق الجبهة السورية من جهة الشمال الغربي المار في سماء «المزار»، وتتابعت الأيام، وكان الفرح الأول بسماع خبر معجزة اقتحام قناة السويس في غرب سيناء وعبور القناة من قبل الجيش المصري، والتي يبلغ طول خط بارليف المحصن الملاصق لها نحو مائة وسبعين كيلومترًا، وبعمق اثنتي عشرة كيلومترًا، جرى اقتحامه وتدميره وتجاوزه خلال ست ساعات.

وشكّل اندفاع الجيش العربي السوري ومن معه إلى عمق الجولان ووصول طلائع قواته إلى جسر بنات يعقوب قرب طبريا، أول أخبار الانتصارات، والتي توالت من بعدها الأخبار المفرحة، وكانت في مقدمتها إسقاط عشرات الطائرات الصهيونية، ذراع الجيش الصهيوني الضارب على الجبهتين بواسطة صواريخ سام (6) روسية الصنع، وكذلك أسر مئات الجنود الصهاينة، إضافة إلى مقتل نحو ثلاثة آلاف منهم، وجرح آلاف أخرى، وتدمير قوات النخبة من فرقة جولاني الأولى على الجبهة السورية خصوصًا، كانت تلك الأخبار بمثابة غذاء لفرح جميع العرب، وخاصة الفلسطينيين، ومنهم الفتى بسام المتوقد حماسة، وانتظارًا في بقاء هذه الأخبار، واستمرارها حتى التحرير الكامل لفلسطين، وكامل الأراضي العربية المحتلة.

لكن الغرب وفي مقدمهم الولايات المتحدة الأمريكية الراعية والداعمة بالمطلق للمشروع الصهيوني لم ترضَ بما جرى للعدو الصهيوني وجيشها على الجبهتين، فسارعت إلى مد جسر جوي بينها وبين العدو لنقل العتاد والذخيرة من دبابات وقطع مدفعية وطائرات، وكل لوازم الحرب التي خسرها العدو الصهيوني؛ لتعويض الجيش المحتل ما خسره، وما يخسره كل ساعة، بل كل دقيقة، ومنع انهيار الكيان الصهيوني كليًا، كما أمدته بفرق من القوات الأمريكية المقاتلة بالسر، كما كشفت عن ذلك وسائل إعلام غربية لاحقًا، فضلًا عن تقديم الدعم المعلوماتي الفضائي من خلال أقمار التجسس الصناعية، الأمر الذي عدّل الكفة لصالح الجيش المحتل في بعض المناطق على الجبهتين، وخاصة ما عرف بثغرة «الدفرسوار» على الجبهة المصرية، حيث قاد الجنرال الصهيوني «أرئيل شارون» هجومًا واسعًا بالدبابات في جنوب الجبهة المصرية مستغلًا ضعفها، وقام بمحاصرة قوات الجيش المصري الثالث في منطقة السويس، الأمر الذي عجّل باتخاذ الرئيس المصري آنذاك أنور السادات قرارًا منفردًا، دون موافقة كبار القادة العسكريين والضباط المصريّين بوقف الحرب ودون التنسيق مع حلفائه السوريين.

والضباط المصريون الذين كانوا يقودون جيشًا منتصرًا في عمق سيناء وصل في تقدمه الكاسح إلى أول طرق الممرات، لم يكترثوا ولم يهزهم تقدم شارون نحو السويس، بل كانوا يملكون القدرة على إفشال هذا الهجوم، وإفراغه من محتواه وتحطيمه، وتحويله ميدانيًا لقوات محاصرة تحت النار، ولزرافات من الأسرى؛ لأن ساحة الميدان بمعظمها في قبضتهم، وتحت

سيطرتهم، وهو ما أشار إليه قادة الجيش المصري في مذكراتهم بعد الحرب، ومنهم قائد أركان الجيش المصري أنداك الفريق سعد الدين الشاذلي الذي وضع خطة العبور وأشرف على كل تفاصيلها وكان يسمى بمهندس حرب أكتوبر، وقد شاركه الرأي قائد الجيش الثاني الميداني وقائد الجيش الثالث الميداني.

لكن السادات أصر بعناد على وقف الحرب، لشيء كان في خاطره تمثل لاحقًا في زيارة القدس، وعقد الصلح المنفرد مع العدو الصهيوني، فضرب الإجماع العربي في الصميم، بل نقل مصر كلها وربطها بالمنظومة الموالية للولايات المتحدة الأمريكية سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، فكان لقرار السادات بوقف الحرب الأثر السلبي على الجبهة السورية، حيث نُقِل كثيرٌ من فرق الجيش الصهيوني من جبهة سيناء إلى جبهة الجولان التي بقيت مشتعلة، فتقدم الجيش الصهيوني في منطقة القنيطرة، واضطرت القيادة السورية لوقف الحرب بعد يومين من توقفها على الجبهة المصرية، وقد أصيبت الشعوب العربية بشعور مختلط من الفرح في تحقيق انتصار، ولو كان متواضعًا، والخيبة من عدم إكمال الحرب حتى التحرير.

لكنّ الانطباع الأكبر عند الفتى بسام السعدي كان الفرح والارتياح والاغتباط لما حققه الجندي العربي على الجبهتين، وما مُنيت به قوات الاحتلال الصهيوني من خسائر لم تكن متوقعة حتى في الخيال والوعيّ، وقد أثّر هذا الشعور بكل الوطنيين، فالتصدي والتحدي من الآن فصاعدًا أصبحا في وجه المحتل الغاصب بشكل أكبر وأوسع من ذي قبل.

أول الخطا

لا زالت ذاكرة بسام السعدي الفتية تستحضر استشهاد الشيخ «حسن أبو سرية» في اشتباك مسلح بين مجموعة فدائية كان يأويها الشيخ، وذلك في حارة الدبوس في جنين، وكان الشهيد الثاني بعد «عبد الله نبهان»، وذلك بتاريخ 24/ 11/ 1969م، وفي ذات اليوم الذي كان فيه الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات يلقي كلمته التاريخية من على منصة هيئة الأمم المتحدة،

اندلعت مواجهات عنيفة بين طلبة المدارس الثانوية والإعدادية في جنين والمخيم وقوات الجيش المحتل حيث أقدم جيش الاحتلال على دهس الطالبة «منتهى عوض الحوراني» بشكل متعمد ومتكرر وهي ترفع العلم الفلسطيني حتى فاضت روحها الطاهرة في وسط مدينة جنين، فكانت الشهيدة الثالثة التي ترتقي على أرض مدينة جنين.

أصبحت الشهيدة منتهى الحوراني أيقونة للشباب والشابات في المدينة والمخيم واللواء، ووقودًا للقادم من الانتفاضات، وكانت بدايتها انتفاضة الطلاب في عام 1976م، وكان هذان الحدثان محطتين في مسيرة الوعيّ الوطني الابتدائي لذاكرة الفتى الصاعد بسام السعدي، ففي العام 1976م دخل بسام السعدي سنّ الشباب، ودخل الصف التاسع في مدرسة الوكالة، وهو لا يزال يحافظ على تفوقه الدراسي، وتحصيله العلمي، ومتابعة الأمور السياسية. وأمام مواصلة الاحتلال لممارساته العدوانية والقمعية ضد الشعب الفلسطيني اندلعت شرارة انتفاضة طلابية في مدن الضفة الغربية وقطاع غزة، عرفت وقتها بانتفاضة الطلبة عام 1976م، والتي استمرت على امتداد الفصل الدراسي الثاني من ذلك العام، وقد كانت بمشاركة طلبة من المرحلتين الإعدادية والثانوية في عموم الوطن المحتل، شارك فيها أعداد كبيرة من طلاب مخيم ومدينة جنين، وكانت محاور التحامها مع الجيش الصهيوني في المخيم ومنطقة الساحة تحديدًا، وعلى طلعة «الغُبّس» الملاصقة للمخيم من الجهة الشرقية، وطلعة «العطاري» التي تقع في وسط مدينة جنين، وكان الجيش المحتل يستخدم الهراوات والكلاب والمجنزرات وطلقات الرصاص في قمع المتظاهرين، ومحاولة السيطرة على الأوضاع المتفجرة.

رأى الشاب المتحمّس بسام في تلك المواجهات فرصته التي ينتظرها بفعل التعبئة الموجودة في وعيه ووجدانه، فسرعان ما كان من طلائع تلك المواجهة مع أقرانه وأصدقائه، ولا زالت الذاكرة تختزن بمشاهد تلك المواجهات، خاصة أنها لم تعد تقتصر على إلقاء الحجارة، بل دخل على خط المواجهة فيها استخدام الزجاجات الحارقة لأول مرة، وكان علي الصفوري أول من عبأ زجاجة حارقة وألقاها على دورية محتلة في منطقة المخيم وجنين، وذلك أمام مدرسة وكالة الغوث في المخيم، كذلك فرحان أبو الهيجاء، وحسن القنيري وعبد الحكيم الحويطي، وسعيد الحويطي، وأنور الغول، وأحمد سمارة، ونظمي حسينية (أبو علي)، ورباح فريد وسليمان أبو لبدة، ووضاح الأسمر، وغيرهم من شبان المخيم.

لم تقتصر المواجهات على الطلبة الذكور فقط، بل طالت الطالبات اللواتي شاركن بقوة في المواجهات إلى جانب الشبان، بالرغم من صغر سنهن، ومنهن: نجوى الزريقي، ونجاح محاميد، وأنعام ونعمة الخالدي، ويسرى، ونادية أبو الهيجاء، وغيرهن، وقد تعرضن لاحقًا للاعتقال بعدما تطور فعلهنَّ للعمل في إطار تنظيمي، وهنا لابد من الإشارة إلى نجاح محاميد؛ وبرغم صغر سنها في ذلك الوقت حيث كانت في الصف السابع فقد كان لها حضور وكاريزما خاصة ومميزة بين الطلاب والطالبات بسبب تزعمها لتلك الهبة أو الانتفاضة الطلابية في حينها، وقد لوحقت من قبل سلطات الاحتلال واعتقلت لمدة طويلة، وتعرضت أيضًا للاستدعاء مرات ومرات من قبل ضباط المخابرات الصهاينة، فأصبحت مصدر إلهام وأيقونة نضال لكل من كان يقاوم الاحتلال.

لم تقتصر مواصلة تلك الانتفاضة على فئة الطلاب، بل امتدت إلى كثير من الشبان ورجال المخيم، منهم: أحمد الحسن العموري، ووليد المفلح، وجمال الأشقر، وأبو خالد الجلدي، وحسين أبو الليل، وكمال السعدي، وجمال الشاتي، وحسن القنيري، وشقير حمدان، كما أنها امتدت أيضا للجماهير الفلسطينية في المحتل من الأرض عام 1948م، وتسببت الصدامات هناك في ارتقاء عدد من الشهداء في قرى: سخنين، وكفر كنا، وأم الفحم وعرابة البطوف، وغيرها، في يوم أصبح خالدًا في الذاكرة الوطنية والعربية، وفي تاريخ النضال الفلسطيني، وهو ما عُرف لاحقًا بيوم الأرض الخالد.

كانت بداية سلسلة الاعتقالات في تاريخ ذلك الشاب عام 1976م، ففي ذات يوم من أيامها الساخنة بالمواجهات، كان بسام يراجع دروسه في البيت، في حين كانت المواجهات مشتعلة في المحيط، تقدمت قوات كبيرة من جيش الاحتلال نحو محيط مدرسة الزهراء الثانوية للبنات، فجرى رشقهم بالحجارة والزجاجات الفارغة من قبل الشبان المتفضين من المخيم، فلاحقت قوة كبيرة من المشاة هؤلاء الشبان، فانسحبوا باتجاه المخيم، واختفى أغلبهم في الأزقة، باستثناء اثنين منهم، وهما: ابن عم بسام، ويدعى جميل السعدي، وآخر يدعى عصام فريحات، لم يستطيعا الانسحاب أو الهروب إلى داخل الأزقة، بل دخلا بيت الحاج راغب السعدي والد بسام للاختباء به.

هنا أدرك الجنود أن هناك شابين قد دخلا هذا البيت المقابل لهم، والذي لا يبتعد عن موقع المواجهة إلا عشرات الأمتار القليلة، فاقتحموا البيت بهمجية وعنف، فرأوا بسام، وهو يمسك كتابه، ويطالع دروسه، فهجموا عليه، وشرعوا بضربه بالعصي وأعقاب البنادق بشدة، وكان يتواجد معه في البيت أمه وشقيقته الوسطى المتزوجة من أحد أقربائه، وهو محمد نافع السعدي، وكانت في زيارة لبيت أهلها، وهي تحمل طفلتها الرضيعة الأولى، بحث الجيش في غرف المنزل، واعتقل الشابين اللذين دخلا إليه، فأصبح البيت مسرحًا للضرب المبرح بحق الشابين وبحق بسام، لكنّ شقيقته التي كانت حاضرة، لم تحتمل رؤية شقيقها الصغير يتعرض للضرب المبرح، فهاجمت أحد الجنود بعصا المكنسة التي كانت في فناء البيت، ولكن وقْع ضرب العصا جاء خفيفًا على خوذة الجندي، فزجرها باللغة العبرية آمرًا إياها بالابتعاد، فلم تكترث، وعادت إلى مهاجمته مرة أخرى، وهذه المرة مصوبة عصاها على أذنه مباشرة وبقوة، فقام ذلك الجندي ومن معه من الجنود والضباط بضربها واعتقالها مع الشبان الثلاثة، واقتادوهم جميعًا نحو سيارة عسكرية كانت تقف قرب مدرسة الزهراء على وقع الضرب والتنكيل المتواصل بهم أمام مرأى أهالي المخيم.

هذا المنظر وخاصة فيما يتعلق بالاعتداء واعتقال فتاة غير مألوف وصادم للجميع، شقيقة بسام تتعرض هي وشقيقها ومن معه للضرب، وطفلتها الرضيعة التي تركت في ساحة البيت تصرخ وتبكي، الحاجة زهدية (أم العبد) زوجة عبد الحفيظ الجارة الأقرب لبيت الحاج راغب السعدي هالها ما رأت وترى، فقدمت على عجل لبيت الحاج راغب السعدي، وقالت لوالدته وهي ترى الطفلة غارقة في البكاء الذي لا يتوقف:

ماذا تفعلين؟

ردت أم العبد، وهي تحمل الطفلة الرضيعة، والدمع بعينيها: ماذا بوسعي أن أفعل؟

قالت: اذهبي بطفلة ابنتك وضعيها أمام سيارة الجيش، وقولي لهم من سيرضع هذه الطفلة؟

فعلًا تشجعت أم العبد والدة بسام، وحملت الطفلة، وقامت بالتقدم نحو سيارة جيش الاحتلال، ووضعت الطفلة أمام عجلات السيارة، وقالت لهم ما سمعت من جارتها، عند ذلك بدأت الاتصالات بين ضابط الدورية الذي ما زال جنوده يضربون كل المعتقلين الذين هم في

داخل السيارة، ومنهم أم الطفلة، وبين قيادة الحكم العسكري ومخابراته، والتي انتهت بعد دقائق بإصدار أمر يقضي بإخلاء سبيل شقيقة بسام.

شعر بسام بالفرح عندما تحررت شقيقته، ولم يعد يأبه كثيرًا لما يلقاه من الضرب والتنكيل، دقائق وتحركت السيارات بهم عبر الطريق الترابي المحاذي لمدرسة الزهراء الثانوية إلى مقر الحكم العسكري القريب والمعروف بالمركز، وهناك تم إنزالهم من السيارة، وهم مكبلو الأيدي، فوضعوا في بيوت جانبية صغيرة ضيقة تستخدم للكلاب التابعة للجيش، وطلب منهم تحت الضرب والتنكيل البقاء بحالة وقوف، وعدم الكلام، ولم يكن هذا الحال مقتصرًا على الضرب والشبح والإهانة وتعصيب أعينهم فقط، بل استخدم الضباط معهم حربًا نفسية بالتهديد بعرضهم على المحكمة، والحكم عليهم بالسجن، بالإضافة إلى المعاناة الشديدة من البرد القارس في تلك الليلة، وألم العينين من شدة التعصيب المستمر لساعات، وعدم وجود الفراش أو الأغطية التي تقيهم من البرد.

استمر هذا الأمر حتى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، عندما جاء ضابط صهيوني، وطلب منهم أن يصطفوا خلف بعضهم بعضًا، وأن يضع كل واحد منهم يده على كتف الآخر، وقال لهم:

سنذهب بكم الآن إلى المحاكمة، فساروا وهم معصوبوا الأعين إلى المجهول الذي ينتظرهم، عشرات الخطوات حتى وصلوا المكان أُمروا أن يتوقفوا فيه، فقط آذانهم تسمع الحديث باللغة العبرية التي يجهلونها، دنا أحدهم من بسام وفك قيده، وأزاح العصبة عن عينيه، وصفعه بيده المفتوحة على عينيه، في حين قام آخر بركله برجله ودفعه؛ ليسير بسام خطوات إلى الأمام قبل أن يدرك أنها الضربات الأخيرة في هذا الفصل، وأنهم أطلقوا سراحه والمعتقلين جميعًا، فعاد ليلًا لبيتهم يداوي آثار الضرب والتنكيل الذي تلقاه من المحتل في أول مواجهة في تاريخ حياته، ولم يغادره الألم الذي استوطن جسده الغض إلا بعد أسبوعين أو يزيد.

وفي عام 1977م، أي بعد عام على الاعتقال الأول تقريبًا، بقيت هذه التجربة برغم قسوتها قياسًا مع سِنّه شاهدة أمامه على بطش المحتل، لكنها في الوقت ذاته، لم تكسر قلبه الذي تنمو

فيه الرغبة في مواصلة مقارعة المحتل حيث انتقل من مدرسة وكالة الغوث في المخيم إلى مدرسة حيفا الثانوية في جنين ليدخل المرحلة الثانوية، وليصبح في الصف الأول الثانوي «العاشر»، وفي مناسبة من مناسبات التاريخ الوطني، جرت تظاهرة في تلك المدرسة كان بسام في طليعتها، بل من المحرضين عليها، يرافقه عطا أبو ارميلة وبعض الأصدقاء الذين تمرسوا على هذا الفعل، فاعتقل بسام على يد سلطات الاحتلال، هو ومجموعة من الشبان والطلاب المشاركين في التظاهر، وغالبيتهم من المخيم، وجرى توقيفهم لمدة ثمانية عشر يومًا في سجن جنين.

في اليوم الثامن من الاعتقال لم يحتمل الحاج راغب السعدي غياب ابنه عن مقاعد الدراسة، فذهب إلى السجن؛ ليستفسر عن حال بسام، وهناك قابل ضابطًا مسؤولًا عن المعتقلين، كان يدعى «سيون»، وطالبه بالإفراج عن ابنه؛ لأنه صغير وطالب مدرسة، وأن هذا الاعتقال الجائر سيدمر مستقبله الدراسي، الضابط رفض طلبه، وأصر على إتمام مدة التوقيف، وهناك إمكانية تمديد هذا التوقيف بعد انتهاء المدة، وعرض كل المعتقلين على المحكمة للبت في قضيتهم.

شعر الحاج راغب السعدي أن الاعتقال بحق ابنه سيطول، وأن مستقبله الدراسي مهدد بالدمار، فعرض على الضابط إمكانية دفع مبلغ من المال بدلًا من الأيام العشرة المتبقية فداء لابنه ولإطلاق سراحه، وافق الضابط فدفع الحاج راغب السعدي مبلغ مائة دينار أردني، وأطلق سراح الشاب بسام من الاعتقال للمرة الثانية في غضون عامين.

تنبه ضباط الحكم العسكري لمسألة تغريم ذوي المعتقلين كنوع من العقاب، فشرعوا باعتقال آباء المعتقلين الباقين للضغط عليهم من أجل دفع غرامات باهظة لقاء إطلاق سراح أبنائهم، فرفضوا لكونهم لا يملكون المبالغ المطلوبة، فصدر بحق الآباء أمر اعتقال، وكان منهم أبو محمد الجربوع وأبو عدنان الغول، وأبو عبد الله الحويطي، وأبو نادر الصفوري، وأبو سالم النورسي، وأبو مروان الشاتي، وخميس السحنون، وقد أمضى أولئك الآباء خمسة وأربعين يومًا في الاعتقال، فشعر أبو العبد السعدي بالندم؛ لأنه افتدى حكم ولده بسام بالمال لكونه يملك المال الذي كان يؤهله لدفع الغرامة، في حين أن معظم آباء المعتقلين الباقين لا يملك معظمهم المال لتخليص أبنائهم من الاعتقال، أو إنهم رفضوا دفع الغرامات وأنه لو كان يعلم ذلك لترك ابنه

مع باقي المعتقلين يجري عليه ما يجري عليهم، ولربما أيضًا لم يتنبه المحتل لمسألة تغريم آباء الشبان المعتقلين كنوع قاس من العقاب، وهم لا يكادون يعيلون أسرهم، ويوفرون أقل متطلبات الحياة لأبنائهم وعوائلهم.

أما الاعتقال الثالث، فقد كان في نفس العام، وفي فترة الصيف بالذات، عندما كانت القوات الانعزالية اليمينية في لبنان تحاصر مخيم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين في القسم الشرقي من العاصمة اللبنانية بيروت، وكان لذلك صدى الحزن والغضب في الأرض المحتلة، وكان هذا الحزن متجسدًا بمحاولة إخفاء مظاهر أي فرح لكثير من المناسبات إلا من شاب من شبان المخيم اختار أن يكون عرسه في تلك الأزمة، وكانت الأعراس في تلك الفترة يتم إحياؤها بشعراء شعبيين.

استهجن بسام ورفاقه من الشباب الوطني المتحمس تلك الفعلة، وتحدث بعضهم عن ضرورة العمل لإفشال ذلك العرس، لكنهم تراجعوا، وقرروا أن يشاركوا به، ويحوّلوه إلى تظاهرة وطنية مؤيدة ومساندة للصمود الفلسطيني في مخيم تل الزعتر، وفعلًا احتشد الشبان في زفة العريس، وحوّلوا الأغاني الشعبية لأغانٍ وطنية، وهتافات ثورية، تمتدح صمود مخيم تل الزعتر، فقامت قوات الاحتلال التي حضرت إلى العرس بفض التجمع، فسارع الشبان إلى رشقها بالحجارة والزجاجات الفارغة، الأمر الذي أفسد تلك الزفة غير المرغوب فيها، وفضها، فتحقق مراد الشباب الثائر، وكان من المدعوين للعرس شرطيّ من إحدى قرى المنطقة، ويبدو أنه كان مرتبطًا مع أجهزة المخابرات الصهيونية، فوشى للمخابرات الصهيونية بأسماء الشبان الذين كانوا يهتفون لمخيم تل الزعتر، ويرشقون الحجارة على الدوريات العسكرية، ومن بين تلك الأسماء بسام السعدي.

في اليوم التالي، أرسل مقر الحاكم العسكري في جنين بلاغ استدعاء لعدد من الشبان من بينهم بسام السعدي، فذهب عدد من المطلوبين إلى مقر الحكم العسكري، وحُقق معهم، وأُبلغوا بما فعلوا، ووجدوا ذلك الشرطيّ شاهدًا عليهم في التحقيق، وقد أبْلِغوا أنهم سيمثلون أمام المحكمة العسكرية في نابلس، بينما رفض بسام الذهاب بالرغم من إرسال أربعة عشر تبليغًا بهذا الصدد، لكن والده أقنعه بالذهاب خوفًا من قيام قوات جيش الاحتلال باقتحام البيت ليلا وتكسيره واعتقاله بطريقة همجية.

ذهب بسام إلى المحكمة العسكرية في نابلس برفقة عدد من أصدقائه المطلوبين، والذين يكبرونه سنًا، وهناك أصدر القاضي أحكامًا بالسجن الفعلي بحقهم تتراوح بالسجن بين ثلاثة أشهر وستة أشهر، بينما أصدر حكمًا بالغرامة المالية بحق بسام قدرها 200 دينار أردني كونه أصغرهم؛ وحتى يعطى فرصة أخرى، سُرّ بسام لعدم اعتقاله، فقرر العودة للمخيم بالرغم من دنو المساء، وتوقّف الحافلات العمومية بين مدينتي جنين ونابلس، فتوجه إلى أحد السائقين، وطلب منه نقله إلى مخيم جنين، لكن أحد المواطنين عرض عليه استضافته وقضاء تلك الليلة في بيته بعدما عرف قصته، وحتى لا يتحمل تكاليف سيارة النقل العمومي، لكن بسام شكر الرجل، وأصر على العودة إلى المخيم.

عاد بسام للمخيم بعد أن دفع ثمانية دنانير أجرة للسيارة، ودفع لوالده بالشك الذي حمله كغرامة بقيمة 200 دينار ليدفع قيمته عبر صندوق البريد، فشعر الوالد بالغضب بعد الفرح بعودة ابنه دون اعتقال، فأنّب ابنه بسام، وقال له:

فقط أنا أعمل لك وحدك؟ قسمًا إذا بقيت على هذا النهج ليأتين يومٌ تهدم المخيم وبيتنا هذا، وتجلس على ركامه، وتضطرنا أنا وإخوتك للجوء مرة أخرى.

لكنه كان أيضًا يتحدث أمام ابنه بحديث يشجع على المقاومة، فقد اقترح عليه بعد عشر سنوات من تلك الحادثة تقريبًا، أي في انتفاضة الحجارة أن يشتري له مسدسًا.

لقد شكلت تلك الأحداث والمواجهات وما نتج عنها من اعتقال وسجن متكرر للشيخ بسام بداية الانصهار في الحياة التي تنتظره، فالتعبئة التلقائية والمباشرة وغير المباشرة التي كسبها حتى بلغ سن السادسة عشرة من العمر، شكّلت إضافة جديدة إلى وعيه المتنامي، وأكثر ما كان يستوقفه خاصة أثناء فترة الاعتقال والسجن، هو وجود الفصائلية التي تنتمي لمنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها سواء ذات الميول القومية الوطنية كحركة فتح وغيرها، أو ذات الميول الماركسية، وغياب النموذج الذي ترعرع على سماع تاريخه ومسيرته، فالكراسات والجلسات التثقيفية في غرف المعتقلين لا تأتي على ثورة عز الدين القسام وصولات الشيخ فرحان السعدي والشيخ المجاهد نايف الزعبي إلا مرورًا هامشيًّا، وليس كثقافة تعبئة، وكان الشيخ يفكر عميقًا في

ذلك الفقدان فلا يجد له جوابًا شافيًا، لكنه لم ييأس، وبقيّ يبحث عن صور الغرس الذي نما في عقله ووعيه ووجدانه حتى يجده.

مع ذلك لم يكن لينكر على أحد من المقاومين مفاهيمه النضالية والكفاحية من منطلق احترامه لكل درب من دروب المقاومة، ولم يبح لأحد في تلك الفترات الصغيرة من الاعتقال بنقد أو استصغار أو تقزيم أو مقارنة فجة بين كل المدارس النضالية، بل كان يعي أن رسالتنا جميعًا هي فلسطين، وأن بينه وبين أولئك الأسرى جوامع وتقاطعات كثيرة يلتقون بها، أكثر بكثير من الاختلافات في الاجتهادات، لذلك برزت في نفسه ظاهرة الجمع والاتحاد، والالتفاف حول الهدف لتكون في المستقبل ممارسة مميزة انتهجها بنجاح، فعادت عليه وعلى خطه الجهادي بالثناء والتقدير والاحترام.

ما بين عام 1977م وعام 1979م خفت المواجهات والصدامات بين الجماهير الفلسطينية وقوات الاحتلال في معظم مدن الضفة والقطاع والقرى والمخيمات، وانعكس هذا الأمر كنوع من الاستقرار في حياة الشاب بسام الذي سرعان ما دخل في المرحلة الثانوية المعروفة اصطلاحًا وشعبيًا باسم «التوجيهي»، فركّز على الدراسة والاجتهاد ليكون من الناجحين، ويحقق حلمه في الدراسة الجامعية إما في مجال الطب أو في مجال الهندسة، مع بقاء فكره الوطني المتحفز باحثًا عن نموذج ثوري إسلامي على خطا المجاهدين الأوائل من الشيخ فرحان السعدي وعز الدين القسام.

ولما انتصرت الثورة الإسلامية في إيران في الحادي عشر من فبراير (شباط) من العام 1979م؛ زاد هذا التمسك بعملية البحث لما رآه هو والكثيرون من الشعب الفلسطيني والشعوب العربية والإسلامية من أمل في عودة الإسلام كمنهج حياة في مقاومة الظلم والاستعمار والصهيونية، وقد أضاف انتصار الثورة الإسلامية في إيران أملًا ويقينًا في بلوغ الهدف الذي طالما سعى إليه بسام، وهو وجود تنظيم إسلامي مقاوم، فما يراه في محيطه القريب إما فصائل وطنية ذات توجه وطني كحركة «فتح»، أو فصائل ذات فكر ماركسي كالجبهات، وهم يقاومون المحتل، ويُستشهدون ويعتقلون ويصابون.

كان بسام مسكونًا بتأثير آخر عملية لحركة فتح جرت بتاريخ 11/ 03/ 1978م وهي عملية الشهيد كمال عدوان والتي عرفت بعملية «الساحل» أيضًا، والتي نفذها اثنا عشر شابًا مقاومًا، بقيادة صبية هي الشهيدة دلال المغربي، والتي كانت من أكبر العمليات التي أوجعت المحتل في تلك الفترة حيث أسفرت عن مقتل نحو سبعة وثلاثين صهيونيًا وجرح العشرات الآخرين واستشهاد عشرة من أعضاء المجموعة منهم الشهيدة دلال المغربي، وأسر اثنين منهم، وهما رياض مراد، وحسين فياض.

وكان الفكر الإسلامي السائد، فكرًا دعويًا يرى في الصدام مع المحتل في تلك الفترة مرحلة لم يحن أوانها، وكان هذا التفاوت بين الاتجاهين يقلقه، ويتمنى ظهور اتجاه ثالث يجمع بين الإسلامية والثورة، فكانت الثورة الإسلامية في إيران نموذجًا فيه بعض ضالته، بصرف النظر عن

الخلافات الفقهية بين الشيعة أهل تلك الثورة ومنطلقها، وأهل السنة الذين ينتمي إليهم بسام.

في صيف عام 1979م ظهرت نتائج الثانوية العامة، وكان بسام من الناجحين فيها، ولكونه كان يدرك مقوماته العلمية، وثقته بالنجاح لتحقيق الحلم الذي راوده كثيرًا، فقد تواصل مع جامعة «تنسي» الأمريكية، وحصل على قبول الدراسة فيها، وفعلًا شد الرحال إلى الأردن؛ لكي يغادر من هناك إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن ما جرى من حادث اقتحام السفارة الأمريكية في طهران على يد طلاب الثورة الإيرانيين، واحتجاز اثنين وخمسين أمريكيًا فيها لمدة امتدت لأربعمائة وأربعة وأربعين يومًا انتهت بإطلاق سراحهم وفق الاتفاق غير المباشر بين إيران والولايات المتحدة برعاية ووساطة الجزائر.

هذا الحدث كان حجة للولايات المتحدة بمنع قدوم كثير من حاملي الجنسيات إليها، ومنهم من ينتمون إلى دول عربية وإسلامية، وعلى رأسهم الإيرانيون والفلسطينيون والأردنيون والسوريون وغيرهم؛ الأمر الذي حال دون إتمام بسام لسفره، فعاد إلى مخيم جنين ليعيد ترتيب أوراقه من جديد، ومكث بين أهله سنة أخرى، قضاها في مساعدة والده وإخوانه في العمل، ومطالعة الكتب الثقافية تماشيًا مع ما اعتاد عليه خلال فترة الدراسة الثانوية والابتدائية، فكانت رواية «في بيتنا رجل» للكاتب الكبير إحسان عبد القدوس أول كتاب ثقافي خارج المتطلبات الدراسية يقرأه وينطلق من بعدها لمطالعة كثير من الكتب الثقافية ذات التوجه الإسلامي خاصة، كما قام بمراسلة جامعة إيطالية ليبدأ مشواره الجامعي فيها، وقد حصل على القبول اللازم، وسافر من جديد قاصدًا الأردن، ومنه إلى إيطاليا برفقة صديق له من المخيم يدعى محمد خريوش. مكثا في الأردن عدة أيام، واستكملا باقي الأوراق والمتطلبات اللازمة، وتحركا صباحًا من مجمع العبدلي نحو مطار ماركا بسيارة محمد العموري المعروف باسم (أبو شفيقة) ابن المخيم، والذي كان قد ارتحل إلى الأردن للعمل كسائق تاكسي عمومي.

كانت المسافة بين مجمع العبدلي ومطار ماركا لشابين هما في مقتبل العمر، وفي بداية مرحلة الشباب مسافة صعبة، فيها من القلق والانتظار والتفكير في المستقبل والأهل والغربة، فراح السائق (أبو شفيقة) يهديهما النصح والإرشاد بالقول: «أنتما شابان في بداية العمر ذاهبان لبلاد الغربة،

والتي ستريان فيها عادات وتقاليد تختلف تمامًا عن البيئة المحافظة التي نشأتما فيها، لذلك عليكما تحصين نفسيكما بالإيمان والعبادة والتقوى حتى لا تجرفكما تلك البيئة، وتذكرا دائمًا أن أهاليكما في المخيم الذين يقطعون عن أنفسهم لقمة العيش، أرسلاكما للحصول على العلم من أجل أن تكونا لهم عونًا على صعوبة الحياة، فنحن _أهل المخيمات_ لاجئون معدمون، لا زيتونة لنا، ولا تينة».

هذه الكلمات كان لها أشد الأثر في وجدان الشابين، وخاصة بسام، فأخذ عهدًا على نفسه ألّا يقطع فرضًا، وأن يصب جلَّ جهده في الدراسة والأعمال المفيدة، والصمود أمام المغريات، وأن يتجنب الوقوع في خطايا تلك الحضارات الغربية المغرية.

فعلًا وصلا إلى العاصمة الإيطالية روما، ومنها إلى مدينة «بيروجيا» التي تقع في منطقة «أوبرنا» في وسط إيطاليا وتشتهر جامعاتها بالتعليم، وخاصة تعليم اللغة الإيطالية، فقام بسام على الفور باستئجار شقة صغيرة عند سيدة عجوز تقوم بتأجير الطلبة، وسرعان ما انضم للجامعة؛ ليبدأ دراسة اللغة التي ستكون مدخلًا لقبوله إما في كلية الطب أو في كلية الهندسة.

كانت بدايات صعبة؛ غربة وعدم وجود تواصل مع الأهل إلا عبر الرسائل البريدية التي تأخذ وقتًا طويلًا حتى تصل، ويتم الرد عليها، لكن بسام المتأثر بالتربية الدينية عالج تلك الأمور الصعبة بجلد وإرادة، فقد واظب وبشكل دقيق على الصلوات والعبادات والدراسة، وأفرد لنفسه ساعات قليلة من اليوم للتنزه والراحة، وقد استطاع خلال أربعة أشهر تعلم نحو 70 ٪ من اللغة الإيطالية، وهي فترة قياسية بالنسبة لباقي الطلاب الأجانب والعرب الذين يأتون إلى إيطاليا للدراسة، وما ساعده أيضًا مسلكه الحسن، وخصاله الحميدة التي انعكست على علاقاته الضيقة إن جاز لنا التعبير في وصفها، خاصة لجهة ثقة صاحبة المنزل واحترامها؛ لما رأت فيه من الأمانة والاستقامة، كما كان الخوري الذي يدعى «دوم بريمو» الذي كان في منطقة السكن قد أحبه وعبّر له عن ذلك، حيث كان يقضي إجازته اليومية من الكنيسة المحددة بساعتين عند بسام، ويحضر له قطعة الشكولاتة التي كان يحصل عليها، ويحادثه، ويصحح بعض الكلمات والمصطلحات في اللغة الإيطالية، كما عبر له مرارًا وتكرارًا عن حبه الشديد له بالرغم من كونه مسلمًا، وأنه يرى فيه كثيرًا من الصفات التي تجمعه معه من تدين وأخلاق أفضل من أبناء دينه من الشبان

المسيحيين، وذات يوم تعرض بسام لوعكة صحية، فقام الخوري شخصيًا بخدمته والإشراف على حالته وإحضار الدواء اللازم، وصناعة الحساء الساخن له، وملازمته حتى شفي وتعافى.

ولعل في قصة ذلك الرجل الإيطالي الثلاثيني الذي كان يسكن مع الشيخ بسام في نفس السكن، في الغرفة المجاورة لغرفته تمامًا، مثلًا على التزام الشيخ بتعاليم دينه وتمسكه بالقيم والأخلاق الإنسانيّة، فالرجل كان يعاني من مرض عصبي ونفسي، ولا يخرج من البيت بتاتًا، وكان ينتظر أخاه حتى يأتي من مدينة «نابولي» الواقعة جنوب إيطاليا كل فترة كيّ يشتري له مستلزماته واحتياجاته من مأكل ومشرب وغيره، وإذا لم يأت أخوه أو أي أحد آخر، كان يمضي عدة أيام دون طعام، فشعر الشيخ بالتعاطف مع هذا الشخص من الناحية الإنسانيّة، وقرر مساعدته، لكن الشيخ واجه مشكلة في التعامل مع هذا الرجل أثناء سعيه لخدمته، وهي أن ذاكرته كانت ضعيفة، فحتى يتذكر ما يريد، تمضي ساعتان أو ثلاث ساعات ليكتبه على ورقة، ويرفض أن يكتب له أي شخص آخر، فيجلس الشيخ ينتظره حتى ينهي كتابة قائمة المطالب، مستغلًا وقته في القراءة، وذات يوم طلب أن يحضر له «الويسكي»، فاعتذر الشيخ، وقال له:

هذا حرام في ديننا فطلب مشروب «البيرة» فرفض الشيخ أيضًا، فقال ذلك الرجل: «البيرة» لا تسكر، فقال له الشيخ: عندنا حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وتابع الشيخ: سأحضر لك «الكولا»، فوافق وقال: لا مانع مع أني غير راغب فيها، وكان يطلب لحم الخنزير ولم يلب له الشيخ رغبته في هذا المطلب بتاتًا. هذا التصرف أثر كثيرًا في ذلك الرجل، وترسّخت معه العلاقة، وعندما همَّ الشيخ بسام بالعودة إلى أرض الوطن بعد ستة أشهر تقريبًا، جاءه وزاره، وأثنى على تصرفه معه، وقال: «لقد رأيت عربًا ومسلمين كثيرًا، لكنهم لم يكونوا مثلك»، فرد الشيخ قائلًا: «إنّ دين الإسلام يؤثر بمن يحمله، وهكذا يأمرنا ديننا».

رغم ذلك كان لابد في تلك البيئة من أن يتعرّض بسام الشاب الفلسطيني المتدين الخلوق للاختبار من قبل الجنس الآخر، ففي ذات يوم كان يقف في طابور طويل في قاعة طعام تابعة للجامعة تسمى «المينسا»، جاءت فتاة إيرانية متبرجة، فوقفت قبالته وألقت عليه التحية

بابتسامة، فرد عليها التحية ظنًا منه أنها ستغير وقفتها، لكنها استمرت في الحديث معه، فأدرك بسام ما تريد، وهو التعرف عليه، وأن يكون صديقًا لها ليعلمها اللغة، فعالج الأمر بكل هدوء ورويّة، حيث قدمها أمامه كنوع من الاحترام من جهة، ومن جهة أخرى لإفساح المجال لتأخذ حصتها الغذائية قبله، وتختار طاولتها؛ ليقوم هو بالابتعاد عن طاولتها، حيث جرت العادة أن يجلس كل صديقين من شاب وفتاة معًا على طاولة منفردة لتناول الطعام معًا، وفعلًا حصلت هي على حصتها الغذائية، وتقدمت نحو إحدى الطاولات، وجلست تنتظره، في حين قام هو باستلام حصته من الطعام، وذهب بعيدًا عنها، متجاوزًا ثلاثة صفوف من الطاولات، وجلس يأكل وحده بعيدًا عنها، بالرغم من تضايقها من هذا التصرف، إلا أنها لم تتركه، فقد كانت تتعمد إلقاء التحية عليه، والتبسّم في وجهه، وتقديمه لصديقاتها، حتى كان ذلك اليوم الذي وقف بسام بين يدي الله في صلاة الظهر، والتي ختمها بالدعاء الخالص من القلب طالبًا من الله أن يبعد عنه فتنة تلك الفتاة، أنهى الصلاة وذهب إلى مبنى الجامعة، فرأته، فغيّرت طريقها فورًا، وأشاحت بوجهها عنه، فحمد الله كثيرًا على سرعة الاستجابة لدعوته الخالصة.

مكث في إيطاليا ستة أشهر ونصفًا، منهيًا مرحلة التعليم اللغوي خلالها بنجاح، لكن إدارة الجامعة قامت بتأجيل امتحان القبول لأقسام الانتساب لفروع الكليات لعدة أشهر، فقرر بسام العودة إلى فلسطين وإلى مسقط رأسه في مخيم جنين ليقضي الفترة المتبقية والطويلة بين أهله وذويه، لكن الأحوال التي تعيشها فلسطين تحت ظروف الاحتلال لا يمكن توقعها، فبعد أن اقترب موعد الامتحان الجامعي، حاول بسام العودة إلى إيطاليا للمشاركة فيه، والذي ينتظره بفارغ الصبر إلا أنه اصطدم بقرار سلطات الاحتلال القاضي بمنع أهالي مخيم جنين وبرقين من السفر خاصة الشباب والرجال منهم، بحجة اعتقال خلية فدائية تابعة لحركة «فتح» مكوّنة من عدد من شبان المخيم وقرية برقين المجاورة، وقد استمر هذا المنع عدة أشهر، مرَّ خلالها موعد الامتحان الجامعي في إيطاليا، وعندما علم برفع المنع، سارع إلى الاتصال بصديقه وزميله محمد خريوش للاستفسار عن موعد الامتحان، فكان الجواب أن الجامعة أجرت الامتحان، وأن الامتحان الآخر سيكون بعد عام؛ الأمر الذي أفقد بسام فرصته في الدخول في التعليم الجامعي في إيطاليا.

وحتى لا يضيع وقته دون تعليم جامعي قرر السفر للأردن، والانتساب لمعهد ابن خلدون في إربد لدراسة المحاسبة، كان ذلك في عام 1981م، وكعادته استثمر وقته في الدراسة الأكاديمية وواجباتها، والالتزام بالصلاة والعبادة ومطالعة الكتب الثقافية، سواء الروايات الهادفة، أو علوم الدين والتاريخ والإنسانيات، ولكنه لم يكن راغبًا في دراسة المحاسبة، ولم ينسجم مع هذه الدراسة، رغم استكمال متطلباتها بنجاح.

ولكونه شابًا متدينًا، فقد كان لذلك اليوم الذي التقى فيه بالشارع وبشكل عرضي بمجموعة من رجال الدعوة والتبليغ الأثر في نفسه، فسرعان ما استجاب لطلبهم الانضمام ومؤازرتهم في تبليغ الدعوة لعامة الناس، والخروج معهم في رحلاتهم وتنقلهم بين مساجد إربد وقراها، فخرج معهم لثلاثة أيام إلى قرية «النويعمة» قضاء إربد، وآزرهم لأيام كثيرة من أيام الإجازات في مساجد إربد، وكان يشاركهم في الاستماع للمواعظ والدروس، وزيارة البيوت والأماكن العامة من مقاهٍ وأسواق وغيرها، ويحث الرجال والشبان على تلبية الدعوة إلى الله.

كان لهذه الفترة التي رافق فيها جماعة الدعوة الأثر العميق في ترسيخ شخصيته وتنمية ما فيها من خصال تتمثل في سعة الصدر والصبر والتحمل، كما أنه أنشأ علاقات جيدة مع بعضهم حتى أصبحوا أصدقاء له، وقد كان يُعبّر عن امتداحه لهم، ولأسلوبهم، ولطريقتهم، مع وجود بعض الملاحظات على بعض أساليب دعوتهم، وقد دامت هذه العلاقة لأكثر من عام ونصف، قبل أن ينهي دراسته العلمية في المعهد المذكور في عام 1983م، ويعود إلى فلسطين، وإلى مخيم جنين من جديد.

كما شعر الشيخ بسام بالحزن الشديد بعدما تلقى نبأ استشهاد شاب من المخيم في تاريخ 24/ 03/ 1982م، وهو الشهيد فتحي عيسى قانوع الذي تمكن من قتل جندي من حرس الحدود وسط مدينة جنين بواسطة سكين صنعها بنفسه، وحملها معه عندما كان ورفاقه يأمرون المحلات التجارية بالإغلاق لتنفيذ إضراب احتجاجي على قيام سلطات الاحتلال بإقالة رؤساء بلديات منتخبين في مدن الضفة، فوقعت هبة شعبية محدودة ارتقى خلالها ستة شهداء كان من بينهم الشهيد القانوع، وتمنى الشيخ لو كان في المخيم ليشارك في تلك الأحداث، خاصة وأن

المخيم تعرض وقتها لمنع التجول المشدد لأسبوع كامل، فعادت له ذاكرة انتفاضة العام 1976م، خاصة وأن الشهيد القانوع كان زميلًا وصديقًا له في المدرسة.

وخلال تلك الفترة، وفي الرابع من يونيو (حزيران) من العام 1982م، غزت قوات الاحتلال الصهيوني جنوب لبنان للقضاء على قوى منظمة التحرير الفلسطينية بعملية عسكرية واسعة أسموها، عملية «سلامة الجليل»، هذا الحدث الأبرز الذي أعاد لبسام التفكير مجددًا في السؤال المُلحّ: لماذا لا يكون هناك حركة أو حزب إسلامي مقاوم أسوة بفصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

تابع بسام الغزو وأخبار المعارك والمواجهات ساعة بساعة، ولحظة بلحظة، من تاريخ الرابع من يونيو (حزيران) حتى نهاية شهر أغسطس (آب) من نفس العام، وهو الذي شهد خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت بعد حصار دام نحو ثمانين يومًا، سطرت فيه قوات المنظمة والفصائل التابعة لها وقوى الحركات اللبنانية الوطنية والقوات السورية سجلًا في البطولات والتضحية والصمود.

لكن ما حدث بعدها بأسابيع من ارتكاب قوات اليمين اللبناني متمثلًا بحزب الكتائب والقوات اللبنانية بحماية ودعم وتوجيه من القوات الصهيونية المحتلة والغازية، للمجازر بحقّ سكان مخيميّ صبرا وشاتيلا والمناطق المجاورة لها بعد عملية اغتيال الرئيس اللبناني بشير الجميل المتعاون مع قوات الاحتلال الصهيوني، والتي اتخذها الاحتلال وأعوانه حجة للتدخل واجتياح بيروت الغربية، خلافًا ونكثًا للاتفاق الذي وقعه الوسيط الأمريكي «فيليب حبيب» آنذاك، والذي قضى بخروج القوات الفلسطينية مقابل ضمان حماية المخيمات، وكان لتلك الأحداث في نفس بسام الأثر العميق من الغضب والحنق، فلم يستطع كبت ما في قلبه، فأصبح يعبر عما يشعر به في الجلسات العامة سواء في الكلية أو في تجمعات الطلبة وبين الأصدقاء والأقرباء وفي كل مكان كان يجلس فيه، غير مكترث لما قد يتعرض له من قبل السلطات الأردنية، ومع ذلك لم يتعرض له أحد، وعاد في نهاية تحصيله العلمي لبيت ذويه في مخيم جنين يحمل شهادة الدبلوم في المحاسبة.

العودة والزواج

عاد الشيخ بسام من الأردن إلى مخيم جنين في صيف عام 1983م، بعد حصوله على الدبلوم في المحاسبة، ولم يكن بحاجة للعمل بمؤهله العلمي لكون معمل الطوب الذي يملكه والده في المخيم قد توسع، وأصبح يتاجر أيضا بمواد البناء كافة، فانضم لإخوته في العمل في مشروع والده الجديد، في ذات الوقت التصق ببسام لقب «الشيخ» بعد عودته من الأردن وتدينه والتزامه الصارم بالعبادات والأخلاق الإسلامية.

وفي ظل هذه الأجواء، ومن منطلق رغبته في تطبيق سنة الله ورسوله في الخلق، ومن منطلق إيمانيّ وروحانيّ، حمل معه بعد عودته فكرة الزواج، وبناء الأسرة، وهذا الأمر الخاص لم يكن بعيدًا عن التوجه الذاتي والشخصي للشيخ بسام، من حيث حرصه على ارتباطه بفتاة كل ما فيها يتناغم مع توجهاته وفكره ومسلكه وطريقة حياته، فكان خياره ابنة عمه التي تعيش مع والدتها، بعدما غيّب العمل الفدائي أحد أشقائها الذي كان ضمن صفوف الثورة الفلسطينية، وارتقى شهيدًا في لبنان فيما بعد، فقد كانت العروس التي يهفو إليها قلبه ذات دين وخلق وبِرّ وصبر، فتقدم لها، وقبلت به، وهي تعلم توجهه وتمسكه بذات الشوكة، وما يترتب على ذلك من مطاردة واعتقال وسجن وربما الشهادة، وأن حياته معاناة دائمة، فخطبها في شهر (سبتمبر) أيلول من العام 1983م، وتزوجها في فبراير (شباط) من العام 1984م، أي بعد ستة أشهر من فترة الخطوبة.

كانت الشواهد على تفانيها في نصرة دعوة الإسلام كثيرة، منها أن الشباب المسلم في مسجد المخيم قرروا تكوين فريقين رياضيين، فريق للكبار، وآخر للصغار لاستثمار وقت الفراغ بما يعود عليهم بالصحة وتربية البدن، وتعويد الشبان على التردد إلى المسجد، فلزم ذلك شراء أربع عشرة كرة، فجمعوا من بعضهم تبرعات متواضعة، لكن المبلغ المجموع لم يكن كافيًا، فذهب الشيخ بسّام العريس الجديد إلى البيت من فوره، وطلب من زوجته تقديم العون لهذه الحملة، فوضعت بين يديه ما بقي من نقوط عرسها لإكمال المبلغ، وإن كان قليلًا، إلا أنه أسعف الموقف.

رزق الشيخ بسام وزوجته بالمولودة الأولى نهاية العام 1984م، فأسماها «إسلام»، تيمنًا بالإسلام العظيم كمنهج حياة، وفي تاريخ السادس والعشرين من شهر أبريل (نيسان) من العام 1986م رزقا بتوأمين من الذكور سماهما والده «إبراهيم» و«عبد الكريم»، وقد سرّ الشيخ بسام فيما بعد، أن يُكنّى (أبا إبراهيم)، كون هذه الكُنية تتماثل مع كُنْية القائد المؤسس الشهيد فتحي الشقاقي (أبو إبراهيم).

كما رزق بمولود ذكر أسماه «عز الدين»، أسوة بالقائد المجاهد القائد عز الدين القسام، والذي كانت معرفته في الذاكرة الفلسطينية بتوسع أكبر، من خلال حركة الجهاد الإسلامي عبر كتاب «الوعي والثورة» الذي ألفه الدكتور سميح حمودة من الرعيل الأول لحركة الجهاد الإسلامي، بتوجيهات من الدكتور المؤسس القائد فتحي الشقاقي، وكان ذلك الكتاب معتمدًا في أدبيات الحركة، ومادة أساسية في جلسات النشأة والتوعية الفكرية، ثم رزق بمولودة أنثى سماها «عطاف» تيمنًا بالمجاهدة عطاف عليان التي سجنت في العام 1986م بتهمة التحضير لتنفيذ عملية استشهادية في مقر الحكومة الصهيونية في القدس، وقد قضت المحكمة العسكرية الصهيونية بسجنها لمدة أربع سنوات، ثم أضافت لحكمها عشر سنوات أخرى ليصبح أربعة عشر عامًا، وذلك على إثر محاولتها خنق مجندة داخل الزنزانة، فأثرت تلك المجاهدة في نفوس الكثيرين من عشاق خط المقاومة والجهاد، كما أثرت من قبلها دلال المغربي وليلى خالد وفاطمة البرناوي وغيرهنّ، وعندما خرجت من المعتقل، أرسل الشيخ بسام زوجته إلى بيت لحم لزيارتها مرتين، وقامت عطاف عليان بدورها برد الزيارة لاحقًا، وتعرفت على أسرته وخصوصا ابنته «عطاف» التي حملت اسمها.

في عام 1990م، وعندما كان الشيخ بسام يخوض مرحلة مطاردته الطويلة الأولى رزق بمولودة أنثى سماها «ضحى»؛ تيمنًا بالسورة القرآنية «الضحى»، ثم رزق بمولودة أنثى عندما كان مبعدًا إلى مرج الزهور سماها « زهور»، كما رزقه الله مولودًا سماه صهيب تيمنًا بالصحابيّ الجليل صهيّب الرومي رضوان الله عليه، ورزق بعد عودته من الإبعاد بمولود ذكر آخر سماه «فتحي» تيمنًا بالقائد المؤسس القائد الدكتور فتحي الشقاقي، وأيضًا تيمنًا بأحد قادة الدعوة الإسلامية في

داخل الوطن المحتل ابن مدينة الناصرة المحتلة، الأسير المحرر (فتحي علي ناصر)، والذي أمضى في سجون الاحتلال ستة عشر عامًا، وخرج ضمن صفقة التبادل التي جرت بين الجبهة الشعبية (القيادة العامة)، ودولة الاحتلال في مايو (أيار) من عام 1985م، وأثناء وجود الشيخ بسام قيد الاعتقال السياسي في سجن السلطة الفلسطينية في جنين في عام 1996م، رزق بمولود ذكر أسماه «يحيى» تيمنًا بالشهيد القسامي يحيى عياش.

فكل أسماء أولاده وكرياته تحمل دلالات منهجه الإيماني الجهادي المرتبط بالتاريخ الذي أحبه وما زال حتى تتكامل كل توجهات حياته ضمن الخط الذي رسمه لنفسه، ومضى به حتى الآن.

عندما عاد الشيخ بسام من الأردن متسلحًا بالعقيدة الصلبة، والإيمان العميق، والبحث الدائم عن النهج المفقود الذي يسعى جاهدًا للوصول إليه، ونظرًا لكون بيته على بعد أمتار من المسجد الكبير في المخيم، أصبحت صلواته الخمس ضمن صفوف الجماعة، فانتشر بين أهالي المخيم والمدينة لقبه الجديد «الشيخ»، وخلال تردده على المسجد تعرّف هناك على أبناء مخيمه أصحاب التوجه الإسلامي من أبناء الحركة الإسلامية، مثل الشيخ إبراهيم الجبر وآخرين، الذين يستمدون ثقافتهم ومنطلقاتهم الدينية من فكر الإخوان المسلمين، فسرعان ما انسجم معهم مع إقراره من الداخل أن هذه الثقافة التي يحترمها بحاجة لأن يرتبط بها فكر مقاوم، وكان يصدح بذلك أمامهم، خلال جلساته معهم، فكان أصحاب تلك الفكرة يرددون مقولة «أن الوقت لم يحن بعد، ونحن أسرى، والنصر يأتي من الخارج، وأننا بحاجة إلى مزيد من التربية والإعداد».

ومع تحفظ الشيخ بسام على مثل هذا الاجتهاد إلا أنه لم ينكر لهم فضلًا، ولم يرفض التعاون معهم، بل على العكس من ذلك انصهر في بوتقتهم، وأقبل على مطالعة كتبهم، وجالسهم في مجالسهم الدعوية والتثقيفية، وشارك بها بقوة، واستفاد من تجربة الشاب الخلوق المهندس عصام الشلبي الذي كان قد عاد من الأردن مسلحًا بثقافة ومعرفة واسعتين في العمل الدعوي الإسلامي حتى غدا أميرًا لشباب مسجد المخيم ولعدة سنوات، وقد ترتب على ذلك قيامه ذات يوم بالذهاب مع ستة من كوادرهم وعناصرهم في المخيم لزيارة الشيخ المجاهد الداعية أحمد ياسين في غزة، والتقوا به في المجمّع الإسلامي، واستمعوا منه لخطبة الجمعة في ذلك المجمّع، وحمل الشيخ بسام وقتها ما حمل من انطباع كان لابد من مقارنته بلقاء المؤسس الشهيد الدكتور فتحي الشقاقي؛ بعد أشهر قليلة من هذه الزيارة، التي أعطت انطباعًا طيبًا عن تواضع الشيخ أحمد ياسين، وتفانيه في خدمة الإسلام.

ولكي يصل الشيخ بسام إلى تلك الزيارة التي غيرت مسار اتجاهه؛ شاءت إرادة الله أن يجيء ذلك اليوم الذي يذهب بصحبة الشاب حسام أبو سرية لسوق المدينة، فيلتقي حسام هناك بشاب من سيلة الحارثية يعرفه اسمه خالد جرادات، والذي لم يكن يعرفه الشيخ بسام من

قبل، وجرى نقاش بين حسام وخالد جرادات، حيث إن الأخير من أوائل من التحقوا بفكرة حركة الجهاد الإسلامي في الضفة، ورأوا في فكر الدكتور فتحي الشقاقي الخط الإسلامي الأجدر بالاتباع والاقتداء، خلال المناقشة كان الشيخ بسام يميل لتأييد أفكار خالد جرادات، فتنبه لذلك خالد جرادات، وتعرف عليه أكثر، وطلب من الشيخ بسام تحديد موعد لزيارته في المخيم، فرحب الشيخ بذلك.

وما هي إلا أيام، وإذا بخالد جرادات يطرق باب الشيخ بسام وهو يحمل له هدية فريدة، وهي عبارة عن ثلاث نسخ من مجلة «الطليعة» التي كانت تصدر في لندن، وتعبر عن فكر حركة الجهاد الإسلامي، فَسُرَّ الشيخ بسام كثيرا، وما أن غادر خالد جرادات بيت الشيخ بسام في ساعات المساء حتى شرع الشيخ بقراءة هذه الأعداد الثلاثة من أولها لآخرها، فأنهاها جميعًا مع أذان الفجر حيث كان متعطشًا لمثل هذا الفكر الذي انتظر أن يكون له في الواقع الفلسطيني كينونة حيّة، وقد واصل الشيخ خالد إرسال نسخ المجلة المذكورة له عبر ماجد شريم وهو شاب من طوباس، كان أحد كوادر الحركة الأوائل، ولكن بعد اعتقاله إثر نقله لأعداد من مجلة «الطليعة» على حاجز في الطريق الواصل بين رام الله وجنين؛ أصبح يرسل له النسخ عبر المجاهد وليد العبيدي، وهو من قرية «برقين» المجاورة للمخيم، والذي كان قد سبق الشيخ بسام في الانتماء لحركة الجهاد الإسلامي بفترة قليلة.

زيارة غزة

بعد أشهر من هذه الحادثة عرض خالد جرادات على الشيخ بسام فكرة الذهاب إلى غزة للالتقاء بالقائد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي الذي كان قد خرج من آخر اعتقال له في تلك الفترة، والذي كانت مدته أحد عشر شهرًا، فرحب الشيخ بسام بالفكرة وتحمّس لها، وذهب كل من خالد جرادات والشيخ بسام وسليمان عباهرة ووليد العبيدي بسيارة الأخير إلى قطاع غزة، وبعد أن وصلوا بيت الشيخ المجاهد عبد العزيز عودة أولًا لكون المؤسس الشهيد فتحي الشقاقي كان في جولة للقاء الناس في بلدات القطاع ومدنه؛ لنشر الفكر الثوري الإسلامي الجديد.

في بيت الشيخ عبد العزيز عودة تناولوا الطعام، وذهبوا لصلاة الجمعة في مسجد الشيخ عز الدين القسام في بيت لاهيا الذي كان معظم رواده من أبناء حركة الجهاد وأنصارها، فوجدوا المسجد يمتلئ بالمصلين والحاضرين الذين جاؤوا ليستمعوا لخطبة الشيخ عبد العزيز عودة، والتي غالبًا ما كانت تحض على المقاومة والتصدي للاحتلال، في توجّهٍ جديد لم يعهد مثله أهل القطاع من قبل، فكنت ترى الإخواني والفتحاوي والمؤمن غير المنتمي والمؤمن المناصر لخط الشقاقي والإنسان العادي في المسجد، وهو ما كان لافتًا ومؤثرًا ومطابقًا للحلم الذي لم يغادر وجدان الشيخ بسام منذ الطفولة.

فمسجد الشيخ عز الدين القسام الذي يتبع لحركة الجهاد الإسلامي في بيت لاهيا مسجدٌ واسعٌ وكبير، فبالإضافة لمكان الصلاة، كانت هناك عيادة للفقراء، كما يوجد فيه مصلى للنساء، ومكتبة، ونادٍ رياضي.

صلوا جميعًا مع الحضور خلف الشيخ عودة، وانتظروا حتى وصل المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي الذي دخل عليهم وصافحهم وتعرف عليهم وجلس معهم وهو يثني عليهم، ويثمن حضورهم بصوته الدافئ وابتسامته البهية الأخاذة، وما زال الشيخ بسام يقرأ في قسماته الإيمانية، وكلماته الرصينة، وتصرفاته المتزنة، ولباقته الفريدة، وحيائه المفعم بالتواضع، وسُمُوّ أفكاره وعمقها، فلم يدع الشيخ بسام مجالًا لعينه أن يغادر نظرها ذلك الوجه السموح والمستبشر لحظة واحدة، وهو يقارن بين ما كان يقرأه من مخطوطات في مجلة «الطليعة» وبين ما يراه أمامه ليكتشف التكامل بين الثقافة والواقع، بين فيض الفكرة، ونبعها الأول، دقائق لم تكن طويلة، ولم تشبع رغبة الشيخ بسام في الاستلهام من ذلك النور الفياض الجالس أمامه؛ أنهاها الشيخ خالد جرادات الذي همس في أذن من معه قائلًا:

إنّ الدكتور لدية التزامات كثيرة، وسيغادر، فلنأذن له.

فكان ذلك بالرغم من صعوبته على الشيخ بسام ومن معه، من كمال اللباقة وحسن التصرف، فغادروا جميعا، الدكتور الشقاقي إلى غايته، والزائرون إلى جنين.

كانت تلك الزيارة هي البداية، ليكون بعدها الشيخ بسام أول منتمٍ رسميًا لهذه الحركة في مدينة جنين ومخيمها، وقد أخفى الشيخ ذلك الانتماء، ولم يصرح به لدواعٍ أمنية، وأبقى على خيوط التواصل مع طلائعها من إخوانه الملتحقين بذات الدرب في المحافظة وباقي المحافظات، وحافظ أيضًا على بقائه ضمن شباب المسجد، مع بقاء تباين واضح بين رأيه ورأيهم بخصوص مقاومة الاحتلال، وأهمية وجود فصيل إسلامي يجمع بين التربية والدعوة والمقاومة.

وبعد ثلاث سنوات على هذه الحال، وما رافقها من تعزيز المكانة الاجتماعية للشيخ بسام في المخيم والمدينة من خلال المساهمة في حلّ المشاكل الاجتماعية، وإصلاح ذات البين، حقق الشيخ بسام لاسمه مكانًا مميّزًا في محيطه، ونَمّى معه ثقافته وفكرته التي آن أوان إطلاقها، فشرع بالدعوة لفكر حركة الجهاد، داعيًا من كان يرى فيهم أملًا في الإصلاح والتحوّل، ولكونه لا زال متأثرًا بنهج جماعة الدعوة والتبليغ، فقد توجه لشبان لهم ماض في مسالك غير مرغوب فيها في المجتمع، بقصد إصلاحهم وتوجيه طاقاتهم نحو المحتل، والانتقال بهم من التيه إلى الإصلاح، ومن وزر الذنوب إلى رحاب التوبة، ومن الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية الإيمانية الثورية.

هذا التصرف المتأثر بفعل أثر نهج جماعة الدعوة والتبليغ، وهم الذين كانوا يتوجهون في التبليغ للسكارى والضالين لكون المرض فيهم وليس في العامة، وإصلاحهم وهدايتهم مطلب تحث عليه الشريعة، لكن هذا الأسلوب الخاطئ تنظيميًا في ظل وجود حركات منافسة سواء كانت وطنية أو إسلامية رأت في ذلك التصرف ما يثير نقدًا لهذا التجمع الجديد، فشرعوا في النقد لهذا التجمع لكونه فكرة جديدة منافسة حملت بعض الأخطاء التنظيمية في انتقاء العناصر نظرًا لقلة المعرفة في هذا الباب، ولكون بعض الأتباع لهم أخطاء ارتكبت في سنوات الضلال والجهل السابقة، فحصل جدل مثير حول هذه الفكرة وأتباعها، انتهت بقرار الشيخ خالد جرادات الذي ناقش الفكرة مع كثير من كوادر الحركة في محافظة جنين، فنصح الشيخ بسام بتجميد العمل التنظيمي مع هؤلاء مؤقتًا إلى حين خروجه من السجن، حيث إنه قد اعتقل على يد قوات الاحتلال، خاصة أن صدامات كادت أن تقع أكثر من مرة بين ذلك التجمع، وبين عناصر الشبيبة التابعة لحركة «فتح» في المخيم في عز السنوات الأولى من انتفاضة الحجارة، فأيّد الشيخ بسام ذلك التوجه، وقام بتجميد التنظيم في عام 1990م، ولم يجمد نشر الفكرة والدعوة إليها؛

لأنه كان متيقنًا بأصالتها وقوتها ومتانتها، وأنه سيكون لها مساحة محترمة في الوجدان الفلسطيني؛ لأنها تعبّر عن وجدان الكثيرين وتطلعاتهم، تمامًا كما كانت تعبر عن وجدانه هو.

تسلّح الشيخ بالصبر وطول النفس والحلم والأناة، وقرر أن يقفز عن هذه المرحلة ليطل على الواقع المجتمعي الوطني والإسلامي بجسد جديد، وتنظيم واعد، لم يكن في يقين الشيخ إمكانية للتراجع عن الفكرة، أو إقرارٌ منه بضعفها أو موتها، على العكس من ذلك تمامًا، كان القرار بالتجميد نظرة استراتيجية واثقة في أن القادم لمستقبل هذه الحركة، وأن الروح الجهادية المستمدة من القرآن والسنة، وما ينتج عنها من فكر ثوري واعٍ ومستنير، لن تموت ولن يموت دعاتها ولا أبناؤها مهما قست عليهم الأيام، وظروف التاريخ.

ورغم سيره في هذا الدرب، والأخذ برأي المشورة إلا أنه سعى من اللحظة الأولى للتمهيد للمرحلة القادمة التي كان يراها قادمة حية أمام عينه حيث توجه للعمل الإنساني والإغاثي في المخيم، فشرع في توزيع ما يصله من الصدقات وأموال الزكاة التي كانت تأتيه من لجنة زكاة الداخل المحتل، أو من التجار في جنين وقراها، وقد أتاح ذلك التوجه المتمثل في دخول بيوت الفقراء، وتقديم يد العون للمحتاجين، بناء قاعدة جماهيرية لشخص الشيخ بسام بعد عام 1991م، وحتى قدوم السلطة عام 1994م، الأمر الذي جرى استثماره وتوظيفه وحصد ثماره لصالح حركة الجهاد الإسلامي بشكل جيد في انتفاضة الأقصى.

لقد تأمل الشيخ كثيرًا، وأعاد النظر، ورأى أنه من الواجب القفز عن تلك الأخطاء العفوية، وإعادة البناء من جديد، بناء على أساس أفضل وأمتن وأقوى وأعمق وأبعد زمانًا ومكانًا، وفعلًا ما انتهجه وراهن عليه جاءه بأمواج من الأجيال التي فرضت عليه مضاعفة الجهد والتوجيه لاستيعاب هذا الكم المؤمن بالمنهج والمسير والذي صنع تاريخًا لا زال يكبر يومًا بعد يوم.

وقد تميزت حركة الجهاد الإسلامي في بداية نشأتها، بدعوة كل طلائعها والمؤسسين الأولين فيها، ومن كل المناطق في الضفة والقطاع للالتقاء في باحات المسجد الأقصى، خاصة في ليلة القدر المباركة حيث كان يحضر بعض المشايخ من قطاع غزة، ويلقون الخطب والمحاضرات

التي تحض على الجهاد والمقاومة؛ الأمر الذي لم يكن مألوفًا لدى باقي التنظيمات الإسلامية الفلسطينية الأخرى، وأحيانًا كانت تحدث صدامات ما بين قوات الاحتلال وتلك الحشود من أبناء حركة الجهاد الإسلامي، ففي ليلة القدر من رمضان عام 1987م، كان أحد الإخوة من قطاع غزة ملثمًا، قيل للشيخ لاحقًا إنه شقيق الدكتور القائد المرحوم رمضان عبد الله شلّح، تقدم وألقى خطبة نارية في القادمين من المناطق، فتسلل قائد شرطة الاحتلال في الحرم القدسي من الخلف ومعه شرطيّ آخر، وأراد اعتقال ذلك المجاهد الخطيب من الخلف، فتنبه له الحاضرون، وهاجموه، وأوسعوه ضربًا، فأصيب برضوض وكسور نقل على إثرها للمشفى، بينما فرَّ الشرطي المرافق له من المكان، فتدخلت قوات كبيرة من شرطة الاحتلال، وما يسمى بـ «حرس الحدود» وجرت مواجهات بينهم وبين المجاهدين، وقد تصدى لهم المجاهدون بشجاعة، ورشقوهم بالحجارة والزجاجات الفارغة، ففر الجنود وعناصر الشرطة من المكان، وتعثر مَن كان في مقدمتهم فسقط أرضًا، فوقع نصف الجنود وعناصر الشرطة عليه، وامتدت المواجهات إلى ساحات الحرم، والحارات المجاورة، وقد حضرت طائرة هليكوبتر طافت لبعض الوقت سماء الحرم القدسيّ الشريف.

كانت هذه اللقاءات بقصد الاعتكاف واللقاء ونشر الفكرة، استثمارًا للوجود الكثيف للمواطنين بهذه المناسبة، وتذَكُّر القائد المجاهد الشهيد الشيخ عز الدين القسام، والقائد المجاهد الشهيد الشيخ فرحان السعدي ورفاقهما، وما كانوا يقدمونه من خطب في ساحات المسجد الأقصى، يحضّون فيها الجماهير الفلسطينية على الثورة والجهاد، خاصة ما قام به الشهيد القائد فرحان السعدي الذي كان إمامًا وخطيبًا لمسجد طبريا، فذهب للمسجد الأقصى، وألقى خطبة حذر فيها الجماهير من مصادرة المستوطنين اليهود للأراضي خاصة في منطقة بيسان وطبريا، ومن الاستيطان الذي يتمدد في كل الأراضي الفلسطينية، كما قام الشهيد القائد عز الدين القسام بزيارة المسجد الأقصى، وألقى العديد من الخطب المماثلة، والتقى في زياراته مع القائد الحاج أمين الحسيني، وطالب بتحويل الأموال التي تصرف على زخرفة المساجد للجهاد والمقاومة.

كما زار القائد المجاهد الشيخ نافذ عزام الشيخ بسام في المخيم في عام 1986م، حيث قدم إلى سيلة الحارثية في زيارة للشيخ هاني جرادات، فقام الشيخ بسام بزيارة الشيخ هاني، فوجد

الشيخ نافذ عزام في ضيافته، فدعاه إلى زيارته في بيته، فلبى وسهرا معًا سهرة جميلة تركت أثرًا كبيرًا عليه.

ويذكر الشيخ علاقته مع المهندس أحمد شاكر (وهو شقيق الاستشهادي صلاح شاكر أحد منفذي عملية بيت ليد) الذي كان يدرس الهندسة في جامعة بيرزيت، وبعد انتهاء دراسته الهندسية حضر لمصنع حداد في جنين للتطبيق والتدريب، وقد استأجر بيتًا في الحي الشرقي من المدينة، وكان يتردد على الشيخ ويبيت عنده أحيانًا، والشيخ يقوم بزيارته في بيته، وكان يحضر معه عدد من الإخوة من قطاع غزة، وقد التقاه الشيخ لاحقًا في سجن النقب، هو وأخوه الدكتور محمود شاكر الذي كان أميرًا عامًا لأسرى الجهاد الإسلامي في سجن النقب.

قبل أن ينفجر المرجل

عندما يتذكر الشيخ بسام التاريخ الذي يسبق الفعل الفلسطيني يجد فيه الأثر الكبير، والظلال الوارفة التي تنعكس على الحدث الفلسطيني، ويستدل بذلك في استعراض تاريخي لبعض الأحداث العربية والفلسطينية الكبيرة، والتي أسهمت في إنضاج الظروف لاندلاع انتفاضة الحجارة فيقول:

زخرت السنوات الممتدة من عام 1982م وحتى نهاية عام 1987م بالعمليات العسكرية للمقاومة في لبنان وفلسطين، والتي كانت كفيلة بإعطاء شحنة عالية من الطاقة والمعنويات لنفوس المتحفزين الفلسطينيين لإطلاق شعلة الجهاد والمقاومة، فبالرغم من خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، وتشتيت معظمها في الدول العربية المتباعدة إلا أن جذوة المقاومة في لبنان تصاعدت شيئًا فشيئًا وبطريقة غير مسبوقة.

كانت البداية في قتل ضابطين صهيونيين في قلب بيروت رميًا بالرصاص، تلاه سلسلة عمليات ضد قوافل القوات الغازية كان من بينها كمين «الجبل»، والذي استهدف المقاومون فيه حافلة لنقل الجنود الصهاينة، وأسفر عن مقتل ستة منهم، وإصابة الباقين، كما شهدت تلك الفترة نشوء النواة الأولى للمقاومة الإسلامية في لبنان «حزب الله»، والتنظيم السري الذي كان يحمل اسم الجهاد الإسلامي في لبنان، وأسماء أخرى، كـ«العدالة الثورية « والذي تبنى كثيرًا من عمليات خطف عملاء الأجهزة المخابراتية الغربية المعادية، والهجوم على مقر السفارة الأمريكية في منطقة المريسة في بيروت والذي أسفر عن مقتل 64 شخصًا من موظفي السفارة من بينهم سبعة من كبار ضباط «السي أي إيه»، والذي كان بتاريخ الثامن عشر من أبريل (نيسان) من عام 1983م، وتبنته منظمة الجهاد الإسلامي في لبنان القريبة من «حزب الله»، وما جرى بعدها على القوات الأمريكية والقوات الفرنسية من نسف مقريهما ومقتل 241 ضابطًا وجنديًا من قوات مشاة البحرية الأمريكية «المارينز»، ومقتل 59 ضابطًا وجنديًا فرنسيًا بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) من العام 1983م، وتبنى كلتا العمليتين نفس التنظيم.

وما جاء بعد ذلك من عملية تدمير مقر الحاكم العسكري الصهيوني في مدينة صور اللبنانية الجنوبية، والذي نفذه الشهيد أحمد قصير ابن قرية «دير قانون النهر «اللبنانية الجنوبية، وأحد عناصر المقاومة الإسلامية اللبنانية (حزب الله)، والذي أسفر عن مقتل 76 ضابطًا وجنديًا صهيونيًا، من بينهم أربعة ضباط مخابرات، أحدهم يدعى الكابتن «نوح»، والذي كان مسؤولًا أمنيًا عن مدينة جنين ومخيمها في أوائل السبعينيات، وارتقاء سبعة عشر شهيدًا من المعتقلين الفلسطينيين واللبنانيين كانوا في المقر في تلك الحادثة، والتي كانت بتاريخ الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 1982م، ولاحقًا عملية الشهيدة «سناء محيدلي» عضو تنظيم الحزب القومي الاجتماعي السوري.

كان لتلك الأحداث على الساحة اللبنانية وتواصلها الأثر في وجدان الأجيال الفلسطينية، كما كان لعمليات الفصائل الفلسطينية، ومنها الحركة الجديدة، حركة الجهاد الإسلامي الصاعدة، الأثر الإضافي، منها عملية حائط البراق في القدس التي كان أحد أعضائها وليد العبيدي ابن قرية برقين والذي استشهد في انتفاضة الأقصى، والتي أسفرت عن مقتل والد أحد الجنود، وإصابة تسعة وستين جنديًا، عندما هاجمت مجموعة تابعة لسرايا الجهاد الإسلامي حفل تخريج لمنتسبين جدد في لواء جفعاتي المحتل، بالقنابل اليدوية وذلك بتاريخ الخامس عشر من أكتوبر (تشرين أول) من عام 1986م، ومحاولة تنفيذ عملية في مقر الحكومة الصهيونية بالقدس من قبل المجاهدة «عطاف عليان»، وعمليات الطعن التي جرت بشكل فردي من قبل كثير من المجاهدين والمناضلين مثل المجاهد خالد الجعيدي.

ومما مهد للانفجار الكبير الأول، كان عملية الهروب البطولية التي قام بها ستة من أبطال الجهاد الإسلامي من سجن غزة المحصن في تاريخ الثامن عشر من مايو (أيار) من عام 1987م، وهم مصباح الصوري، ومحمد الجمل، وسامي الشيخ خليل، وصالح أبو شباب، عماد الصفطاوي، وخالد صالح، حيث تمكن خالد صالح، وعماد الصفطاوي من مغادرة قطاع غزة، وألقي القبض على صالح أبو شباب في حين بقي كل من مصباح الصوري ومحمد الجمل وسامي الشيخ خليل في قطاع غزة، وقاموا بملاحقة قوات الاحتلال، فقتلوا رئيس وحدة الشرطة العسكرية في القطاع المدعو «رون طال» من مسافة صفر، وقتلوا ضابط استخبارات في حيّ الشجاعية.

وفي الأول من أكتوبر (تشرين أول) استشهد مصباح الصوري في كمين، وفي السادس من نفس الشهر، أي بعد خمسة أيام استشهد كل من محمد الجمل وسامي الشيخ خليل وزهدي قريقع وأحمد حلّس، في معركة الشجاعية التي قتل فيها ضابط المخابرات الصهيوني «فيكتور أرجوان»، فكانت هذه العملية التوطئة لانتفاضة الحجارة، التي اندلعت في الثامن من شهر ديسمبر (كانون أول) من العام 1987م.

كما كان أيضًا لعملية قبية «الطائرات الشراعية» التي نفذتها مجموعة مكونة من أربعة مقاتلين تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة)، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في نفس العام الذي هاجمت معسكر «غيبور» في شمال فلسطين المحتلة، والتي تمكن مقاتل واحد من المجموعة وهو السوري خالد أكر من الوصول إليه، واقتحامه بسلاحه الرشاش ومسدسه الكاتم للصوت، ونجح في قتل ستة جنود صهاينة، وجرح ثمانية آخرين قبل أن يرتقي شهيدًا، في حين سقطت الطائرة الشراعية التي كانت تحمل رفيقه التونسي مولود بن لومة في منطقة الحزام الأمني في جنوب لبنان وقضى هناك في اشتباك مع قوات الاحتلال، بينما حال خلل فني أصاب الطائرتين الشراعيتين اللتين كانتا تقلّان المقاتلين الآخرين من الوصول للهدف.

في تلك الأجواء؛ كانت الأوضاع في مخيم جنين في حالة من الغليان، فقد برزت هناك ظاهرة العمل ضد العملاء والمتعاونين مع الاحتلال، فبدأ الجهاد الإسلامي من خلال عناصره السرية العمل ضد أولئك العملاء؛ الأمر الذي أثار غضب الاحتلال حيث رأوا فيه دخانًا لنار تلتهب تحت الرماد، فسارعوا باعتقال العشرات من شباب «فتح» و«الشعبية» في المخيم، لكن شباب «الجهاد» مضوا في تنفيذ برنامجهم، وبقيت الحملة ضد العملاء مستمرة بشكل سري وناجع، الأمر الذي وضع الشيخ بسام ومن حوله تحت دائرة المراقبة المركزة والاستهداف حيث حضرت سيارة شرطة إلى بيتهم في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 1987م، تحمل طلبًا لاستدعائه إلى مركز الشرطة لبعض الوقت، وعندما صعد السيارة سارت به نحو مقر الشرطة، ومن ثمّ جاءت سيارة لحرس الحدود ونقلته لمقر الحاكم العسكريّ، فأدرك حينها أن هناك اعتقالًا رسميًا.

نقل الشيخ بسام إلى سجن الفارعة سيء الصيت مُكبلًا ومعصوب العينين، وقد زُج في سيارة عسكرية يستقلها عدد من الجنود التابعين لوحدة ما يسمى «حرس الحدود»، ومرت من باقي البلدات والقرى حتى وصلت إلى سجن الفارعة، في (رحلة) لم تخلُ من الشتم والدفع وتعمّد الإهانة، وفور وصوله، أدخل عيادة الفحص الطبي، وبعد الفحص الروتيني الخالي من أية خدمة طبية حقيقية؛ اقتيد معصوب العينين لساحة الشبح التي تقع في ساحة المعتقل الداخلية، وهذه الساحة الواسعة نسبيًا محاطة بغرف إسطبلات قديمة للحجز، لا تصلح للاستخدام الآدميّ، وغرف حديثة صغيرة للتحقيق والاستجواب، وعلى امتداد الغرف القديمة والحديثة، جدران ذات وجه خشن للشبح والتنكيل، أجبر الشيخ بسام على الجلوس أرضًا، وهو يشعر بمن حوله من المعتقلين المشبوحين في الساحة التي كانت أرضيتها من الحصى، كنوع من العقاب، فشرع بالذكر وتلاوة القرآن والدعاء.

دخل الليل، وطلب أن يصلي، فزجره أحد الحراس بالصراخ والسخرية، فتيمم وصلى جالسًا في مكانه، وكان قد تعرض في الليلة التي سبقت الشبح منذ قدومه عصرًا حتى حَلَّ الليل، للتنكيل، فأدرك أنه على موعد مع ليلة طويلة من البرد في شهر ليله بارد كشهر تشرين الثاني، فوطد نفسه على ذلك، ولجأ للذكر والاستغفار والصلاة، رغم انبعاث صوت المذياع المزعج الموجود بحوزة الجنود الحراس الذين هم غالبًا ما يكونون من الشرطة العسكرية يبث البرامج والموسيقى العبرية الصاخبة؛ بقصد إيذاء أعصاب الأسرى المشبوحين وأسماعهم، ومنعهم من النوم.

مضت الليلة الطويلة حتى رفع أذان الفجر في مخيم الفارعة المجاور، فكان لذلك الأذان أثر في بث الطمأنينة في نفس الشيخ بسام وباقي الأسرى، فصلى الفجر وحاول النوم إلا أنه لم يستطع، فبرد ساعات الصباح أكثر فتكًا وأشد تنكيلًا، وعندما بزغت الشمس، وارتفعت في كبد السماء، أطلت على ساحتهم، وأخذت ترسل عليهم أشعتها اللافحة، وكأنها تتناوب مع برد الليل في تعذيبهم، مضى النهار الأول حتى ساعات المساء.

وفي المساء، وبعد أن أمضى الشيخ أربعًا وعشرين ساعة في الشبح، جاء أحد الحراس فسأله عن اسمه، فقال: بسام السعدي.

فشعر أن الحارس قد أمسكه من قميصه، وشرع يجره، وهو يقول له باللغة العبرية: تعال.

سار بسام عدة أمتار، وأدخل إلى ممر أرضيته لا تشابه أرض ساحة الشبح، ثم دفع به إلى إحدى الغرف، ثم امتدت يدٌ، ورفعت العصبة عن عينيه، فأدرك أنه أمام ضابط تحقيق.

ضابط يلبس البزة العسكرية، يجلس أمامه، ويحدق فيه بصمت، وبسام هادئ كعادته، متماسك ينتظر الآتي، كان المحقق يحمل عصًا صغيرة يضرب بها كفه الأخرى؛ لإثارة التوتر، شرع بالأسئلة بعد المقدمة التي لم يعر لها الشيخ أي اهتمام، المقدمة التي تحاول إحداث انهيار لدى المعتقل ليبدأ بالاعتراف، والتي تكون عادة محاولة لحصاد عملية الشبح والتنكيل السابقة، لم يقل شيئًا، ورفض كل ما يُوجه له من تُهم؛ الأمر الذي أثار غضب المحقق، فوجه له الشتائم والسباب لإثارته، شرع في ضربه على رأسه بالعصا لاستفزازه، لكن الشيخ بسام حافظَ على رباطة جأشه، وتحمل ما يسمع، وكظم ألمه وأوجاعه، وتماسك رافضًا كل ما يحاول معرفته حتى مَلّ منه، وأخرجه لساحة الشبح مرة ثانية، بعد التهديد والوعيد، فقاده الحارس إلى زنزانة رقم (18) منهكًا.

اقتيد الشيخ بسام منهكًا إلى الزنزانة المذكورة، وأدخل إليها، فوجد فيها سبعة عشر أسيرًا، وأصبح هو معهم الأسير الثامن عشر في تلك الغرفة التي تقدر مساحتها أقل من اثني عشر مترًا مربعًا، ينام كل أسير فيها على جنبه دون أن يكون له مجال كي يتقلب على الجهة الأخرى دون وقوف والتفاف، كان غطاؤه بطانية ذات رائحة كريهة، ووسادته بطانية بنفس المواصفات، فتعرف على الموجودين في الغرفة، وفوجئ بوجود اثنين من أبناء المخيم في ذات الغرفة، الأول سليم العمار ـ رحمه الله ـ، والثاني مؤيد العامر، فنام ليلته بعمق حتى الصباح.

قضى الشيخ بسام في تلك الغرفة ثمانية عشر يومًا مع زملائه دون أن يسمح لهم بالخروج إلى الفسحة، أو الاستحمام، وكان طعامهم سيئًا كمًّا ونوعًا، يتناولونه في مكان نومهم، فتبقى آثاره على أغطيتهم، كان يصلي بالحضور، وكان يستغل الوقت في الدعوة، ويحثهم على العبادة، ويؤثر فيهم عبر الروايات والقصص والحكايا والجلسات الثقافية التي كان يسوقها بصوته الهادئ المؤثر، كان من بين الأسرى أسير من محافظة الخليل من عائلة «العواودة»، قد أمضى عامين في سجون الاحتلال قبل هذا الاعتقال، رقّ قلبه لما يسمع، والتزم بصلاة الجماعة خلف الشيخ، وبعد سنين

طويلة، أتيح للشيخ بسام أن يتحدث معه عبر الهاتف في عام 2010م عندما كان في سجن النقب بمحض الصدفة، فأبلغه «العواودة» الذي كان يعمل حينها في إدارة منظمة العمل الإسلامي، أنه لم يقطع الصلاة منذ ذلك اليوم.

أُفرج عن الشيخ بسام في اليوم الثامن عشر للاعتقال، وذلك في الحادي عشر من ديسمبر (كانون أول) من نفس العام 1987م، صعد إلى سيارة العمومي التي كانت تقف أمام المعسكر، فعلم عبر المذياع الذي كان يذيع نشرة الأخبار عبر محطة «مُنتي كارلو»، أن هناك انتفاضة جديدة قد اندلعت في الوطن، وأن شهداءها في ذلك اليوم كانوا أربعة، ونحو أربعين جريحًا، كلهم من مخيم بلاطة للاجئين الفلسطينيين المجاور لمدينة نابلس.

طحن الحجر

عاد إلى مخيمه ليلمس أجواء التوتر والغليان، فسرعان ما تناغم معها، وقام بتنظيم شباب الجهاد الإسلامي وشحذ هممهم الإيمانية والجهادية، للاستعداد للقادم الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانفجار.

فعلًا، لم يبتعد اليوم الموافق للحادي والعشرين من ديسمبر (كانون أول) من نفس العام، أي بعد أيام قليلة على الإفراج عن الشيخ بسام عن اندلاع الشرارة بقوة، ومرة واحدة، فمنذ ساعات الصباح الأولى اندلعت مواجهات عنيفة وساخنة بين المئات من شبان المخيم، من التوجهات والانتماءات الفصائلية كافة، ومنها حركة الجهاد الإسلامي، وبين قوات الاحتلال، وسرعان ما تطورت المواجهات من إلقاء الحجارة إلى إلقاء الزجاجات الحارقة وبغزارة غير مألوفة، ارتفع على إثرها القمع من قبل قوات الاحتلال بصليات متواصلة وعنيفة وغزيرة من الرصاص الحيّ، لم تهدأ من الساعة الثامنة صباحًا وحتى الساعة الثالثة ظهرًا، فتحوّلت أزقة المخيم وحواريه لساحات حرب حقيقية، وقد أسفرت تلك الصدامات يومها عن استشهاد شابين من المخيم هما يوسف العرعراوي الذي أصيب برصاصة في الكبد، والمقعد محمود القيسي الذي اندفع بكرسيّه المتحرك نحو قوات الاحتلال في وسط الشارع الرئيس بالمخيم، وألقى عليهم زجاجة حارقة،

فقام قناص من جنود الاحتلال بتصويب سلاحه إليه فأصابه برصاصة قاتلة في الرأس، كما جرح ثلاثة وعشرون شابًا وامرأة واحدة بالرصاص الحيّ، كانت جراح أحدهم بالغة الخطورة، وهو الشاب مهند علي الغول، وقد تزامنت تلك الأحداث، وفي نفس اليوم مع استشهاد شابين من طوباس إثر مواجهات مشابهة، وقد علق قائد ما يسمى المنطقة الوسطى في جيش الاحتلال آنذاك الجنرال «عمرام متسناع» على الأحداث وسقوط الشهداء في لقاء مع التلفزيون الصهيوني الناطق بالعربية قائلًا: «لقد هوجمنا بوحشية».

أمضى الشيخ بسام نحو خمسة وثلاثين يومًا من عمر الانتفاضة الأولى وهو في نشاط ومشاركة لا تتوقف حتى جاء تاريخ الرابع عشر من يناير (كانون الثاني) من عام 1988م، فتعرض للاعتقال مرة أخرى، وهذه المرة تم تحويله إلى سجن جنيد المركزي في مدينة نابلس لقضاء حكم الاعتقال الإداري الصادر بحقه منذ تاريخ الحادي عشر من نفس الشهر، والذي كان في البداية لمدة ستة أشهر، قامت محكمة الاحتلال بتثبيت تقصيره لمدة ثلاثة أشهر، ومن ثمّ قامت محكمة الاستئناف بتقصير مدة الثلاثة أشهر بأسبوعين آخرين، فأمضى الشيخ شهرين ونصف الشهر في الاعتقال الإداري، ليفرج عنه بعدها بتاريخ السابع والعشرين من مارس (آذار) من نفس العام، ويعود مرة ثانية للميدان يرتب الصفوف، ويشحذ الهمم، يلقي البيانات، ويقود المواجهات، وينظّم الإضرابات، ويعطي الجلسات في المسجد، ويسعف العائلات التي فقدت المعيل بسبب الاعتقال، ويزور الجرحى، ويقدم واجب العزاء لذوي الشهداء، ويشارك في المسيرات، وينسق مع ممثلي باقي الفصائل، ويبتكر وسائل جديدة للمواجهة.

خمسة أشهر مضت على ذلك العمل والنشاط حتى حَلَّ شهر أغسطس (آب) من عام 1988م ليبتكر وسيلة جديدة للتخفي بعدما رأى صعوبة في اللثام التقليدي بواسطة الكوفية الفلسطينية خاصة في فصل الصيف لسماكتها والتي غالبًا ما تسبب التعرُّق والإزعاج للشاب الملثم في أجواء الصيف الحارّة، فاقترح على شباب الجهاد في المخيم والمحافظة بلباس القناع، مع فتحة مقابل العينين، ليكون أسهل وأرقّ من جهة، وليكون من السهل عليهم ارتداؤه ونزعه وقت الحاجة، كما أنه اقترح لباس ربطة «عصبة» تحمل عبارة «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين»، اقتداء بما يقوم بها رجال المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان، وقد شاركه هذه الفكرة صديقه فتحي أبو عيطة (أبو أنس).

موت ونجاة

كان يومًا من أيام شهر أغسطس (آب) من عام 1988م التي لا تنسى، عندما قاد الشيخ بسام عشرة من شبان الجهاد الإسلامي إلى مسجد عمر بن الخطاب الجديد القريب من الجهة الشرقية للمخيم، وهناك صلى بهم، وأعطاهم درسًا في الجهاد وفضله من كتاب «رياض الصالحين» وعندما أنهى درسه التحفيزيّ، عاد بهم فوجد حالة من التصعيد قد بدأت في المخيم والمدينة، فأمر أصحابه بارتداء اللثام الجديد فورًا، والاندماج في المواجهة، كان ارتداء اللثام الجديد مفاجئًا لباقي المنتفضين من الفصائل الفلسطينية الأخرى، فظنوا لأول وهلة أن هؤلاء الملثمين قد يكونون وحدات خاصة صهيونية تسللت إلى حشود المتظاهرين، لكن الشيخ بسام طمأنهم من خلال كشفه شخصيته لقائد فيهم، ما بدّد الظنّ، ورسّخ الطمأنينة.

لم يكن الابتكار مقتصرًا على اللثام فقط، بل كان على الانتشار والحركة، وحتى حجم إلقاء الحجارة، فإذا اقترب جنود الاحتلال كان يتم رشقهم بحجارة كبيرة، وإذا ابتعدوا تدخل وحدات الرشق بالمقلاع، والتي كانت حجارتها أصغر، لكي تتمكن من إيصال الحجارة بعيدًا، بل كان يضع مع كل قاذف مقلاع في بعض الأحيان متظاهرًا آخر يؤمّن له الحجارة ليكون الضرب والإلقاء أسهل وأسرع وأكثر غزارة، واستخدم الشبان حمارًا في نقل الحجارة لأرض الميدان من أرض تقع غرب المخيم، وكان يحثّ بعض النسوة في داخل البيوت على مساندة الشبان المنتفضين بإخراج الحجارة من فناء (حواكيرهنّ) ووضعها أمام البيوت، وفي الطرقات حتى يسهل على المنتفضين استخدامها في رشق قوات الاحتلال.

وفي ظل تصاعد المواجهة عصر ذلك اليوم، التف الشيخ ومن معه إلى الحارة الشرقية من شمال المخيم بقصد تشتيت قوات الاحتلال ومحاصرتها، فتوجه من حارة أبو السباع الواقعة في الوسط الشمالي للمخيم إلى حارة أبو الطيب الواقعة شمال شرق المخيم؛ ليتفاجأ بوجود كمين من قبل قوات الاحتلال وقد اختبأ عدد من جنودها في دكان أبو موسى الطيب جرادات، فلما شاهد تلك القوة، قام بالانسحاب جنوبًا في زقاق صغير يقع في الجانب الغربي من الدكان، نسي أنه قام بإغلاقه سابقًا بطلب من أهل الحيّ ومدير المخيم قبل اندلاع الانتفاضة، فقام الشيخ الذي

كان برفقة شابين صغيرين بالاصطدام بذلك الجدار، فرفع الصغيرين على كتفه، ومن ثمَّ وضعهما فوق الجدار؛ ليقفزا في أحد المنازل، في حين حاول هو التسلق في اللحظات الحرجة، فلم يوفق، فوصلته القوة الصهيونية، وأشهرت عليه السلاح مهددةً إياه بالقتل، وهو يحمل بيده اليسرى زجاجة فارغة وبيمينه حجرًا، وما زال يلبس اللثام الجديد، أدرك أنه وقع في الاعتقال، فألقى الحجر والزجاجة أرضًا، فتقدم منه الجنود بعد أن جاء ضابطهم، واعتقلوه واقتادوه، فنزع من فوره اللثام، وألقاه بعيدًا في حاكورة نوح اليونس، فظهر وجه الشيخ بسام ولحيته الطويلة وقتها، فقال له الضابط:

أنت حزب الله؟ أنت جهاد إسلامي؟!

شرعوا بضربه، لكن الشيخ بسام الذي كان قد رسّخ لنفسه مكانًا اجتماعيًا في المخيم والمنطقة، رفض ذلك من منطلق كبرياء الثائر، وعزة نفسه المعروف والمشهور بها بين الجماهير، فطلب من الضابط أن يأمر جنوده بعدم الضرب، فساروا به، حتى وصل قرب مدرسة الزهراء الثانوية للبنات، فتقدم الجنود هناك لضربه، فعاد الشيخ وطلب من الضابط الآخر عدم ضربه، فتظاهر الضابط بالموافقة، وأمر جنوده بالابتعاد قليلًا عن الشيخ، وحمل عصا، وتقدم منه وشرع بضربه بشدة، وبشكل متواصل على يده اليمنى حتى كُسرت العصا، فأخذ يطعنه بما بقي منها، فطلب من الضابط عدم ضربه مرة أخرى، فأمر الضابط جنوده بضربه بشكل قاس ووحشيّ، أحدهم يصفعه بيده المفتوحة على وجهه، وآخر يضربه على الجهة الخلفية من قدميه بشكل قاس وعنيف، وآخرون على ظهره وبطنه والأماكن الحساسة في جسمه، كل ذلك وهو مكبل اليدين إلى الخلف، مما دفع امرأتين كانتا قريبتين من المكان إلى رفع أصواتهما تضامنًا معه من هول ما يَرَين من الضرب المبرح الذي لا يتوقف، كان هناك ثلاثة أشخاص كبار في السن نسبيًا يجلسون أمام بيت ملاصق للمخيم، سألهم الضابط:

هل تعرفونه؟

ردوا بالنفيّ، خوفًا من الإفصاح عن اسمه.

فقال الضابط: هذا مصير كل من يلقي علينا الحجارة.

تابعوا ضربه المبرح، واقتادوه بعد أن حملوه في سيارة عسكرية إلى أمام مستوصف الأمل الواقع في وسط الشارع الذي يصل المخيم بمدينة جنين في أقصى شمال المخيم، كانت قوات الجيش ودورياته تتنقل بين المخيم والمدينة على وقع استمرار المواجهات وتصاعدها في كلتا المنطقتين، والشيخ بسام ما زال يتعرض للضرب المبرح على كل أنحاء جسمه، من قبل الدورية التي اعتقلته، ومن قبل الدوريات التي كانت تمر بالمكان، حتى إن الدكتور أحمد الرزي، والذي كان وقتها يقف أمام مستوصف الأمل صرخ من هول ما رأى، فأغمي عليه، ونقل للمشفى، ولم يستفق حتى اليوم التالي، كما فزع لذلك التنكيل شاب من عائلة الحجاج جرار، وكان من شباب المسجد، وقد حاول الهجوم عليهم لتخليص الشيخ بسام من براثنهم، فصوّبوا عليه السلاح لقتله، لولا أن شقيقه الأكبر أمسكه وألقاه أرضا وغطَاه بجسده في تلك اللحظة الحرجة لمنع قتله، ولوْ أن آلة تصوير وثقت الحادثة لأحدثت أثرًا أكبر وأوسع من أثر الحادثة الشهيرة والتي تمثلت في تكسير عظام المنتفضين في جبل عيبال في نابلس.

وبعد نحو نصف ساعة من الضرب والتنكيل تم نقله إلى مقر المقاطعة لتشارك في ضربه أعداد أكبر من الجنود والضباط الموجودين في الخدمة، وممن يستعدون للمغادرة في إجازة، ثم دفع إلى داخل خيمة الاعتقال هناك ليستريح دقائق معدودة، ويعود للضرب والتنكيل وقتًا أطول.

طلب منه أحد الضباط شتم ياسر عرفات (أبو عمار)، فرفض، وقال:

لا يخرج مني الكلام البذيء...

فجاء ضابط متديّن، وقال لهم: اطلبوا منه أن يشتم الخميني، فطلبوا، فرفض أيضًا، فعادت جولات الضرب من جديد، وكان الرهان بين مجموعات الجنود والضباط فيمن يستطيع إجباره على شتم عرفات أو الخميني، لكنهم فشلوا. حَلَّ المغرب وما زال التصعيد الذي تركه الشيخ بسام خلفه متواصلًا وبعنف شديد يصل إلى مسامع الموجودين في مكان الاعتقال. صلى المغرب جلوسًا، فقاموا بتفتيشه، فوجدوا في جيبه ورقة خاصة بالتنظيم، كما عثروا على كوفيتين ملتفتين على بطنه وظهره من نوع الكوفيات البيضاء، كان قد وضعهما لغاية استخدامهما في حال فقد القناع خلال المواجهات، فلما سُئل عن سبب ربطهما على بطنه، قال لهم:

إنّها رباط للظهر والبطن بقصد تخفيف الألم، لكنهم لم يصدقوه.

حضر الحاكم العسكري لمنطقة جنين، بعد أن أخرجوه من الخيمة، ووضعوه أمام متراس استحكام فيه رشاش من عيار ثقيل، فسأله:

أنت حزب الله؟ أنت جهاد إسلامي؟

الشيخ صامت، تابع الحاكم العسكري قائلًا:

ألا يكفينا حزب الله الذي تفصلنا عنه حدود؟ أتريد أن تجلب لنا حزب الله إلى هنا؟

كم عمرك؟

فأجاب الشيخ بسام: ثمانية وعشرون عامًا.

عاد الحاكم بالسؤال مرة أخرى: كم ولدًا عندك؟

رد الشيخ بسام: أربعة.

فقال له: عمرك ثمانية وعشرون عامًا، ولديك أربعة أبناء، وتلقي علينا الحجارة والزجاجات الفارغة والحارقة وتحث المخيم على مهاجمتنا؟!

رد الشيخ قائلًا: لست أنا من يلقي عليكم الحجارة وحدي، كل المخيم يرجمكم.

انصرف الحاكم العسكري من المكان مباركًا التنكيل الذي عاد يتعرض له الشيخ من قبل الجنود والضباط وهو يتصاعد كل ساعة بل كل دقيقة، لدرجة أنه صلى العشاء وهو مستلقٍ على ظهره.

بعدها أُخرج الشيخ بسام من الخيمة، وربطت رقبته بواسطة الكوفية البيضاء في عمود الجيب العسكري، وربطت يداه أيضًا، وأجلس في سيارة الجيب العسكرية، وتوجهوا به إلى منطقة قرب المخيم، بقصد إحضار هويته الشخصية، فمر قريب له كبير في السن يدعى عثمان السعدي، فطلب الشيخ بسام منه إحضار هويته، خوفًا من أن يكتشف شبان المخيم مكان سيارة الجيب التي تقله، ومن ثمَّ إلقاء الحجارة عليها، والتسبب بإصابته بالحجارة، وإيذائه زيادة على ما فيه من جراح وكدمات، ولاسيما أن الظلام قد حلّ.

توجه الحاج عثمان لبيت الشيخ بسام السعدي، وأحضر الهوية، وعاد بها إلى المقاطعة، ليسلم هوية الشيخ، ويسترد هويته التي احتجزت حتى يعود، وما أن غادر الحاج عثمان المقاطعة حتى هاجم نحو خمسة عشر جنديًا الشيخ بسام من جديد بضرب شديد ومتواصل لكل أنحاء جسده، حتى نزف الدم من كل أطرافه، وعلت الأورام والكدمات والندب كل بدنه، وقد أصبح يشعر أن أوعيته الداخلية بدأت تنزف وتتأذى، وأنه بات قريبًا جدًا من الموت، فأخذ يتنفس بصعوبة بالغة، ويستفرغ كل ما في جوفه بشكل متواصل، حتى شعر لحيته لم يسلم، فقد نُزِعَ بقسوة من الجهة اليمنى من الوجه، حتى ظهر وكأنه قد حلق نصف لحيته.

شفع للشيخ وخفف وطأة الضرب عنه أنه كان قد شرب زجاجة من عصير العنب من دكان أحد أقربائه قبل التصعيد، ولما استفرغ ما في معدته، ظنوا أنه استفرغ دمًا، وأنه كاد أن يقضي، فأدخلوه إلى خيمة الجنود، وقاموا بتعريته، وبقيَ بملابسه الداخلية، وأحضروا الطبيب الذي طلب منهم التوقف عن الضرب والتنكيل، وقال لهم بعد الفحص:

إنّ هذا الأسير يموت، فإما أن تُطلقوا سراحه، وإما أن تنقلوه إلى المشفى.

رفضوا في البداية، لكنه رفع صوته في وجوههم قائلًا:

إنه يموت.

أحضر الضباط أربعة من معتقلي الخيمة المقابلة، فأمروهم بحمله، وهو في حالة إغماء، ورفعه إلى سيارة عسكرية، فقامت السيارة العسكرية بنقله إلى مشفى جنين، وألقوه على بابها، وعادوا إلى المقاطعة.

بكى الأطباء والممرضون في مشفى جنين عندما شاهدوا حالته، فسارعوا في تضميد جراحه، وتزويده بكل ما يلزم من العلاج حتى لا يفقد حياته، وهو ما زال في حالة بين الإغماء والاستفاقة، حتى أغمض عينيه وفتحهما، فرأى أمه وأباه، وهما يبكيان حوله، فابتسم من بين الألم والأنين، وسأل بصوته المُتهدج الخافت:

هل ذهب الجيش؟

قالوا له: نعم، انصرفوا.

فقال: لا تقلقوا، أنا بخير.

مضت ساعة، وهو ما زال تحت المتابعة الحثيثة، وحتى يطمئن أهله وأصدقاؤه نقلوه إلى مشفى الاتحاد النسائي في مدينة نابلس ليمضي يوما كاملًا هناك، وبعد أن عاش ليلة من اقتحام المشفى الذي يعالج فيه بحثًا عن الجرحى والمصابين واعتقالهم؛ قام بالاتصال بأهله هاتفيًا، وطلب منهم نقله إلى مكان آمن، فنقلوه إلى قرية قريبة، أمضى فيها عدة أيام، حتى شعر بالتعافي، لكنه لم يستطع الصلاة طيلة أربعين يومًا إلا وهو جالس، كما كان يستيقظ ليلًا من شدة الألم في عظامه وأطرافه على مدى عدة أشهر.

كان ذلك التنكيل القاسي والحاقد، وأثره الكبير في جسد الشيخ بسام؛ سببًا لمطاردته الأولى التي استمرت من شهر أغسطس (آب) من عام 1988م، إلى شهر أبريل (نيسان) من عام 1991م، أي لمدة اثنين وثلاثين شهرًا متواصلًا، فذلك التنكيل لم يكسر روحه، بل كان دافعًا وإصرارًا على مواصلة نهج المقاومة والجهاد في فصول هي أشد بأسًا وأكثر عطاء، وأطول نفسًا وصبرًا واحتسابًا.

ما ميز المطاردة الأولى للشيخ أمران، الأول قيادة التنظيم وترتيب صفوفه في المخيم والمحافظة على وتيرة تصعيد المواجهة مع الاحتلال، والأمر الآخر العمل الاجتماعي والإغاثي للفقراء والأيتام وأهالي الأسرى والشهداء والجرحى والحالات الإنسانيّة؛ بجهود شخصية من خلال توظيف الصدقات والتبرعات وأموال الزكاة التي كان الشيخ بسام يتلقاها من الداخل الفلسطيني، ومن رجال الأعمال والتجار في محافظة جنين، وكانت هذه المسؤولية الاجتماعية توازي المسؤولية الجهادية من حيث الجهد والحرص والتواصل والبذل والاتساع، كذلك تكافل الإخوة المجاهدون الفاعلون والمؤازرون الذين كان بعضهم يكفل أسرة أسير أو يتيم أو جريح من عائد عمله، كل ذلك كان من تكافل وعمل اجتماعي ذاتي، فتنظيم الجهاد الإسلامي حديث النشأة لم يكن يملك الأموال التي تكفي لتغطية مصروفات تلك المرحلة؛ لذا كان الشيخ يجمع التبرعات من والده وإخوانه وأخواته أيضًا، ويضعها في صندوق مخصص للتنظيم، وكذلك يفعل باقي الأفراد.

ولم تكن الإغاثة التي يقوم بها الشيخ بسام خاصة بعناصره من أبناء الجهاد والأسر المتعاطفة معهم، بل يذكر أنه خلال الانتفاضة، قامت شبيبة حركة «فتح» بتنظيم عرض عسكري في يوم من أيام شهر رمضان، ولما هاجمتهم وحدات الجيش المحتل، لم تتمكن من اعتقال أيٍّ منهم، فقامت باعتقال عدد من الشبان والرجال المعتكفين في المسجد الرئيسي في المخيم، وعدد من رواد إحدى المقاهي المجاورة، وقدمتهم للمحاكمة، وقضت بحكمهم لفترات طويلة وصلت إلى عام ونصف، وكان لهؤلاء أُسَر، فقام الشيخ بكفالة أسرهم، وكذلك هناك عدد من الأسرى الذين كانوا ينتمون لتنظيمات صغيرة يسارية ذات فكر ماركسي، وكانوا يقضون أحكامًا تصل لخمس سنوات وست سنوات، كان يغيث عائلاتهم بسبب عدم وجود معيل أو مغيث للأسرة؛ الأمر الذي جعل هؤلاء الأسرى يتحولون من أنصار لحركات ماركسية إلى رواد مساجد.

امتدت المساحة الزمنية للمطاردة الأولى اثنين وثلاثين شهرًا متواصلًا، وبعد التخوف الكبير على حياة الشيخ بسام من قبل والديه بعد تهديد المخابرات الصهيونية بتصفيته؛ شعر والداه بالقلق الشديد على حياته خاصة بعد أن هدد ضابط المخابرات المسؤول عن تصفية المناضلين بتصفية الشيخ بسام رسميًا، وعبر عن ذلك صراحة أمام والديه في الاقتحام قبل الأخير لبيت والده قبل اعتقاله، وقد أشهر الضابط المذكور مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت وأبلغ والده أنه جاء لتصفية الشيخ بسام، فبكيا خوفًا من المجهول، فذهب شقيقه قاسم وأبلغه بالأمر، فأشفق عليهما، وذهب لزيارتهما والاطمئنان عليهما، فلمس القلق والخوف والحزن في وجوههم، فرقّ لهم، وحاول أن يطمئنهما، لكن والده بالذات، أدرك أن الخوف حقيقي هذه المرة، فنصحه بالمبيت في بيته، وقال له:

الانتفاضة أوشكت على الانتهاء، وما جرى للعراق أحبط الجميع، فإذا جاءوا لاعتقالك لا تهرب، فيكفي هذه السنوات الثلاث، خاصة وأن السلطات الصهيونية أصبحت أكثر شراسة في التعامل مع المطاردين بعد تطور بعض العمل الانتفاضي إلى عمل مسلح، فبات الشيخ بسام في بيت والده تلك الليلة، وبقي على هذه الحال عشرة أيام.

طرائف

هو جمال راغب السعدي المكنّى (أبو عارف) شقيق الشيخ الأكبر منه سنًا، هادئ، وديع، حاضر البديهة، وخفيف الظل، سريع النكتة، دمث الخلق، طيّب المعشر.

كان أبو عارف في عام 1987، يدير مصنعًا للطوب الخاص بوالده، في أحد الأيام كان عائدًا من جنين يقود رافعة الطوب «المزليك» بعد أن ملأ تنك الماء، وعندما وصل مدخل المخيم من جهة شارع الحدّا، وجد مجموعة من الشبان والصبية يقذفون قوات الاحتلال بالحجارة، وكان الجو حارًا، فطلب منه الشبان والصبية شرب الماء، فأذن لهم، ثم أكمل طريقه مارًا من جانب الجنود، فأوقفوه واعتقلوه، ورفعوا بلوزته التي يرتديها وغطوا بها كل رأسه ووجهه، وربطوا أعلاها، واقتادوه إلى المركز، وزجوا به في خيمة المعتقلين، فاستهجن واستغرب حيث لم يكن يتوقع أن يعتقل في يوم من الأيام.

في مساء ذلك اليوم، اقتيدَ إلى المحكمة برفقة عدد من المعتقلين، وأصدر القاضي بحقهم أحكامًا متفاوتة ومنهم أبو عارف الذي حُكِمَ بالسجن لمدة ستة أشهر وغرامة مالية مقدارها ثلاثة آلاف شيكل، وهو يدقق فيما يجري حوله دون أن يدور في خلده أن ما يجري هو حقيقة، جاء الضباط والجنود لاقتياد المعتقلين ومنهم أبو عارف، فسأل الضابط: هل أنا محكوم؟

فقال الضابط: نعم، وأبلغه بالحكم والغرامة.

فشعر بالقهر، وسالت دموعه وهو لم يفعل شيئًا حتى يعتقل، ولم يكن يتخيل أن يعتقل في يوم من الأيام.

نقل لسجن الفارعة، وتعرّض للشبح يومين متواصلين في ساحة السجن تحت وطأة الشمس اللاهبة، وبعد يومين من هذا العذاب القاسي، أُدخل أبو عارف وبعض من كانوا معه في ساحة الشبح للغرف وهم منهكون متعبون، فسأله أحد الأسرى: ما رأيك بهذه التجربة؟

فرد قائلًا: يا ليتني كنت ترابًا.

نُقل أبو عارف بعد أيام لسجن النقب مع عدد من الأسرى، المسافة بين الفارعة والنقب طويلة تتعدى أربع ساعات من المسير، وأبو عارف الذي لا يعرف الجغرافيا، عندما دخلت الحافلة العسكرية التي تقلهم إلى صحراء النقب، وتوغلت في الصحراء؛ ظن أنه أصبح في المملكة العربية السعودية وأنهم في طريقهم لأداء الحج والعمرة.

في ظل الطريق الطويل لسجن النقب، يبدو أن السائق حاد عن الطريق الصحيح، فصرخ أحد الأسرى وهو من أصل نابلسي قائلًا:

«وين يا أبي رايحين؟ الطريء غلط»

فتقدم منه الضابط وقال له: هل أنت متأكد مما تقول؟

فقال: نعم متأكد.

وبالفعل تبين أن الحافلة تسير في الطريق الخطأ، فعاد يسلك الطريق الصحيح، وأبو عارف يتابع المشهد بدهشة، فسأل أبو عارف الأسير النابلسي:

كم مرة اعتقلت؟

فرد الأسير: «هاي التالتة»

فقال أبو عارف المتأثر بالحكم والشبح وعناء السفر والتنكيل: يخرب بيتك، لا يوجد في بيت أهلك طعام حتى تأتي للمرة الثالثة؟!

وصلوا سجن النقب ودخلوا، فكان لابد من المرور على الفرز التنظيمي. كان هناك فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، واتجاه إسلامي يضم أسرى حماس والجهاد، قال له الأسير عبد الله كميل: ماذا ستقرر يا «بلدية» أي يا ابن البلد؟ فتح هي الأم؟

فرد أبو عارف: أنا اتجاه إسلامي، أنا «مغربل ومجربل من برّى» فضحك الجميع.

أبو عارف أحبه الجميع؛ لأنه طيب وصاحب نكتة ودعابة، وكان الجميع يتسابق على

السير معه ومجالسته، وكونه مدخنًا والمدخنون عند الاتجاه الإسلامي قلائل، فقد كان يدعم باقي أصدقائه من الفصائل بالدخان، ولّما اختلف أسرى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية والاتجاه الإسلامي، وأصدرت تلك الفصائل بيانًا دعت فيه إلى مقاطعة أسرى الاتجاه الإسلامي، استثنى البيان رسميًا أبا عارف من المقاطعة.

وفي مساء أيام الجمعة، كان الاتجاه الإسلامي ينظم أمسية ثقافية، فسأل عريف الأمسية سؤالًا وهو: من هي مرضعة رسولنا الكريم؟

فرد أبو عارف قائلًا: «وليّتنا حليمة السعدية»

فضحك الجميع على هذا الجواب.

بعد خمسة أشهر من الحكم، وقبل العيد بأيام، جاء نبأ الإفراج عن بعض الأسرى وكان من بينهم أبو عارف الذي كان وقتها يستحم، فجاء بعض الأسرى وأبلغوه بخبر الإفراج عنه، فلم يكمل الاستحمام، بل خرج فورًا ومسح رغوة الصابون من على رأسه وجسمه بالمنشفة، وخرج مسرعًا راكضًا إلى الخيمة، فاصطدم بحبل الخيمة فوقع، ثم نهض، فحمل جالون الماء ليشرب فأراق الماء الكثير على ملابسه وخرج من الخيمة دون أن يلتفت للأسرى الذين اصطفوا لوداعه، وعندما أصبح خارج القسم يحمل أغراضه متوجهًا للحافلة التي ستقله إلى حاجز الظاهرية قال للأسرى: «متأسف ما شفتكم من شدة الفرح».

وبعد أن أفرج عنه، جاءه أسرى كثيرون محررون تعرفوا عليه خلال الاعتقال ومن كافة المحافظات من جنين حتى الخليل.

القيد الخامس

بعد المطاردة التي استمرت اثنين وثلاثين شهرًا، وبعد سلسلة المواقف والمداهمات الفاشلة من قبل سلطات الاحتلال لإلقاء القبض على الشيخ بسام، وإصغائه لنصيحة والديه الخائفين عليه من التصفية والإعدام؛ بات الشيخ في منزل والده عشرة أيام، فحصلت حملة اعتقالات في

المخيم، اعتقل فيها الشيخ، وقال ضابط المخابرات المدعو «أودي» وقتها للشيخ:

جبل على جبل لا يلتقيان، لكن بني آدم مع بني آدم يلتقيان.

رد الشيخ بسام وهو يشير إلى الباب الخلفي الجاهز دائمًا للهرب منه والانسحاب وقال:

ها هو جاهز، لكني لا أنوي الفرار هذه المرة.

فقال ضابط المخابرات: أنا أعرف.

اقتيد الشيخ بسام إلى سيارات الجيش التي تقف قرب البيت، وهناك شاهده الجنود الذين فشلوا في اعتقاله سابقًا، فأخذوا يتوعدونه بالويل، فطلب من ضابط المخابرات ألا يركب معهم، أو أن يوصيهم بعدم التعرض له، فلبى ضابط المخابرات ذلك، وأمر جنوده بعدم التعرض له، سارت سيارات الاحتلال إلى مقر المقاطعة في جنين، وهناك أنزل الشيخ من السيارة التي كانت تقله، وحاول أحد ضباط الاحتلال أن يجبر الشيخ بسام على اقتياد عدد من الأسرى والمعتقلين المكبلين والمعصوبي الأعين معه إلى خيمة التوقيف والحجز، وكان أول هؤلاء الأسرى أمجد الفايد، ابن مخيمه، فرفض، وقال له:

أنا لست جنديًا في جيشك.

وتقدم من الأسير الأول الفايد وقال له:

أمجد، أنا الشيخ بسام، لا تخف.

عندها هاجمه جندي غليظ له بسطة في الجسم، فشرع بلكمه وضربه على بطنه، ومن ثم دفع به إلى داخل الخيمة.

وقد حكم الشيخ بسام في ذلك الاعتقال بالسجن الفعلي سنة، ودفع غرامة مالية مقدارها ألفان ومئتا دينار، وقد تنقل الشيخ خلال هذه الفترة من الاعتقال بين معتقلات الفارعة (شهر واحد) ومجدو (خمسة أشهر) والنقب (ستة أشهر).

وكان هـذا الاعتقـال حافـلًا بالمطالعـة، وإعطـاء الجلسـات وكتابـة التعاميـم الثقافيـة بشـكل مكثـف. والاحتـكاك بالإخـوة أصحـاب النهـج الجهـادي والتعـرف عليهـم، وكذلـك التعـرف عـلى باقـي الأسرى مـن كافـة التوجهـات والتنظيـمات الأخـرى، والحـرص عـلى دوام بقـاء العلاقـة بـين الجميـع في أحسـن حـال، وقـد بـث الشـيخ بسـام قصصًـا ومواقـف جـرت معـه خـلال المطـاردة لإخوتـه وأصدقائـه في السـجن مـن منطلـق تعميـق التجربـة لـدى الآخريـن وتوعيتهـم بحسـن التـصرف عنـد المطـاردة، والـذي في الغالـب مـا يـؤدي إلى الإفـلات مـن الاعتقـال الحتمـي مستشـهدًا ببعـض المواقـف التـي أكـدت لـه مـن خـلال التجربـة الحيـة أن جيـش الاحتـلال وجهـاز مخابراتـه ليسـا أسـطورة كـما يحـاول أن يسـوّق، ففـي جلسـة تنظيميـة في معتقـل مجـدو، أخـذ الحديـث والحـوار بـين أسرى حركـة الجهـاد تشـعبًا إلى أن جـاء إلى مواقـف طريفـة أثنـاء المطـاردات، فسـرد لهـم الشـيخ بسـام بعـض المواقـف التـي تؤكـد عـلى مـا يؤمـن بـه مـن خـلال تجربتـه الحيـة فقـال:

مـع تقـدم أشـهر الانتفاضـة، أصبـح شـقيقاي الأصغـر منـي سـنًا غسـان وأحمـد ضمـن المطلوبين للاحتـلال، والأخ الأكـبر منـي جمـال المُكنّـى (أبـو عـارف) معتقـل، وكنـت قـد حـضرت للبيـت، وكان كل مـن البابـين الخلفيـين المطلـين عـلى الحاكـورة التـي تقـع خلـف البيـت مغلقين، فجـاء غسـان وحـاول الدخـول، ليفاجـأ وهـو يفتـح البـاب الثـاني أن الجنـود ومعهـم والـدي قـد أصبحـا في وجهـه مبـاشرة، فقـال لـه والـده:

لا تخف، لا يبحثون عنك، يريدون أخاك الشيخ بسام.

قـال لـه ذلـك حتـى لا يرتبـك ويهـرب ويطلقـوا النـار عليـه، غسـان الـذي صمـت قليـلًا، صرخ بقـوة في وجـوه الجنـود، فانكفـؤوا مذعوريـن للخلـف، فقـام هـو بإغـلاق البـاب الأول بسرعـة، وأحكـم إغـلاق البـاب الثـاني، وصرخ مناديًـا إيـاي ليبلغنـي بوجـود كبسـية، فخرجت بسرعـة، ودخلنا حاكـورة مجـاورة، والجيـش قـادم نحونـا وقـد ارتبـك مـن صـوت غسـان، قـام بإحـكام البـاب بـدلًا مـن فتحـه، بـل أنهـم عندمـا حاولـوا تحضـير السـلاح لإطـلاق النـار؛ تعثـروا لأنهـم كانـوا في حالـة مـن الارتجـاف والارتبـاك في هـذا الوقـت، رفعنـي غسـان عـلى كتفـه، وألقـى بي خلـف ذلـك السـور الـذي يرتفـع حـوالي مترين ونصـف عـن الأرض، فاندفعـت هاربًـا، ونسـيت شـقيقي غسـان الـذي تركتـه

خلفي وهو أيضًا مطلوب، وقد يلقى القبض عليه، الجيش تأخر في فتح الباب خمس دقائق، كان خلالها غسان قد تسلق الجدار بصعوبة، وانسحب هو أيضًا، وقد التقيت بشقيقي أحمد في ساحة المخيم، فهربنا صعودًا حتى استقررنا في بيت «راتب الشهلة» بعد ذلك انسحب الجيش، وهو يجر أذيال الفشل في تحقيق هدفه من اقتحام المخيم.

وفي موقف آخر حصل تصعيد في المخيم، فاقتحم الجيش المكان، فدخلت إلى أحد المنازل، ودخلت غرفة خلف ذلك المنزل، فيها شباك من الزنك المثقوب، وأردت متابعة ما يجري من خلال النظر من ذلك الثقب الصغير، وإذا بي أرى أذن أحد الجنود الملتصقة بالثقب، فكتمت ضحكتي التي انفجرت بداخلي وأنا أتأمل ما يظهر من أذن ذلك الجنديّ.

وذات مرة في وضح النهار، كان هناك شجار بين عائلتين في وسط المخيم، توجهت فورًا لفض الشجار، وإصلاح ذات البين، فوجدت تجمعًا كبيرًا من الجيران والمارة، فشرعت مع آخرين في تهدئة النفوس، فتفاجأت بوجود سيارتَيْ جيش خلفي، فترجل منها ضابط، وكان من جنود الاحتياط الذين يستبدلون كل شهر بشكل دوري، فسألني:

ماذا يجري هنا؟

تماسكت وقلت: شجار بسيط بين الجيران، وسنفضه بسرعة.

قال الضابط: لا يوجد مشاكل؟

رددت عليه قائلًا: لا تقلق، كل شيء على ما يرام، بإمكانك الانصراف.

فركب الضابط سيارته، وانصرف هو ومن معه.

فقلت في نفسي: «لو تعرف مع من كنت تتكلم».

والموقف الرابع كان في اليوم الثاني لغزو صدام حسين للكويت، أي في الثالث من شهر أغسطس (آب)، استيقظت مبكرًا، وصليت الفجر، ولما بلغت الساعة السادسة، تركت مكاني، وذهبت إلى ساحة المخيم، واشتريت نسخة من جريدة «القدس» اليومية، وشرعت في قراءة

الأخبار التي تتحدث معظمها عن غزو الكويت، وسرت عبر زقاق الويمي صعودًا إلى زقاق الدقم والبكليزي ثم بيت أبو أنور حتى كدت الوصول إلى تقاطع طريق حارة الرخ بحارة النوباني، عندها سمعت أصوات أقدام تأتي من الجهة اليمنى، أبطأت في مشيتي، فإذا بمجموعة من الجنود يمسكون بمعتقل وهو خالد أبو شحادة حويل، تماسكت، ووقفت، سألني الضابط:

ما اسمك؟

قلت: غسان السعدي.

قال لي: أين هويتك؟

فرددت بعد أن تحسست جيوبي: «الله يلعن الشيطان، والله نسيتها».

فعاد الضابط، وسألني: لماذا نسيتها؟

فقلت: لقد أيقظني والدي وطلب مني أن أذهب لبيوت عمال معمل الطوب الذي نملكه؛ لنبدأ يوم عمل جديد.

فقال لي الضابط: تعال معنا إذن لنرَ الهوية.

فسرت معهم نزولًا حتى وصلنا دكان الويمي لبيع الدواجن، وخلال المسير سألني الضابط الدرزي عن الشيخ بسام قائلًا:

أخوك الشيخ بسام مطارد، لماذا لا يسلم نفسه لئلا يقتله الجيش؟ حرام لديه أربعة أطفال.

فقلت: أخي عنيد.

فعاد الضابط فسألني: متى رأيته آخر مرة؟

قلت: أمس التقيته في ساحة المخيم، نحن لا نعرف أين يبيت؟ وأين يقضي وقته؟

عندها تجمع الشبان وتجمعت النسوة اللواتي خرجن لشراء حاجيات عائلاتهن، فتخوف

الجنود من حدوث رشق حجارة، فقال الضابط لي:

اذهب أنت، وأحضر الهوية، والحق بنا إلى المقاطعة.

بقيت متماسكًا، ولم أظهر أني أتعجل الإفلات حتى لا أثير أية ريبة، فوافقت وقلت لهم:

دقائق سأحضر هويتي وأتبعكم.

سرت غربًا بهدوء، في حين ساروا هم شرقًا في انتظار دورياتهم التي تركوها في شارع مهيوب الواقع جنوب المخيم، وفي تلك الأثناء انتهزت أول فرصة للابتعاد والتواري عنهم، وانطلقت فارًا من المكان غربًا حتى وصلت أمام بيت الأستاذ حسن تركمان في أقصى غرب المخيم، الذي كان يعمل أمام بيته، فأجلسني وقدم لي كوبًا من الشاي.

في ذات الوقت وصلت سيارات الجيش، فقام الضابط بإبلاغ الضابط الآخر بما جرى، وأن غسان شقيق الشيخ بسام قد ذهب لإحضار هويته ليلحق بنا، الضابط الثاني سأل الضابط الأول عن مواصفات غسان، فشرح له تلك المواصفات، فرد الضابط الثاني قائلًا:

هذه مواصفات الشيخ بسام نفسه، مواصفات أخيه غسان تختلف، فقد اعتقلته قبل فترة، على كل حال دعنا نذهب لمعمل الطوب هناك لنتأكد، وفعلا ذهبوا وهناك وجدوا غسان يعمل في صناعة وتشكيل قوالب حجر الطوب، فطلبوا هويته الشخصية، عندها أدركوا أني كنت في قبضتهم، وأني سخرت منهم، واستطعت الإفلات.

موقف آخر وهو الذي سبق الاعتقال، كان ذلك بعد صلاة العشاء، عندما كنت قادمًا من الجهة الغربية للمخيم متجهًا نحو منزل والديّ، وقبل أن أصل، مّررتُ بدكان جارنا رشيد عبد الحفيظ الذي كان يجلس معه فيها جار آخر هو مازن الأديب، فناداني ليضيفوني زجاجة عصير، فلبيت، ودخلت الدكان، وجلست خلف الثلاجة حتى لا يراني أحد من المارة، دقائق شعرت بتقدم عدد من دوريات الاحتلال والوحدات الخاصة من أكثر من جهة نحو بيت والدي، فقاموا بتطويق البيت والحي، فأدركت أني أنا المستهدف، فطلبت من كل من عبد الحفيظ والأديب عدم الارتباك، وسألت عبد الحفيظ:

هل هناك أحد في البيت؟

أجاب أبو الحفيظ بالنفي.

فدخلت بهدوء، وصعدت الدرج المؤدي إلى سطح المنزل، وزحفت لأطل من بين شقوق الطوب على تحركات الجيش، بقيت صامتًا وأنا أتمتم بصوت منخفض بالآية القرآنية ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]، ففتشوا كل بيوت الحيّ بالإضافة إلى بيت والدي الحاج راغب السعدي، وعندما اعتقلوا الشاب مسعد العمار في المكان؛ لأنه ملتحٍ، أوسعوه ضربًا؛ لأنهم اشتبهوا به، وفي بيت والدي الحاج راغب السعدي، أبلغوا والدي أنهم أحضروا معهم مسدسًا كاتمًا للصوت لتصفيتي، قال ذلك ضابط مخابرات يدعى كابتن «نير»، كان مسؤولًا عن تنفيذ التصفيات بحق المطلوبين والمطاردين.

وبعد تفتيش منازل الحيّ باستثناء المنزل الذي كنت فيه، عادت وحدات الجيش بفشل آخر، بينما خرجت وتوجهت إلى بيت صديق لي كان يحتسي القهوة على شرفة بيته مع أصدقاء له؛ وشاركتهم شرب القهوة، وجلست معهم على الشرفة أشاهد مرور الدوريات من أمام ذلك المنزل المشرف على الطريق الرئيس بين جنين وبرقين.

أمّا قصة الكلب والسدة التي حصلت معي أثناء مطاردتي في عام 1989م، وكنت مطاردًا لأكثر من عامين، وقد نمت في بيت أخي قاسم (أبو ربيع)، واستيقظت عند انبلاج الفجر على صوت نباح الكلب الذي كان يحرس فناء المنزل وكان نباحه ملفتًا وغريبًا، فتقدمت واسترقت النظر من خلف طاقة الباب، فإذا بالجنود يحاصرون البيت، وقد تسلقوا جدران بيوت الجيران، فلم أغلق طاقة الباب حتى لا يروني، بل حبوت على يديّ وقدميّ وأيقظت إخوتي وأبلغتهم بما رأيت، وقلت لهم إنني سأختبئ في سدة المطبخ، فدخل الجنود وقاموا بتفتيش بيت والدي وأنا أسمع حديثهم مع أهلي، وكنت أقرأ فواتح سورة يس ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]، وأشعر بطمأنينة عالية، فانصرف الجنود دون أن يحققوا أهدافهم وحمدت الله على فضله ومنته.

هـذه المواقـف التـي مـرت بالشـيخ والتـي سردهـا لإخـوة القيـد، كانـت درسًـا حقيقيًـا، ومثـلًا حيًـا عـلى إمكانيـة الإفـلات مـن قـوات الاحتـلال إذا تماسـك المطـارد ولم يرتبـك وأحسـن التـصرف بـكل ثقـة، فكانـت تجربـة ومثـالًا يحتـذى لبعضهـم إن لم نقـل جلهـم، عندمـا يتذكرهـا مـن يعـود منهـم لـدرب المقاومـة والجهـاد في مطاردتـه اللاحقـة.

وبعـد الخـروج مـن السـجن، افتتحـت محـلًا لبيـع الإسـمنت في الحـيّ الشرقـي مـن مدينـة جنين، بالشراكـة مـع الشـيخ فـوزي السـعدي أحـد كـوادر حركـة الجهـاد الإسـلامي، وكان البحـث عـن القائد المطارد عصام براهمة مؤسـس مجموعات «عشـاق الشـهادة» من قبل سلطات الاحتلال ومخابراته في أوج تلـك الفـترة مـن عام 1992م، وفي إحدى الليالي، كنت أسـهر عند أخي غسـان، وعندما هممتُ بالعودة لبيتي، علمت أن قوة من جيش الاحتلال موجودة في المنطقة، فاضطررت للمبيت عند شـقيقي غسـان.

وفي نفـس الليلـة، داهمـت قـوات الاحتـلال بيتـي للبحـث عـن صهـري سـليمان، فلـم يجـدوني في البيـت، فاتصلـوا بضابـط المخابـرات المسـؤول عـن المنطقـة حيـث توجسـوا مـن هـذا الغياب، خشـية مـن التواصـل مـع عصـام براهمـة، وفي اليـوم التـالي، داهمـوا محـل الإسـمنت، فوجـدوني وصديقـي فـوزي وشـقيق فـوزي، فاحتجزونـا تحـت التحقيـق الميـداني سـاعة ونصفًـا مـن خـلال التواصـل مـع المخابـرات عـبر أجهـزة اللاسـلكي حتـى تأكـدوا أنني كنـت ليلـة أمـس في ضيافـة شـقيقي غسـان.

لقـد حطمـت انتفاضـة الحجـارة عـام 1987م، حاجـز الخـوف عنـد شرائـح كبـيرة مـن أبنـاء الشـعب الفلسـطيني، هـذا الشـعب الـذي واجه بصـدره العـاري جنود الاحتـلال المدججين بآلـة القمع وأثبـت للعـالم أنـه عـصي عـلى التطويـع، وأنـه لا يسـكت عـلى الظلـم والإذلال إلا أن الاجتهـاد الخاطـئ في الجـري وراء مشـاريع السـلام الوهميـة، والانخـداع بالوعـود الأمريكيـة والغربيـة أضر بمسـيرة هـذه الانتفاضـة، وأحبـط تطوراتهـا أكثـر ممـا فعلـه الاحتـلال ومارسـه مـن قمـع واسـتهداف لهـذا الشـعب طـوال سـنين هـذه الانتفاضـة المباركـة، وقـد ختمـت هـذه الانتفاضـة باتفـاق أوسـلو الـذي ألحـق الـضرر بالقضيـة الفلسـطينية عـلى جميـع المسـتويات حيـث أضعـف تماسـك الجبهـة الداخليـة للشـعب الفلسـطيني، والـذي مازلنـا نعـاني آثـاره السـلبية حتـى يومنـا هـذا؛ انقسـامًا وعـدم توافـق عـلى برنامـج وطنـي يرتكـز عـلى الثوابـت ويرعـى المقاومـة ويسـعى لكنـس هـذا الاحتـلال دون قيـد أو شرط.

التنكيل

خرج الشيخ بسام من الاعتقال الأخير، وعاد للدعوة والعمل الاجتماعي، وبعد مضي سبعة أشهر ونصف خارج السجن، وقعت عدة عمليات قامت بها حركتا حماس والجهاد، كان أبرزها الاشتباك العنيف مع الشهيد عصام براهمة في قرية عنزا قضاء جنين، والذي كان قائدًا للجهاز العسكري للجهاد الإسلامي بالضفة الغربية، والمعروف باسم «عشاق الشهادة»، وعملية خطف وقتل الجندي الصهيوني «نسيم توليدانو» على يد مجموعة من كتائب عز الدين القسام في الثالث عشر من ديسمبر (كانون أول) من العام 1992م، فاتخذت حكومة الاحتلال قرارًا تعسفيًا بإبعاد أربعمائة وسبعة عشر شخصًا من قادة حركتيّ «حماس» و«الجهاد» في الضفة والقطاع إلى لبنان، وكان من بينهم الشيخ بسام.

في ذلك اليوم، كان الشيخ بسام يقود جرارًا لنقل مواد البناء ظهرًا قادمًا من منطقة واد برقين في جو ماطر وبارد، فاصطدم بكمين للجيش الصهيوني اختبأ ضباطه وجنوده في ورشة لصنع الشبابيك وأبواب التريس والألمنيوم في المخيم، فقاموا بإيقافه، وطلبوا هويته الشخصية، في البداية ظن الشيخ بسام أن المقصود مخالفة للجرار، خاصة أنه سمع قبل دقائق بأن الشرطة الصهيونية تقوم بتحرير مخالفات للجرارات الزراعية، التي تعمل في النقل، لكن ضابط المخابرات الجديد المدعو «عساف» أبلغ الشيخ بسام أنه معتقل، واقتاده إلى مقر الحاكم العسكري، وأدخله خيمة التوقيف.

لاحظ الشيخ تواصل اعتقال كثير من أعلام حركتي حماس والجهاد الإسلامي في المنطقة تباعًا، والزج بهم في الخيمة، حتى بلغ عددهم تسعة عشر شخصًا، وهم: الشيخ محمد فؤاد أبو زيد، ومحمد أبو سيف، والشيخ أحمد أبو عرّة، والشيخ هاني جرادات، وحيدر العبوشي، وشحادة حبايبة، وجهاد ربايعة، والمهندس إسماعيل أبو طامع، وصابر جرادات، وحسن الدحلة، وعماد جابر، وكمال صبيحات، والدكتور زياد عبد الغني، والشيخ زياد عيسه، ومحمد إبراهيم زيد،

والشيخ مصطفى أبو عرّة، ومصطفى عطاري، بالإضافة للشيخ بسام، والذين كانوا يصلون الخيمة وماء المطر يقطر من وجوههم ولحاهم.

عند المغيب، اقتيدوا إلى حافلة كانت تقف أمام مقر المخابرات، وهناك صعد إلى الحافلة ضباط مخابرات كل منطقة، فصعد أولًا المدعو «عساف»، فرأى محمد أبو سيف يجلس بجانب الشيخ بسام، فقال:

هل جلوسكما إلى جانب بعضكما بعضًا صدفة؟

فردا: نعم، صدفة.

فقال: لا، أنتما لا تفترقان عن بعضكما.

صعد مسؤول مخابرات منطقة السيلة الحارثية واليامون وما جاورهما المدعو «شريف»، فخاطب الشيخ هاني وسأله:

شيخ هاني، أين كنت السبت الماضي؟

رد الشيخ هاني قائلًا: في البيت.

فقال شريف: كنت عند عصام براهمة، أنت من زوده بالرصاص، وأنت مسؤول عن ذبح الجنود في المعركة التي جرت مع عصام.

وصعد ضابط ثالث، وهكذا، حتى أحضر الدكتور عدلي ياسين وهو من قرية عانين، والذي كان رهن التحقيق منذ ثلاثة أشهر، فكبلوهم، وعصبوهم، وقالوا للشيخ هاني:

هل تعلم أين ستذهب أنت والمبعدون؟

رد الشيخ هاني قائلًا: لا أعرف.

فقال ضابط المخابرات: أنتم ذاهبون إلى بيروت، لكي تسلموا على فتحي الشقاقي.

وبعد أن غُيِّرَ جنود الحراسة من جنود قوة الاحتياط إلى وحدة جولاني جُلُّهم من صغار السن؛ تحركت الحافلة صوب حيفا على وقع التنكيل من قبل الوحدة العسكرية الجولانية من ضرب وصفع وشتم، ومنع من قضاء الحاجة، ومن ثمَّ إلى الشمال مساء يوم الأربعاء، وأمام إحساس الأسرى بكثرة الانعطافات التي تظهر في طريقهم، بدؤوا يتخوفون أن ما يجري هو إبعاد إلى جنوب لبنان؛ لأن طريق سجن النقب التي اعتادوا عليها منبسطة وسهلة، في حين أن الطريق التي يسيرونها فيها كثير من الانعطافات والتعرجات والصعود والهبوط.

ساعات ووصلت الحافلة قريبًا من كريات شمونة عند الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة حيث توقفت بعد ساعات من المسير، وما زال التنكيل متواصلًا، والشيخ بسام يعيش أصعب لحظات حياته إثر ألم حاد في بطنه، وهو بأمس الحاجة للذهاب للحمام نظرًا لذلك المغص الذي لا يوصف، لكن الجنود المرافقين الذين يتلذذون بعقاب الأسرى يرفضون حتى تقديم الماء لمن يطلب إلا بشق الأنفس. عاش الشيخ بسام تلك الحالة غير المسبوقة بألمها من مساء الأربعاء حتى ساعات الفجر الأولى من صباح الجمعة، وهو وزملاؤه لا يعرفون سبب توقف الحافلات، ولا وجهتها، لدرجة أن الشيخ بسام وصل للتفكير من شدة الألم والمعاناة البالغة إلى أن ما يجري له هو عذاب في البرزخ، وأنه توفي، وأنه في عداد الموتى في تلك اللحظات حيث لم يمر عليه مثل هذا العذاب طوال حياته، فقد شعر في لحظة من اللحظات أنه يختنق، ويوشك أن يقع مغشيًا عليه، فوقف وهو مكبل ومعصب، فسارع أحد الضباط لفتح النافذة المجاورة له قبل أن يختنق.

قبل الساعة الثالثة فجرًا تحركت الحافلات، وقد تجمعت في ذات المكان، وبعد نحو عشر كيلومترات، توقفت، فأنزل منها الأسرى، ورفعت عن أعينهم العصبات، فرأوا حافلات كثيرة، والطائرات العمودية تنزل المبعدين القادمين من غزة وسجن النقب، فأدركوا يقينًا أنهم مبعدون، وأنهم يقفون الآن على معبر «زمريا» الواقع شمال منطقة الحزام الأمني مقابل كريات شمونة، قال لهم ضابط المعبر، وهو درزي من عناصر جيش جنوب لبنان:

ثمانية وأربعون ساعة مضت، وكل وكالات الأنباء العالمية تتحدث عنكم.

ثم جيء بعدد من سيارات النقل الزراعي من بلدة حاصبيا الدرزية، فزُج بها المبعدون،

وأجبرت السيارات على الانطلاق شرقًا نحو قرية مرج الزهور التي تبعد نحو ست كيلومترات عن معبر» زمريا».

كان الطريق محطمًا ومليئًا بالحفر من أثر القذائف، وإثر مرور المركبات الثقيلة كالدبابات وناقلات الجند المدرعة، فكان ذلك الطريق معاناة إضافية للمبعدين، وقد فرملت الشاحنة التي كان فيها الشيخ ورفاقه فجأة، فطار الشيخ ومن معه من الخلف إلى الأمام، وصاروا ركامًا بعضهم فوق بعض.

في أثناء السير شرقًا، طلب الشيخ جمال منصور سمّاعة من السائقين ليتحدث بها للمبعدين، فزودوه بإحداها، فتحدث قائلًا:

يا إخوان، نحن الآن مبعدون، وفي أية لحظة ستنهال علينا وسائل الإعلام، وسيتوجه إلينا الصحفيون، لذلك اقترح أن يكون الناطق الرسمي باسمنا الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.

فوافق الجميع، وقبل الرنتيسي الاقتراح.

وعندما وصلوا مدخل قرية مرج الزهور، ترجّل جنود لبنانيون من العمارات المجاورة للشارع، وأقاموا حاجزًا، وأبلغوا المبعدين أن الحكومة اللبنانية لا توافق على دخولهم لبنان، فتقدم الشيخ عبد العزيز الرنتيسي وبعض رفاقه فقالوا لهم:

نحن لا نريد الدخول إلى لبنان، نحن نريد العودة لوطننا وأهلينا، فخيرًا فعلتم، ونشد على أيديكم وهذا كان رأي معظم المبعدين.

فقال الضابط اللبناني: إذن، عودوا في نفس السيارات إلى المعبر.

فعلًا عادت بهم السيارات التي نقلتهم، لكن دبابات الجيش الصهيوني واللحدي شرعت بإطلاق النار فوق المبعدين بواسطة الرشاشات الثقيلة، وأمرت السيارات الدرزية بالعودة لمنطقة الحزام فارغة، فأصبح المبعدون بين المنطقتين، عادوا قليلًا إلى الخلف، وعندما شاهدوا رغم الظلام والبرد سفوح جبل تقع قرب الشارع الرئيس، توجهوا إليها لبناء مخيمهم الذي أطلقوا عليه منذ اللحظة الأولى «مخيم العودة».

كان أول من حضر لمخيم العودة في ساعته الأولى القوات الدولية، «اليونيفل» تحمل معها بعض الخيم والأغطية للمبعدين الذين شرعوا ببناء الخيم فورًا لتأويهم من البرد، دخل الشيخ بسام إحدى الخيم، وغط في نوم عميق بين جمع من زملائه الذين يسردون صورًا من معاناتهم وما سيجري عليهم، ولما نودي لصلاة الفجر استيقظ وصلى مع رفاقه، وعاد للنوم ثانية.

في صباح اليوم التالي، استيقظ الشيخ بسام على واقع جديد، أربعمائة وسبعة عشر مبعدًا، منهم اثنان وعشرون دكتورًا جامعيًا، وأربعة عشر طبيبًا من التخصصات كافة، واثنان وثلاثون مهندسًا، ومائة وعشرون إمام مسجد، والباقي جامعيون وحملة دبلوم وحملة الشهادة الثانوية على الأقل، ورجال إصلاح ورؤساء جمعيات، ووجهاء.

استيقظ الشيخ من رحلة طويلة وقاسية من المعاناة إثر الإبعاد الذي فرضه الاحتلال قسرًا وتحت النار، فتلفت حوله، لتستوعب ذاكرته المكان في عز البرد القارس وغير المسبوق، وكانت أول وجبة إفطار تناولها المبعدون هي حب الزيتون مع الخبز جاءتهم من القرى الدرزية المجاورة، وتدفق الصحفيون ووسائل الإعلام على مخيم مرج الزهور، وكان أول الواصلين مراسل قناة المنار التابعة للمقاومة الإسلامية في لبنان، كما حضر الصليب الأحمر ومعه عدد من الخيام، وبعد أيام قليلة، وصل وفد يمثل الحرس الثوري الإيراني ممثلًا بالحاج رمضان الذي أبلغ المبعدين أن الإمام خامنئي قد أوصى بدعم كامل للمبعدين، وخدمتهم حتى العودة إلى وطنهم.

كما حضرت للمخيم وفود عربية وإسلامية ودولية من كل أنحاء العالم منهم وفود من الأحزاب اللبنانية وخاصة الجماعة الإسلامية، والناصريّين (المرابطون)، والحزب القومي الاجتماعي السوري، ومن الوفود العربية حركة الإخوان المسلمين في مصر برفقة جماعة تمثل الناصريّين في مصر، وألقى عصام العريان أحد رموز حركة الإخوان المسلمين في مصر كلمة باسم الوفد.

كما جاء من الأحزاب والوفود الأجنبية وفد يرأسه أحد زعماء الحزب الشيوعي الإيطالي، وكان مقعدًا على كرسي متحرك، فألقى في المبعدين كلمة قال فيها: «إن رابين هو الإرهابي، لستم أنتم، من يبعد هذه الصفوة المطالبة بحقوق شعبها عن وطنها وأهلها هو الإرهابي، وأن الهدف من الإبعاد هو تجهيل الشعب الفلسطيني بقصد السيطرة عليه وسلب ما تبقى من أرضه»، وقدم تبرعًا بقيمة عشرة آلاف دولار للمبعدين.

كما حضر الداعية فتحي يكن أمير الجماعة الإسلامية في لبنان، وألقى كلمة مؤثرة، وجاء قادة الفصائل الفلسطينية واللبنانية والسورية والعربية، ووفد من تجمع علماء المسلمين، وعلى رأسهم الشيخ الكبير المجاهد ماهر حمود، وسليم اللبابيدي وزهير كنج، وحضر نائب الشيخ حسن الترابي محمد ياسين الإمام، مصحوبًا بوزير سوداني، وكذلك مشير مصطفى الناطق باسم الجماعة الإسلامية في كردستان العراق، ووفدان من الإخوان المسلمين في الأردن.

وحضر إلى المخيم ليلًا الشهيد جهاد جبريل نجل مؤسس وقائد الجبهة الشعبية (القيادة العامة، أحمد جبريل)، ومعه نحو ثلاثين مقاتلًا يحملون الأغراض على ظهورهم، وصافحوا الجميع، وسهروا حتى بعد منتصف الليل في خيم الجهاد الإسلامي، كما حاول كل من الفنان نور الشريف والفنانة ناديا لطفي الوصول إلى المخيم، لكنهما لم يحصلا على تصريح بذلك، فمنعهما حاجز الجيش اللبناني.

وحضر وفد يمثل نيلسون مانديلا الذي كان لا زال قيد الاعتقال من قبل نظام الحكم العنصري في جنوب إفريقيا، وحضر بعض الباحثين والأكاديميين لإجراء أبحاث ودراسات على هذا التجمع الاستثنائي، كان من بينهم باحث نمساوي كان يعد دراسة عن الحركات الإسلامية في المشرق العربي، فجاء إلى المخيم، وبعد أن أمضى عدة أيام قال:

«هذه المدينة الفاضلة التي كتب عنها أفلاطون، فهنا عند نداء الصلاة وخاصة الجمعة لا تجد أحدًا في خيمته، وعند الذهاب للشراء من «الكنتينا» ولا تجد البائع، تشتري وتسجل اسمك أنّك حضرت وابتعت حاجتك». وأضاف: كنت أخطط لرحلة كبيرة في العالمين العربي والإسلامي لتأليف كتاب عن الحركات الإسلامية، ولكن وجودكم هنا سهّل عليَّ الكثير.

وبخصوص اللقاء مع الدكتور القائد المؤسس فتحي الشقاقي، يقول الشيخ بسام أنه حضر بعد فترة إلى مخيم مرج الزهور، وكان برفقته أربعة من الحراس، وقد شعرنا بالقلق خوفًا من استهدافه من قبل الاحتلال، وألقى محاضرة في جميع المبعدين، وجلس يتحدث طويلًا مع مبعدي الجهاد الإسلامي، كما التقى بهم مرة ثانية في بلدة «لبّاية» القريبة من المخيم، وفي مرة ثالثة في بلدة «غزة» البقاعية، حيث علم أن عددًا من مبعدي الجهاد الإسلامي خرجوا في رحلة

استشفاء ونقاهة في حافلات الحرس الثوري، وأنهم عرجوا على بلدة غزة، فجاء من دمشق والتقى بهم هناك، وسهر مع الشيخ بسام ورفاقه، وصلوا الفجر معًا، وتحدثوا لساعات عن الحركة والوضع السياسي القائم.

الأمين الوفيّ

يقول الشيخ بسام أنه سمع بالقائد المجاهد زياد النخالة (أبو طارق) قبل أن يُبعد من قطاع غزة إلى لبنان في أغسطس (آب) من عام 1988م، وأنه ابن لشهيد قضى في العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، عندها كان طفلًا عمره لا يتجاوز ثلاث سنوات، وعندما كَبُرْ، انضم لفصيل مقاوم، وأصبح أسيرًا محكومًا بالمؤبد، لكنه خرج من الأسر ضمن صفقة التبادل التي جرت بين الجبهة الشعبية (القيادة العامة) والعدو الصهيوني في مايو (أيار) من عام 1985م، وكُلِّف من قبل الدكتور المؤسس فتحي الشقاقي بقيادة الجناح العسكري للجهاد في القطاع، وقد اعتقلته سلطات الاحتلال في شهر أبريل (نيسان) من عام 1988م، وأبعدته مع عدد من رموز الحركة إلى لبنان، حيث أصبح ممثلًا للحركة في لبنان.

وعندما جرت عملية الإبعاد، واستقر المبعدون الذين كانوا من حركتيّ حماس والجهاد في مرج الزهور، توثقت العلاقة بين المبعدين من حركة الجهاد، والأستاذ زياد نخالة، بحكم أننا أصبحنا تحت مسؤوليته، وكان مسؤولًا عن كل احتياجاتنا، فكان يأتي لزيارتنا يوميًا أحيانًا، أو في الأسبوع مرتين، أو على الأقل مرة في الأسبوع، وبحكم أن خيمة مبعدي الجهاد، والتي يقطنها الشيخ بسام وإخوانه كانت تقع شرقيّ مخيم العودة في مرج الزهور، وهي كبيرة وواسعة ومرتفعة، وتبدو كأنها مضافة، وهي تقع في أول الطريق الداخل للمخيم، وقرب الشارع الرئيسي الذي يأتي منه الضيوف، كان الأستاذ (أبو طارق) عندما يأتي للمعسكر والوفد المرافق له، يدخل إليها، فنستقبله بالترحاب والضيافة، ونتحدث معه في كل الهموم والاحتياجات، فيتناول معنا طعام الإفطار أو الغداء، أو الاثنين معًا، وكنا نمازحه عندما يأتي أحد من الخيم الأخرى يطلب حضوره وحضور الوفد المرافق له، ونقول:

«من يريدك يجب أن يتقدم بطلب لنا، ونحن نقرر القبول أو نرفض»

ويضيف الشيخ بسام؛ للحقيقة والتاريخ (أبو طارق) نال ثقة المبعدين كلهم، وإذا تكلم بكلام كان وفيًّا له، وإذا قطع عهدًا أبرّه، وكان المجاهدون يتعاملون معه بأريحية، ولم يقصر بأحد، وأحيانًا كان يحضر معه أولاده، ليعرفهم على المبعدين، ويعمق فهمهم للقضية الفلسطينية من خلال مثال حيّ على تشريد الاحتلال الصهيوني لهذه النخبة من مجاهدي الشعب الفلسطيني.

وكان (أبو طارق)، يسير على قدميه من قرية «لبّاية» إلى مخيم العودة في مرج الزهور، لمسافة ست كيلومترات قدومًا، ومثلها عودة وصعودًا قبل أن تشتري حركتا الجهاد وحماس سيارات خاصة، من أجل تسهيل الوصول والخروج من المخيم، كما وفّر الحرس الثوري الإيراني سيارة من نوع «تندر نيسان» لنقل الاحتياجات الأساسية للمبعدين يوميًا.

وقام الحرس الثوري الإيراني بمد خطيّ مياه عبر خراطيم بلاستيكية لأكثر من عدة كيلومترات لتوفير مياه دائمة في مخيم العودة، وكذلك أحضر الحرس مولدًا كهربائيًا كبيرًا يتغذى بطاقة السولار، وجرى إيصاله بواسطة جرار، وقام المهندس الكهربائي المبعد عدلي يعيش (الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لبلدية نابلس) بإيصال أسلاك الكهرباء من المولد إلى السبعين خيمة، وزُودت بالكهرباء، إضافة إلى جهاز تلفاز لكل خيمة.

تجليات الوجع

عام كامل قضاه المبعدون في مرج الزهور، وهذه الفترة منذ لحظتها الأولى، أي من الاعتقال الذي كان ممهدًا للإبعاد، وحتى العودة إلى بيوتهم، كانت معاناة عظيمة وهائلة ومتواصلة لا تتوقف، معاناة قاسية جدًا على الأصعدة كافّة لهذا التجمع الفريد على هذه الرقعة من الأرض، وفي هذه الأجواء الباردة جدًا في الشتاء، والحارة في الصيف، فبعد أن وطئت أقدام المبعدين المنطقة القريبة من قرية مرج الزهور اللبنانية الجنوبية، قرابة الساعة الثالثة فجرًا من أيام كانون الأول لأكثر من أربعمائة إنسان لم يذوقوا طعم النوم منذ يومين، وهم تحت الضرب والتنكيل، والاعتداء المتواصل من قبل قوات الاحتلال؛ كانوا في لحظتها في أشد الحاجة لأخذ قسط من الراحة والخلود للنوم، ولكن أين ينامون؟ على الصخر البارد جدًا؟ أم على الثلج الكثيف؟ وأين

الأغطية التي من الممكن أن تحجب أو تخفف عنهم برد كانون؟ وحتى عندما أحضرت لهم قوات «اليونيفيل» الدولية بعض الخيام، لم تكن كفيلة بإيواء كل المبعدين لينامو.

يقول الشيخ بسام إن المعاناة لا يمكن وصفها للمستمع أو القارئ، فيكفي أن تشاهد المبعد الدكتور عدلي ياسين والذي أخرج من أقبية التحقيق في سجن جنين وأبعد معنا مباشرة، تراه يستحم في عز البرد القارس الشديد تحت شلال قريب حتى يستطيع الصلاة. يكفي أن تستيقظ فجرًا، فتجد الثلج قد غطى كل الأواني التي تبرع بها الداعمون للمبعدين، وقد طُمِرَتْ تحت الثلج، فتذهب للبحث عن أداة لإزاحة الثلج والبحث عنها، وبالكاد تنجح في استخراجها، قبل أن تنهار قواك من الإجهاد والتعب والانجماد، وأكثر ما كان يؤلمنا، عندما نرى الجرحى، وقد لُفّت أرجل بعضهم في الجبيرة، وهم يحملون العكازات متكئين عليها، ويمشون على الثلوج الكثيفة، وكذلك كبار السن كـ (أبو جهاد أبو الكاس) وغيره الذين يوقدون الحطب طلبًا للدفء من شدة البرد القارس.

كيف تكون تحت الغطاء المتواضع وعيونك شاخصة لسقف الخيمة وهي تستقبل من الخارج ندف الثلج الصامت، تخاف أن تنهال عليك، فتسهو، وتغط في النوم لتصحو ثانية على وقع انهيارها، فتنهض لإزاحة أكوام الثلج من فوقها، ومن ثم رفعها، ومن ثم تعود للنوم القلق، دون أن تتفق مع الثلج أن يأخذ إجازة ليتوقف حتى ينبلج الضوء.

المعاناة كانت في كل مكان، وعلى مدار الوقت، في المسكن والملبس والمأكل والمشرب والتنقل، وطالما تجنب المبعدون شرب الماء ليلًا وهم عطاش، حتى لا يضطرهم ذلك لقضاء الحاجة في الليل.

أما الاستحمام، فقد كانت له قصة؛ إذ لاحظ المبعدون وجود غابة من شجر البلوط بالقرب منهم، فتفتقت عقولهم عن فكرة يستطيعون من خلالها بناء حمامات للاستحمام بواسطة أغصان تلك الأشجار، فذهبوا يقطعون العصيّ الطويلة منها، ويزرعونها في الأرض من جهة، ويسندون الجهات الأخرى على بعضها بعضًا، ومن ثمة يلفون هذه الأغصان ببطانية، ويلبسونها قطعة كبيرة من النايلون والبلاستيك حتى لا يطالها المطر والثلج، ويضعون بداخلها عددًا من

«شحف» الحجارة المنبسطة؛ لتكون مكانًا يقف عليه المبعدون عند الاستحمام، وحتى تتوزع المياه الناتجة عن الاستحمام من تحت الحجارة.

أما الاحتياجات الأساسية التي كانوا يحتاجونها فكان لابد لمائة وعشرين مبعدًا منهم أن يتسلقوا الجبال نحو قرية «لبّاية»، بقيادة الأخ إسماعيل هنية وغيره لحمل احتياجاتهم الغذائية وغير الغذائية من أخشاب وخيم وأمور أخرى هم في أمس الحاجة إليها في حياتهم، ويسيرون عدة كيلومترات ذهابًا وإيابًا في ظل أجواء البرد الشديد والحر اللاهب، وما كان يرفع هِمَمَهُم الدروسُ والعظات التي كان يلقيها عليهم إسماعيل هنية خاصة أثناء الصعود في الذهاب، وعندما يرخون أحمالهم ليستريحوا في الإياب.

ومن صور المعاناة القاسية أيضا غسلُ الملابس، والذي كانوا يمارسونه في أسفل الوادي عبر مجرى الجدول المتكون من مياه المطر وذوبان الثلج، والذي يستمر من فصل الشتاء حتى الأشهر الأولى من الصيف قبل أن ينضب.

وإذا جاء الصيف، حمل لهم الأفاعي والعقارب والزواحف بالرغم من محاولات علاجها بالأدوية والمبيدات إلا أنها تتسلل من تحت الفراش والأغطية، وتهدد حياة المبعدين، الأمر الذي كان يحتم عليهم إجراء حملات تفتيش متواصلة للخيم وأثاثها قبل النوم وقبل الجلوس، بالإضافة للحشرات المتنوعة التي كانت تقض مضاجع النائمين.

فضلًا عن القصف المدفعي والصاروخي من المدفعية والدبابات من مرابض الجيش الصهيوني واللحدي وقواعدهما تجاه الأراضي اللبنانية عند أي حادث وأحيانًا كثيرة دون أي سبب مع أن المقاومة الإسلامية في لبنان (حزب الله) قد أوقفت العمل الجهادي من الجهة التي كنا فيها خوفًا من التسبب بردة فعل غادرة تؤذي المبعدين، بل إن عناصر الحزب التي كانت تأتي إلى مخيم المبعدين كانت حريصة على القدوم إما بلباس مدني، أو بلباس عسكري مغطى بالمعاطف الطويلة خوفًا من رصد الجيش المحتل والجيش اللحدي لهم وإطلاق النار عليهم، والتسبب بإيذاء المبعدين.

وعندما اندلعت معركة حرب (الأيام السبعة) كما سماها اللبنانيون، ومعركة (تصفية الحساب) كما سماها المحتلون، والتي جرت بين المقاومة اللبنانية وجيش الاحتلال وحلفائه اللحديّين في الأيام الأولى من تموز من عام 1993م، وكانت شرارتها مقتل خمسة جنود صهاينة في جنوب لبنان إثر عملية نوعية للمقاومة الإسلامية اللبنانية (حزب الله)؛ لم يقم الحزب نهائيًا بإطلاق صواريخه أو نيران مدفعيته أو حتى أسلحته الخفيفة من المنطقة التي تحيط بمخيم مرج الزهور، في حين أن كل النيران الصهيونية في الجهة المقابلة لم تتوقف عن قصف معاقل الحزب والقرى الحاضنة له طيلة الأيام السبعة، وقد توقفت المعركة في نهاية اليوم السابع بعد أن فشل جيش الاحتلال في تحقيق هدفه المعلن وهو استئصال شأفة «حزب الله»، توقفت المعركة إثر اتفاق شفوي غير مباشر رعته جهات دولية يقضي بتوقف جيش الاحتلال وعملائه عن قصف المدنيين اللبنانيين مقابل توقف الحزب عن قصف مستوطنات شمال فلسطين المحتلة.

كانت معركة قاسية وواسعة، شارك فيها الاحتلال بالمدفعية والصواريخ والطيران الحربي والعامودي، وأدت إلى تدمير كثير من القرى وتهجير سكانها، وقد سأل الصحفيون وقتها الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لـ «حزب الله» لماذا لا توقفون الحرب وقراكم وبلداتكم تدمر وجمهوركم يُهَجَّرْ، فقال: «الحرب عضّ على الأصابع، من يصرخ أولًا هو المهزوم».

وقد عرض المبعدون بشكل رسمي على قيادة المقاومة الإسلامية في لبنان التبرع بالدم، وكذلك لجأ بعض المواطنين اللبنانيين، من القرى المجاورة إلى مخيم المبعدين للاحتماء من القصف، خاصة أن الاحتلال تجنب إيذاء المبعدين خوفًا من اشتعال الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتأجيج الانتفاضة هناك، في ظل التركيز الإعلامي على قضيتهم، وأخذها بعدًا إنسانيًا عالميًا.

إبداعات

كان لذلك التجمع الفريد في مستوى التحصيل العلمي والقدرات الثقافية والتنظيم الواعي أن يبدع مجموعة من الفعاليات الثقافية والعملية، فقد تم تشكيل جامعة علمية لدراسة أنواع العلوم الشرعية والفقهية والعلوم الأخرى كافة، بإشراف حملة شهادات الدكتوراه في المخيم وحملة

شهادة الماجستير، كما أقام المبعدون معرضًا للطيور والزواحف المحنطة والتي كانوا يعثرون عليها من البيئة المحيطة بهم، وقدموا هذا المعرض للزائرين حتى يقوم الإعلاميون بنقله للعالم ليكون رسالة بأن سكان مخيم مرج الزهور المبعدين قسرًا عن وطنهم وعائلاتهم؛ هم أناس حضاريون متعلمون ومثقفون، على عكس ما كانت الدعاية الصهيونية ومن يواليها تُشيعُ بأنهم زعماء إرهاب.

لم يجد المبعدون أي عائق أمام التحدث مع أي وفد سواء أكان عربيًا أو غير عربي، فأغلبيتهم متعلمون ومثقفون درسوا العلوم في بلدان مختلفة، وكسبوا معرفة لغتها، وبذلك لم يجد أي زائر أجنبي من أي بلد كان مشكلة في مخاطبة المبعدين والاطلاع على أحوالهم وحمل قضيتهم، والتعرف على ثقافتهم، ومنهج حياتهم.

يقهرون الألم

من صور الحياة الأخرى لأي تجمع بشري، هو الترفيه، وبالنسبة للمبعدين كان الترفيه اليومي في لقاء بعضهم بعضا وممارسة حياتهم، والاحتكاك والتفاعل مع بعضهم بعضًا، ومع المحيط، وأحيانًا المشاركة في الجلسات الثقافية، ولكن ما كان يقوم به الحرس الثوري الإيراني من اصطحاب أعداد من المبعدين وبانتظام عبر حافلاتهم الدبلوماسية لتخطي حواجز الجيش اللبناني، وأخذ مجموعات من المبعدين لمشفى الإمام الخميني في بعلبك من أجل إجراء فحص طبي شامل لهم، ومن ثمَّ اصطحابهم للمواقع الأثرية والتاريخية، وتأمين المبيت والمأكل والمشرب والخدمة لهم في كل ما يحتاجون لمدة أسبوعين، كان كفيلًا بدعمهم نفسيًا، وفك العزلة عنهم.

وكان المبعدون يتمشون على الطريق الرئيس المار بالقرب من المخيم حيث يقضون ساعات من الترفيه والاستجمام على ضفاف ذلك الجدول الذي يمر بالقرب من معسكرهم، وكانوا يتواصلون مع أهاليهم في المحتل من الأرض عبر جهاز تلفون أرضي جاء به الحرس الثوري الإيراني لتمكين المبعدين من التواصل مع أهاليهم والاطمئنان عليهم، فقد علم الشيخ بسام بقدوم طفلته عبر ذلك الاتصال، وسمّاها «زهور»، نسبة لمرج الزهور، وهو ما تكرر مع ابنة

شقيق المبعد صابر جرادات، وقد أُطلق عليها ذات المسمى تيمنًا برمزية هذه التجربة، بالإضافة إلى جهاز تلفون آخر، استأجره المبعدون من إحدى القرى المجاورة.

ومن حيث الحلاقة وتهذيب الشعر والذقون، فقد كان الإيراني (أبو السعيد)، المنتمي للحرس الثوري هو في الغالب من يقوم بهذه المهمة للمبعدين في بعلبك عند زيارتهم للمشفى، بالإضافة إلى وجود عدد من الحلاقين في المخيم، وافتتاح دورة لتعليم الحلاقة لمن أراد.

وفي الجانب المسرحي، قدّم مبعدان، وهما شاكر عمارة ومبعد آخر من بيت لحم مسرحية قصيرة حول الجدل الذي كان دائرًا في المخيم حول آلية عودة المبعدين، فقد كان الناطق الرسمي باسمهم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي يرفض العودة المجزأة، وكان معه الأغلبية، لكن كان هناك من يرى في العودة المجزأة، أي على دفعات أمرًا ممكنًا، فدار هذا الحوار المسرحي بين شاكر عمارة الذي قام بتقمص دور الرنتيسي، وزميله الذي تقمص دور الصحفي بحضور المبعدين والدكتور الرنتيسي نفسه وبعض الصحفيين، فأخذ أحدهم يسأل زميله الذي يمثل شخصية الدكتور الرنتيسي، ويقول:

دكتور رنتيسي: هل يمكن للمبعدين أن يعودوا على دفعات؟

الرنتيسي: لا يمكن، إلا دفعة واحدة.

د. رنتيسي: هل يمكن أن يعود المبعدون في صف خلف بعضهم البعض؟

يجيب الدكتور: لا يمكن أن يعودوا إلّا بصف واحد بجانب بعضهم البعض.

د. رنتيسي: هل يمكن أن يعود المبعدون في باصات؟

يجيب الدكتور الرنتيسي: لا يمكن إلّا بباص واحد.

فانفجر كل المتواجدين لحضور المسرحية من المبعدين والإعلاميين والضيوف، بالضحك بأعلى صوتهم.

فضاء المحيط

في صباح يوم الإبعاد، اقترب من مكان وجود المبعدين راع من الإخوة الشيعة اسمه «عليّ»، فسأل المبعدين: من أنتم؟

فقالوا له: فلسطينيون.

فابتعد بقطيع الأغنام الذي كان يقوده.

فهم المبعدون أن هذا التصرف من ذلك الراعي ناتج عن صورة كانت قد اختمرت في ذهن ذلك الراعي بفعل بعض التصرفات الفردية غير المنضبطة من بعض عناصر قوات الثورة الفلسطينية التي كانت تسيطر على منطقة الجنوب اللبناني قبل غزو جيش الاحتلال للبنان في عام 1982م.

لكن هذا الراعي شيئًا فشيئًا، ويومًا بعد يوم أخذ يقترب من مخيم المبعدين ويحتك بهم بحذر، ويلقى من المبعدين كل احترام وتقدير ومساعدة وتعامل إنساني، فعاد لينسجم معهم، وأصبح يحصل منهم على كثير من العطايا لأولاده ولأسرته، هذا الراعي نال الشهادة بعد أن عاد المبعدون إلى وطنهم إثر قصف طائرة صهيونية قرب منطقة ما كان يسمى الحزام الأمني.

وكان لقصة خلع بعض المبعدين لباب غرفة قريبة من المكان ظنوها مهجورة قرب المعسكر بهدف الاستحمام بها، والاحتماء من البرد، مؤشرًا على التعامل الأخلاقي والإنساني مع المحيط، فقد جاء صاحب تلك الغرفة، وهو درزي يدعى (أبو الوليد) من إحدى القرى المجاورة، يملك مئات رؤوس الماشية، وعنده راعٍ يقوم على خدمتها، جاء إلى مخيم المبعدين، وأخذ يعاتبهم على ما فعلوه، فذهب الشيخ بسام والشيخ هاني ومبعد من بيت لحم اسمه «عجاج» كانت مهنته الحدادة، ذهبوا إلى قرية مرج الزهور، وأحضروا الحديد والأدوات اللازمة، وأصلحوا له باب الغرفة، فسر كثيرًا، وتحدثوا معه، ولما علموا أنه ينتج يوميًا كميات كبيرة من الحليب، أصبحوا يبتاعون كميات كبيرة منها للمبعدين، وبشكل منتظم، كما أنهم كانوا يكرمون الراعي الذي كان يعمل عنده بكل ما في أيديهم من ملابس وأغراض وطعام وحتى بعض النقود.

وفي موسم قطف الزيتون شارك المبعدون في مساعدة أهل المنطقة ومن كافة الطوائف في موسم قطف الزيتون تطوعًا، فاختصر المزارعون الموسم أسبوعين عن الأعوام الفائتة.

وفي مجال التعليم، أخذ سكان بعض القرى يرسلون بعض أبنائهم وأطفالهم إلى مخيم المبعدين لكي يتلقوا دروس التقوية في معظم المواد الدراسية على يد المبعدين بشكل طوعي.

وقد حفر المبعدون في قلوب اللبنانيين في القرى المجاورة ومن كل الطوائف ذكريات جميلة واحترامًا وتقديرًا كبيرين مسح بعض ذكريات الماضي من تصرفات فردية من بعض العناصر غير المنضبطة سابقًا. وقد أكدت تلك الدموع والحزن البالغ الذي تجلى لحظة عودة المبعدين إلى ديارهم، ووداعهم من قبل سكان المنطقة، صدق تلك المشاعر.

وقام المبعدون بإنشاء عيادة لعلاج المبعدين، وسكان القرى المجاورة الذين جاؤوا بشكل متواصل لتلقي العلاج في هذه العيادة، وكانت هذه العيادة ترسل الأطباء إلى قرية مرج الزهور وبعض القرى الأخرى لعلاج كبار السن وغيرهم، وكانت تُصرف لهم الأدوية المتوفرة بكثرة، وكذلك أنشأ المبعدون عيادة لطب الأسنان، قدمت خدمات للمبعدين وغيرهم.

مسيرات العودة

لم يُسَلّمْ المبعدون بالوضع الذي دفعتهم إليه دولة الاحتلال منذ اللحظات الأولى، بل عقدوا العزم على مقاومته وإفشاله، وتحقيق العودة للديار خاصة أن الجانب الإعلامي لقضيتهم العادلة، والجانب السياسي، قد أشْيع ودوّى صداه في كل أنحاء المعمورة، وعمل على إحراج كيان الاحتلال أمام كل العالم، وتعرية ممارساته القمعية، فكان عليهم أن يواكبوا تلك الإنجازات بتحركات قوية ومتواصلة حتى يحصلوا على هدفهم الأعلى وهو العودة، فقرروا وبشكل جماعي منظم ومدروس تنظيم مسيرات أسموها «مسيرات العودة» ينطلقون فيها من مخيمهم «مخيم العودة» في مرج الزهور، إلى معبر «زمريا» على حدود ما يسمى بمنطقة الحزام الأمني، فانطلقت المسيرة الأولى بكل المبعدين، وقبل أن تصل إلى قرب المعبر فتحت الدبابات نيرانها تجاههم، وفي

البداية كان سقوط القذائف على بعد مئة وخمسين مترًا منهم، في حين كان المبعدون يجلسون أرضًا لتفادي القصف، ثم يقفون ويسيرون إلى الأمام، فيعود قصف القذائف باتجاههم، ولمسافة أقرب، وكانت الشظايا والصخور والحجارة تتطاير وتسقط فوق رؤوسهم من وقع الانفجارات، الأمر الذي أدى في إحدى المسيرات إلى إصابة ثلاثة من المبعدين، أحدهم يسمى أمجد زامل، أصابت شظية فكّه الأيسر، ففتحت في وجهه جرحًا غائرًا، كما أصابت مبعدًا آخر في الصدر وهو فتحي القرعاوي، وثالثًا في كوع اليد، نقلوا للعلاج في بلدة «راشيا» المجاورة.

وضعت قوات الاحتلال، أكوام الرمل والتراب أمام المعبر، وزرعت فيها الألغام، والأسلاك الشائكة، وأحضرت قوات كبيرة من المسلحين بأدوات القمع من غاز وهراوات، وسيارات رش المياه الساخنة والعادمة لقمع المبعدين في حال تقدمهم واجتيازهم للمعبر، وكانت أكثر هذه المسيرات طولًا من حيث المدة الزمنية تلك المسماة «مسيرة الأكفان» التي انطلق فيها المبعدون، وهم يرتدون الأكفان على أجسادهم، تأكيدًا وتصميمًا على قرارهم بالعودة للوطن، وعدم العودة إلى مخيم مرج الزهور، وعندما شرعت مدفعية الاحتلال وعملائه بالقصف جلسوا أرضًا على بعد نحو خمسين مترًا من المعبر، وبقوا هناك سبعة أيام، حيث كان الحرس الثوري الإيراني يمدهم بوجبات الطعام، وهم معتصمون، حتى شهد اليوم السابع حالة جوية غير معتادة، حين أمطرت السماء مطرًا غزيرًا بالرغم من أن هذه المسيرة كانت في شهر مايو (أيار) من ذلك العام، فعادوا بفعل المطر غير المتوقع إلى مخيمهم في مرج الزهور.

الوردة الحمراء

كان الشيخ بسام على قدرٍ مميز من الثقافة والاطلاع والمتابعة فيما يخص تاريخ الثورة الإسلامية الإيرانية؛ الأمر الذي كان يترجم بحضور الشيخ لمعظم جلسات أمير مبعدي الجهاد وقتها الشيخ عبد الله الشامي مع الوفود الإيرانية خاصة مسؤول الحرس الثوري في لبنان الحاج رمضان، ومدير مشفى الإمام الخميني، وباقي الوفود الإيرانية، فكان الشيخ الشامي يرسل لإحضار الشيخ بسام ليشاركه اللقاء بهم، ويقول أحضروا خبير الشؤون الإيرانية، فالشيخ بسام كان قد قرأ عدة كتب عن الثورة الإسلامية ومنها كتاب «مدافع آيات الله» لمحمد حسنين هيكل،

و»إيران من الداخل» لفهمي هويدي، و»الثورة الإسلامية « لإبراهيم دسوقي شتا، وغيرها من الكتب المتنوعة، بالإضافة إلى متابعته أخبار الثورة الإسلامية يومًا بيوم، وكان يحدث الإيرانيين عن بعض محطات الثورة، وقد سأل الشيخ بسام ذات مرة مدير مشفى الإمام الخميني في بعلبك الذي كان في زيارة للمبعدين:

هل تعلم كيف تزوج الإمام الخميني؟

فرد مدير المشفى: حقيقة، لا أعرف.

فقال الشيخ بسام: جاء الإمام الخميني لخطبة فتاة من قريتهم، لكنها رفضت وتمنعت في البداية؛ لأنها كانت تتطلع للزواج في المدينة، وأن لا ترتبط بشاب من الريف، فنامت، وشاهدت في المنام رؤيا تتمثل في وجود ثلاثة رجال وامرأة، كلهم يلبسون الأبيض يقفون أمامها ويرمقونها بنظرات عدم الرضا، فسألتهم:

من أنتم؟ ولماذا تتجهمون في وجهي؟

فرد أكبرهم فقال: أنا الإمام عليّ، وهذان أولادي الحسن والحسين، وهذه زوجتي فاطمة، نحن غير راضين عنك؛ لأنّك رفضت ولدنا الإمام روح الله الخميني.

فاستفاقت من النوم، وقررت الموافقة على الإمام، وتزوجته فعلًا بعد هذه الرؤيا.

فضحك مدير المشفى ومن معه وقالوا: حقيقة، نحن لا نعرف هذه القصة، وكأنّك أكثر معرفة بتاريخنا منا.

كما كان الشيخ بسام يدعو من خلال الالتقاء بهم إلى توحيد كل الجهود التي تمتلكها الأمة، ونبذ الخلافات الشيعية السنية جانبًا، فما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا، وعلينا توحيد الأمة للتصدي للمخاطر التي تواجهنا، خاصة أن عدونا واحد، وأهدافنا واحدة، وقال ذات يوم للحاج رمضان مازحًا:

إذا كان الاتفاق بيننا على حتمية ظهور الإمام المهدي فلنؤجل مسألة ما إذا كان قد اختفى أو

لم يختف، ونسأله عندما يظهر، فإذا كان مختفيًا، فهو يؤكد قول الشيعة، وإذا كان غير مختف، فهو يؤكد قول السنة، ولكن لا نبقى في جدل يضعفنا، ويمزقنا أمام تكالب الأعداء، فضحك الحاج رمضان عندما سمع هذا القول.

هذا الموقف الذي كان وما زال الشيخ بسام يتبناه قناعة وسيرًا على منهاج القائد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي وخليفته المرحوم الدكتور رمضان عبد الله شلّح والقائد الحالي للحركة الأستاذ زياد النخالة؛ يأتي كموقف وسط أو رأي ثالث بين حالة من الانقسام تصيب قسمًا واسعًا من الأمة الإسلامية في الشحناء والجدال الدائر بين الشيعة والسنة، والذي وصل في بعض الأماكن من جغرافيا بلاد المسلمين حدّ التناحر، تلك الضجة المفتعلة التي أشار إليها الدكتور فتحي الشقاقي في كُتيبه الشهير «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة ومؤسفة» قُصد من افتعالها تأجيج الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة بهدف تمزيق الأمة ومنع وحدتها ونهوضها.

كان الشيخ بسام وما زال يتبنى موقفا ثالثًا بين الموقفين، وهو أن كونك سنيًّا لا يعني ذلك أن تتنكر لكل ما هو إيجابيّ ووحدويّ عند الشيعة، والعكس صحيح، بمعنى كونك شيعيًّا لا يحق لك أن تتنكر لكل ما هو إيجابي ووحدوي عند السنة، فالأصل هو جمع الفضائل في كل المذاهب الإسلامية والسير في طريق الكتاب والسنة المحمدية، وهو من أكثر المؤيدين للحوار بين المذاهب الإسلامية التي تدفع لنبذ كل الخلافات جانبًا، والتمسك بالوحدة الإسلامية الصلبة، وتفويت الفرصة على الأعداء المتربصين بالأمة؛ من أجل الإبقاء عليها في ظلام الجهل والتخلف، والحيلولة دون نهوضها وتصديها للمشاريع الصهيوأمريكية والغربية التي لا تنام خوفًا من انبعاث مارد الإسلام العظيم.

ثم عادوا

في تاريخ الثامن عشر من ديسمبر (كانون أول) من عام 1992م؛ اتخذ مجلس الأمن الدولي قرارًا يحمل الرقم «799» يدين بشدة إبعاد قوات الاحتلال الصهيوني لمئات المدنيين الفلسطينيين؛ الأمر الذي شكّل مع ثبات المبعدين وصمودهم وتحركهم، والإدارة الواعية من قبل المبعدين

أنفسهم، وفضح الاحتلال وتعريته أمام العالم؛ شكّل رأس الخيط للعودة، مبدئيًا وافقت حكومة الاحتلال على نقاش مسألة العودة نتيجة الضغط الهائل الذي تعرضت له، والذي كان وقوده الأساس المبعدون أنفسهم، فكان الاقتراح بأن يعود المبعدون خلال عام، وعلى أربع دفعات، لكن المبعدين رفضوا ذلك، وفي شهر سبتمبر (أيلول)، أي بعد تسعة أشهر على الإبعاد، استفتى المبعدون أنفسهم، ووافقوا على العودة على دفعتين، فقامت دولة الاحتلال بإعادة نصفهم في التاسع من سبتمبر (أيلول) من عام 1993م، في حين عاد الباقون في السابع عشر من ديسمبر (كانون أول) من نفس العام، في حين رفض العودة نحو تسعة عشر مبعدًا تحسبًا من الاعتقال لفترات طويلة، وعاد منهم ستة عشر بعد أربعين يومًا من الإبعاد لأسباب مرضية.

وكان الشيخ بسام من ضمن الدفعة الثانية، حيث تحركت بهم الحافلات من معبر «زمريا»، ودخلت إلى فلسطين المحتلة، وسارت عبر طريق الجولان والأغوار الشمالية، بعد أن رشق المستوطنون الحافلات التي تقلهم احتجاجًا على إعادتهم، وجرى تحويلهم إلى سجن الفارعة الذي خرج ضباطه وجنوده لمشاهدتهم، وقد أمضوا في سجن الفارعة أربعة أيام بقصد إحباط نشوة الفرح بهذا الانتصار، وقد أفرج عنهم بتاريخ الحادي والعشرين من ديسمبر (كانون أول) في قافلة من الحافلات والسيارات توجهت بهم ليلًا لمدينة نابلس، وأنزلت مبعدي محافظة نابلس ومدينتها وسط حشود آلاف المستقبلين من زعماء وجماهير، ثم ذهبت القوافل إلى طولكرم لنفس الغرض، ثم إلى جنين، والتي وصلتها بعد منتصف الليل.

فصل جديد

بعد انتهاء رحلة الإبعاد القاسية والمريرة بالنصر الذي تمثل في إسقاط هذه السياسة التي كانت سلطات الاحتلال الصهيوني تنتهجها منذ عام 1967م؛ عاد الشيخ بسام إلى مخيم جنين ليمارس عمله مع والده في معمل الطوب والتجارة بمواد البناء من جهة، لكنه لم يغفل الدور الاجتماعي والخيري والدعوي والإصلاحي من جهة أخرى، مضيفًا نوعًا جديدًا من الخدمة، هذه المرة لأسر الشهداء عامة، عندما شرع في جمع قوائم أسماء الشهداء في محافظة جنين وبياناتهم

من أجل إيصالها إلى مؤسسة «الشهيد» في لبنان، والتي طلبت منه ذلك أثناء وجوده في مرج الزهور، من أجل تبني هذه الأسر، ودفع المال لهم بشكل مباشر، عبر تحويلات على أرقام حسابات ذويهم، الأمر الذي تطور لاحقًا ليكون عبر مؤسسة نظمت هذه الأمور في داخل فلسطين، وأوصلت تلك الأموال لفترة طويلة لجميع الشهداء القدامى، والذين ارتقوا لاحقًا، يشاركه في هذا الجهد الشيخ هاني جرادات.

لم تترك سلطات الاحتلال المبعدين بعد عودتهم، بل ركزت عليهم متابعة ومراقبة، وهنا لابد من الإشارة إلى حادثتين؛ الأولى في يوم من أيام العيد، عندما اتصل موظف «السنترال» (أبو ذر) الذي كان مكلفًا من قبل الحرس الثوري الإيراني بتنظيم الاتصالات بين المبعدين وأهليهم، اتصل بالرقم الذي كان يتصل عليه الشيخ بسام من مرج الزهور، وهو رقم شقيقه غسان، بقصد معايدته والاطمئنان عليه، فدار حديث بينهما، تخلله سؤال الشيخ بسام عن الحاج رمضان، فقال له أبو ذر:

إنه بجانبي، أتريد أن تتحدث إليه؟

فرد الشيخ بسام: لا مانع.

فجرى حديث عادي بينهما، جلّه في الاطمئنان وتبادل التحيات والسلامات، ثم سرعان ما انتهت المكالمة.

في اليوم التالي، وبعد عودة بسام وغسان للعمل في معمل والدهم، غسان في مكتب الإدارة، وبسام يسقي قوالب حجارة البناء الطرية بالماء، دخلت سيارة من نوع «فولكس فاغن دبل كبينا»، تحمل في صندوقها مواد بناء، وبداخلها عدد من الرجال سرعان ما توجهوا للمكتب، فظن كل من الشيخ بسام وغسان أنهم مقاولون جاؤوا لشراء كميات كبيرة من الطوب، لكن الظن كان خاطئًا، فما أن تعرفوا على غسان الذي ذهب للتحدث معهم، حتى أشهروا في وجهه المسدسات، وأبلغوه أنهم من جيش الاحتلال، وأنه معتقل، وعليه ألّا يقوم بأية حركة.

شاهد الشيخ بسام من بعيد تلك الحركات من قبل أولئك الأشخاص، فظن أنه شجار،

وأنهم جماعة جاؤوا للاعتداء على شقيقه، لكنه عندما اقترب لاحظ الأسلحة بأيديهم، وأنهم قيدوا شقيقه، وزجّوا به في السيارة أدرك أنهم وحدات خاصة مستعربة.

قال لهم غسان: هل أنتم متأكدون أنني أنا المطلوب؟

قالوا له: نعم.

سألوه: من هذا المقبل علينا؟

قال: هذا أخي الذي عاد قبل مدة من مرج الزهور.

دفعوه وطالبوه بالصمت.

اعتقل غسان أربعة أشهر إداري على خلفية تلك المكالمة ظنًا من الاحتلال أن الذي تحدث مع الحاج رمضان هو غسان وليس شقيقه بسام.

الحادثة الثانية: الاعتقال الإداري للشيخ بسام، والذي كان لمدة سبعة وستين يومًا في سجن النقب، القسم المسمى «الكيلو سبعة»، والذي جاء بعد قيام كتائب القسام بتنفيذ عمليتين استشهاديتين، أولاهما في العفولة، قام بها الشهيد رائد زكارنة من بلدة قباطية بتاريخ 06/ 04/ 1994م، والعملية الثانية كانت بتاريخ 13/ 04/ 1994م أي بعد أسبوع من العملية الأولى، والتي نفذها الشهيد عمار عمارنة من بلدة يعبد في مدينة الخضيرة، فقامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقالات في صفوف المحسوبين على حركتيّ الجهاد وحماس، كان من بينهم الشيخ بسام.

في ذلك القسم من سجن النقب، كان هناك قيادات نافذة في حركة الجهاد الإسلامي من قطاع غزة، منهم الدكتور محمد الهندي والشيخ نافذ عزام والإعلامي عدنان أبو حسنة، وفور علمهم بوجود الشيخ بسام في ذلك السجن، أرسلوا له ليأتي لزيارتهم، وفعلًا حصلت الزيارة، والتقى بهم، ولمس منهم الترحاب الكبير وحسن الضيافة، والشوق لمعرفة أخبار القائد الدكتور فتحي الشقاقي، وما دار معه من حديث عندما التقاه أكثر من مرة خلال الإبعاد.

وعـرض الإعلامـي عدنـان أبـو حسـنة الـذي كان يديـر هـو والشـهيد هـاني عابـد جريـدة «الاستقلال» في غـزة، عـلى الشـيخ بسـام أن يعمـل معـه في الإعـلام مـن خـلال تشـكيل طاقـم إعلامـي برئاسـته في جنـين، وفتـح مكتـب صحـافي لتزويـد جريـدة «الاسـتقلال» بالأخبـار والتقاريـر، أعجـب الشـيخ بسـام بالعـرض، لكنـه اعتـذر؛ لأنـه ليـس في وسـعه أن يكـون مـن ضمـن هكـذا طاقـم؛ كونـه منشـغلًا في تسـيير أعـمال والـده في المخيـم، والمتمثلـة بالإتجـار بمـواد البنـاء، لكنـه وعـد أبـا حسـنة بـأن يتحـدث مـع إعلامـي متمـرس قريـب مـن الحركـة، وهـو جديـر بـإدارة المكتـب الإعلامـي، فرحـب أبـو حسـنة بالأمـر، وطلـب مـن الشـيخ بسـام أن يتواصـل مـع ذلـك الإعلامـي بعـد أن يخـرج الشـيخ بسـام مـن الاعتقـال، وفعـلًا جـرى ذلـك لاحقًـا، ففتـح مكتـب صحفـي في جنـين تحـت مسـمى «مكتـب الـسراج»، وقـدم خدمـات إعلاميـة لجريـدة «الاسـتقلال» لمـدة قاربـت السـنتين.

في عام 1995م، ظهر تعاطف لدى بعض الشباب الصاعد في جنين ومخيمها، مع حركة الجهاد الإسلامي، فسرعان ما جرى صهرهم في العمل الاجتماعي والدعوي والتنظيمي، لكن بعضهم اعتقل ونقل لأقبية التحقيق، فكانت هذه الطليعة الصاعدة الجديدة من شبان المخيم المتعلقة بنهج حركة الجهاد؛ أول منابت الصبر، وأول طلائع الرهان الذي جاء بعد المرحلة الأولى من المحاولة، فتمت متابعة شؤونهم من حيث تكليف محام ليتابع قضاياهم، وتقديم المساعدات المالية والعينية لذويهم في المخيم.

وذات يوم، وقبل تنفيذ إعادة الانتشار في مدينة جنين بسبعة وعشرين يومًا؛ نقل محامي المعتقلين لائحة اتهام تفيد بأن أحدهم قد اعترف أمام المحققين أن من نظّمه للحركة هو الشيخ بسام، فجاء المحامي للإعلامي الذي كان يدير مكتب السراج، ويعمل مراسلًا لجريدة «الاستقلال» في مناطق شمال الضفة، وأبلغه أن يبلغ ذلك للشيخ بسام ليأخذ حذره، وكان الوقت قد اقترب من ساعات المساء، ولم يتأخر الصحفي في التوجه إلى الشيخ بسام بعد مغيب الشمس الذي كان في بيت شقيقه غسان وأبلغه بالأمر من منطلق أخذ الحيطة والحذر، وكان ذلك في شهر أكتوبر (تشرين أول) من عام 1995م.

في نفس الليلة، لم يبت الشيخ بسام في منزله، بل توقع أن تداهم قوات الاحتلال بيته وتعتقله، فبات في مكان آخر، ليحدث ما توقع، فقد داهمت تسع سيارات عسكرية المخيم، وطوقت منزله لاعتقاله، فلم يجدوه، فتشوا البيت وعبثوا بمحتوياته، وصادروا محفظة الصور الخاصة بمرج الزهور والتي كانت تحوي أكثر من ثمانين صورة تحمل ذكريات تلك التجربة القاسية، منها صور مع قادة إسلاميين وقوميين ومناصرين عرب ومسلمين وأجانب، ومنها صور له مع زملائه المبعدين أيضًا، وقد تمكن الشيخ بسام من الاختفاء حتى أعيد الانتشار في جنين فخرج من مخبئه، لكنه لم يغادر حدود المدينة.

وقبل عملية إعادة الانتشار في جنين، وعندما كان الشيخ بسام مطاردًا، وفي يوم الخميس الموافق للسادس والعشرين من أكتوبر (تشرين أول) من العام 1995م، أقدم جهاز الموساد

الصهيوني على اغتيال الشهيد القائد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي في مدينة «سليما» في جزيرة مالطا، حيث كان الشهيد الشقاقي عائدًا من ليبيا إلى دمشق مرورًا بجزيرة مالطا؛ بعد لقاء مع الزعيم الليبي معمر القذافي لبحث مسألة طرد الجالية الفلسطينية في ليبيا بعد توقيع اتفاقية أوسلو، وكان يحمل جواز سفر باسم «إبراهيم الشاويش»، وأثناء عودته إلى الفندق الذي كان يبيت فيه، قام عنصران من الموساد يركبان دراجة نارية بالاقتراب منه، وأطلق أحدهما ثلاث رصاصات على رأس الشهيد الشقاقي، ارتقى على إثرها شهيدًا، وقد شيّع جثمانه الطاهر في الأول من شهر نوفمبر (تشرين ثان) في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك قرب دمشق في جنازة مهيبة.

قرار الاغتيال هذا اتخذه رئيس الحكومة الصهيوني آنذاك «إسحاق رابين»، بعد عملية بيت ليد الاستشهادية والتي نفذها الشهيدان أنور سكر وصلاح شاكر بتاريخ 22/ 01/ 1995م، وأسفرت عن مقتل اثنين وعشرين جنديًا صهيونيًا وجرح نحو سبعين منهم، وقد مات أحد الجرحى بعد ثماني سنوات من شدة الإصابة، في عملية اعتبرت الأكبر، والتي طالت هدفًا عسكريًا خالصًا في فلسطين المحتلة.

كان لوقع ارتقاء القائد المؤسس الأثر الكبير على نفسية الشيخ بسام، فبكاه بكاء مرًا، واستعرض بصمت ذكرياته مع حامل الشعلة، ومفجّر الفكرة، بكاه بقهر وحب، بكاه بشعور الخاسر لتلك القامة، لكنه كان يدرك أن الشهادة لهذا القائد ستكون طاقة كبيرة لشحن المسيرة الجهادية لهذا الدرب حتى تحقيق الهدف.

وقف الشيخ بسام ليلتها على شباك تلك الغرفة من البيت الذي يختبئ به في المخيم، يتذكر شريط الذكريات، ويتمنى لو كان بمقدوره أن يفعل شيئًا، من أجل هذه القامة، كان الوقت قد بلغ منتصف الليل، وإذ ذاك سمع صوت أقدام حذرة تتنقل في أزقة المخيم، خالطته الريبة والشك في أن يكونوا جنود الاحتلال، لكنهم كانوا ثلة من الشبان الملثمين يخطّون شعارات تنعى الشهيد القائد وهو ينظر إليهم، يراهم ولا يرونه، فشعر بشيء من تخفيف الألم، فهذا جزء من حصاده الذي يلبي رغبته، ويشفي شيئًا من غليله، ويهدهدُ بعضًا من حزنه.

ولم يتأخر الرد الرباني على اغتيال الشقاقي، فبعد أيام معدودة من دفن القائد المؤسس؛ اغتال «إيجال عمير» رئيس حكومة الكيان الصهيوني (إسحاق رابين)، كما أنه وخلال عامين لقي منفذا عملية الاغتيال (أي عنصرا الموساد) حتفهما بطريقة بشعة كما أفاد الإعلام العبري.

لم ينتهِ الأمر بإعادة الانتشار، بل بقيَ التركيز على متابعة تحركات الشيخ بسام من قبل جهاز الشاباك الصهيوني وعملائه حاضرًا، فقد أبلغ جهاز الأمن الوقائي الشيخ بسام أكثر من مرة، أن العديد من العملاء أفادوا خلال التحقيق معهم أنهم كُلفوا بمراقبته ومتابعته بهدف اعتقاله من قبل وحدات خاصة، وأن أحد العملاء قدم اقتراحات لجهاز «الشاباك» من أجل تنفيذ تلك المهمة.

كما أن صور الشيخ بسام كانت منتشرة على الحواجز، وفي سيارات قوى الأمن الصهيونية، فذات يوم قام أحد الشبان بسرقة سيارة صهيونية من الداخل المحتل، وأحضرها لمخيم جنين، وكانت بالصدفة لضابط مخابرات صهيوني فلما فتشها، وجد فيها صورة للشيخ بسام من بين تلك الصور التي كانت بالمحفظة التي تمت مصادرتها سابقًا، فقام بإعادتها للشيخ بسام.

جمعية الإحسان

كان لجمعية الإحسان دورٌ كبيرٌ في تنظيم العمل الاجتماعي بشكل أفضل، حيث ساهمت ورعت حلقات القرآن الكريم في مساجد المدينة والمخيم وقرى المحافظة، وقد وصل عددها إلى اثنتين وثلاثين حلقة للذكور والإناث، وتعود فكرة إنشاء تلك الجمعية للأخ شريف طحاينة، وقد عرض عليّ الأمر فوافقت كوني صاحب خبرة في العمل الاجتماعي والزكاة والصدقات، مما جعل الجمعية فاعلة من اللحظات الأولى، وقامت بدور مهم في دعم الفقراء والمحتاجين، وكذلك توزيع المواد التموينية والحقائب والقرطاسية على الطلاب الفقراء، وشكّلت نقطة التقاء للكثير من المجاهدين الذين توثقت بينهم الروابط أكثر.

ولا ننسى دور الاتحاد الطلابي في جنين، وكذلك جمعية البراء للفتاة المسلمة التي كانت ترأسها الأخت المجاهدة منى قعدان، كذلك مركز الدراسات والإعلام الذي أداره الدكتور عماد

أبو الحسن، وقد جاءت فكرة هذه المؤسسات من الشهيد القائد المفكر نعمان طحاينة والأستاذ المجاهد محمد فارس جرادات (أبو مؤمن).

قيْد الأشقاء

بعد سبعين يومًا من حادثة اغتيال الشهيد المؤسس الدكتور فتحي الشقاقي، اغتيل القائد القسامي يحيى عياش بتاريخ الخامس من يناير (كانون الثاني) من العام 1996م، فازداد الغضب الفلسطيني، وقامت كلٌّ من حركتيّ الجهاد الإسلامي وحماس بتنفيذ سلسلة عمليات استشهادية في تل أبيب والقدس وعسقلان، هذه العمليات المتلاحقة والقاسية بالنسبة للعدو الصهيوني، شكلت مأزقًا للسلطة الفلسطينية ومشروعها السياسي، فقامت بحملة اعتقالات طالت المئات من حماس والجهاد في المناطق التابعة لها، منها جنين، حيث اعتقلت نحو مائة وخمسة أشخاص، من بينهم الشيخ بسام، الذي أمضى في سجونها خمسة أشهر.

يصف الشيخ بسام ذلك الاعتقال بأنه لم يكن شديدًا، فقد سمح لنا بعد مدة من الاعتقال بالخروج إلى البيت نهارًا، والمبيت ليلًا في المعتقل، كما كان يسمح لنا بالخروج عند الحاجة، وعند المرض، وعند الفرح، وعند العزاء، وقد تكونت علاقة حسنة مع قيادات السلطة الفلسطينية وعناصرها بفعل حسن تصرفنا حيث كانت السلطة الوطنية حديثة الوجود، ولم يكن هناك تراكم لأحداث ومواقف معها.

وأثناء وجود الشيخ بسام رهن الاعتقال والحجز لدى السلطة؛ تمكن الأسير البطل الشهيد صالح طحاينة الذي كان يقضي حكمًا طويلًا في سجون الاحتلال مدته اثنان وثلاثون عامًا، على خلفية عضويته في مجموعات «عشاق الشهادة» التي قادها الشهيد القائد عصام براهمة، وتنفيذ عدد من العمليات العسكرية، تمكن بالتعاون مع الأسير نعمان طحاينة من الفرار من السجن بطريقة ذكية ومعقدة، ملخصها أن كلا الأسيرين كانا معتقلين في نفس القسم، وفي نفس الغرفة في سجن جنيد المركزي قرب نابلس، ولما اقترب موعد تسليم مدينة نابلس للسلطة، وإخلاء مقرات قوات الاحتلال ومنها سجن جنيد، قامت إدارة سجن جنيد بنقل الأسرى ذوي الأحكام

العالية إلى السجون المركزية، والأسرى أصحاب الأحكام الخفيفة والمتوسطة إلى سجن النقب.

وقتها لم يكن التدقيق الذي تقوم به إدارة السجون عند التنقلات يشمل صورة الأسير، فتبادل صالح ونعمان الأسماء، وخرج صالح على أساس أنه نعمان إلى سجن النقب، ليقضي ما تبقى من أشهر اعتقاله لنعمان، في حين خرج نعمان على أساس أنه صالح إلى السجون المركزية، وبعد عدة أسابيع، وخشية أن تكتشف إدارة السجون خطّتهما؛ قام صالح بالاتفاق مع أسير آخر من سيلة الحارثية اسمه عامر زيود، ينتظر الإفراج عنه، فاتفق معه على الخروج مكانه، وفعلًا تمكن من مغادرة سجن النقب على اسم عامر في ساعات الظهيرة، في حين انتظر عامر حتى ساعات الغروب ليضمن تمكن صالح من الإفلات، وطالب بالإفراج عنه.

ولما اكتشفت الإدارة ما جرى، أيقنت أنها وقعت في شَرَكِ حُبِكَ بطريقة ذكية من قبل أسرى الجهاد الإسلامي وخصوصًا نعمان وصالح، تمكن خلاله أسير من ذوي الأحكام العالية من الفرار، فزج بنعمان وعامر في الزنازين لمدة أربعة عشر يومًا، تعرضا خلالها للتحقيق، فأنكرا أي علاقة لهما بأي تآمر، بل رميا بكل ما جرى على إجراءات الإدارة، وفي النهاية أضافت إدارة السجون مدة إضافية من الاعتقال بحق نعمان.

أما صالح الذي كان لا يزال مسكونًا بعشق الشهادة، فلم يعد إلى بيته، بطبيعة الحال، بل أراد مواصلة الدرب الذي بدأه منذ نعومة أظفاره، فجُنّ جنون قيادة الاحتلال التي أيقنت أنصالح قنبلة موقوتة، قد ينشطر عنها قنابل أخرى كثيرة، وقد يعمد إلى تنظيم العشرات من التواقين للعمل الجهادي خاصة في ظل تلك الفترة الساخنة التي كانت سائدة آنذاك، هنا بدأت دولة الاحتلال بممارسة الضغط على السلطة الفلسطينية من أجل منع صالح من تحقيق أهدافه، فتوجه العقيد وجيه أبو غريبة نائب قائد منطقة جنين إلى الشيخ بسام بحضور العقيد نايف سويطات من دائرة التوجيه السياسي والمعنوي، فأبلغ الشيخ بسام أن المحتلين يبحثون عن صالح، وأنهم قد يغتالونه في أي لحظة، وقدما للشيخ اقتراحًا بأن يُسلّم صالح نفسه لأجهزة السلطة من أجل تأمين حمايته، فرد الشيخ بسام، قائلًا:

لقد غضبت لأنه لم يأتِ عندي لكوني من أقرب الناس إليه، لكنه رجل عنيد، ولا أعتقد أن يقبل بأن يسلم نفسه. وبعد فترة ليست بالطويلة، جاء العقيد أحمد السلهوب مدير جهاز الأمن الوقائي في منطقة جنين، وقال:

إن العقيد جبريل الرجوب الذي كان رئيس جهاز الأمن الوقائي في الضفة مستعد لأن يأتي إليك ويكلمك في مسألة إقناع صالح ليقوم بتسليم نفسه، لتتم حمايته ولمنع اغتياله، فأجابه الشيخ بنفس ما أجاب العقيد أبو غربية، وأضاف:

لا أعرف أين هو، وحتى لو وصلت إليه، هذا الرجل مبدئي وعنيد، ومن مؤسسي التنظيم، ولو كان يريد تسليم نفسه ما هرب من السجن.

وقد اغتيل الشهيد صالح بعد أسابيع من المطاردة المكثّفة في الشقة التي كان يختبئ فيها في رام الله على يد الوحدات الخاصة الصهيونية وعملائها.

وبعد خروج الشيخ بسام من سجن السلطة، عاد للعمل الخيري والدعوي وتوزيع أموال الزكاة والصدقات وإصلاح ذات البيّن، كل هذه الأعمال لم تتوقف في حياته حتى هذا الوقت، وقد تزامن خروجه من سجن السلطة مع خروج بعض كوادر الحركة من السجون الصهيونية مثل إياد الحردان، وأنور حمران، ومحمد فارس جرادات، وعبد الحليم عز الدين، ونعمان طحاينة، وسفيان العارضة، وشريف طحاينة، وخالد زكارنة، وغيرهم مما أدى إلى تعزيز وجود الحركة في محافظة جنين، وقد دفعت فعاليات أولئك الشبان لأن يصبح بعضهم مطلوبًا للاحتلال، وقد لجؤوا إلى مدينة جنين المصنّفة منطقة (أ)؛ ليكونوا في مأمن من الاعتقال على يد سلطات الاحتلال.

تواصل الشيخ بسام معهم، وافتتحوا مؤسسة بإدارة أنور حمران، وسميّت «مؤسسة السبيل» تعنى بالخدمات العامة، وقاموا بإنشاء مؤسسات أخرى تابعة للحركة، مثل روضة أطفال في الحي الشرقي من المدينة، ونادٍ رياضي جرى استئجاره من صاحبه بقصد إيجاد متنفس رياضي لشباب الحركة وغيرهم من الشبان، وكذلك تشكيل فريق رياضي للأشبال، كما نُظّمَ خلال تلك الفترة أول مؤتمر للحركة في محافظة جنين في قاعة ذلك النادي، حضره أكثر من عشرين كادرًا،

ونوقشت خلاله العديد من القضايا التي تهم الحركة، وضرورة تفعيل العمل الدعوي، والأنشطة الثقافية، وتوسيع قاعدة التنظيم وفق أسس مدروسة.

وبعد عملية استشهادية في منطقة القدس في 6 نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1998م، من قبل شابين الأول من سيلة الحارثية هو سليمان طحاينة والثاني يوسف الزغير من منطقة القدس، وهما من عناصر الجهاز العسكري للحركة؛ قامت أجهزة السلطة الفلسطينية بحملة اعتقالات في صفوف كوادر الحركة، خاصة في محافظة جنين، كان من بينهم إياد الحردان، ونعمان طحاينة، ومحمد فارس جرادات، وشريف طحاينة، وأنور حمران، وسفيان العارضة، وفوزي السعدي، وخالد زكارنة، وقد مكث هؤلاء في سجن جنين لفترة زادت على عام ونصف، ثم رُحِّلَ بعضهم إلى سجن جنيد، بقي أغلبهم فيه حتى اندلاع انتفاضة الأقصى.

وخلال وجود أولئك الشبان في سجن جنين، لم يقاطعهم الشيخ، بل تواصل معهم باستمرار، فكان لا يرفض لهم طلبًا، ولا يتوانى عن تلبية دعوتهم، ويرسل لهم الطعام الذي كانوا يطلبونه، خاصة وأن بيوت أهاليهم بعيدة نسبيًا عن مكان اعتقالهم، فكانت تصنعه زوجته أم إبراهيم، ويرسل ما يحتاجون بواسطة ابنيه التوأم إبراهيم وعبد الكريم ولم يتجاوز سنهما الثانية عشرة، وكانا يحتكّان بهم ويجالسانهم، ويستمعان لتوجيهاتهم ونصائحهم ودروسهم وإرشاداتهم، ما كان له الأثر البالغ على وعيهما.

كما تعرض الشيخ خلال فترة اعتقال أولئك الشباب المجاهدين للاعتقال الاحترازي من قبل أجهزة السلطة، عندما اقترب موعد ما يسمى انتخابات «الكنيست» في شهر مايو (أيار) من العام 1999م، استمر لمدة أسبوع حتى انقضت الانتخابات بفوز «إيهود براك».

رحيل السند

في تاريخ السادس من يناير (كانون الثاني) من عام 1999م؛ توفي الحاج راغب عبد الرحمن السعدي، وهو العامل المساعد الأول في زرع هذا التوجه في حياة الشيخ بسام عندما كان

في مرحلتيّ الطفولة والصبا، وحتى دوام تقديم النصيحة والتجربة في سن الشباب في كل مناحي الحياة، وفي انتفاضة الحجارة كان للوالد الأثر الكبير خلال فترة المطاردة الطويلة؛ فقد كان يشكل سندًا وعمقًا، وذلك للدعم المعنوي والمادي الذي كان يؤمنه له خلال تلك المطاردة وما قبلها وما بعدها، فقد دفع له أجرة البيت الذي كان يستأجره لعائلته لمدة سبع سنوات، وكان ينفق على عائلته التي كانت مكونة من ستة أفراد، ويقدم لهم راتبًا شهريًا، بالإضافة إلى مصروفه الشخصي وقت المطاردة، حيث إن التنظيم _وقتها_ لم يكن بمقدوره تغطية نفقات المطاردين بعد، وكذلك كان يدفع مصروف عائلات أشقائه الثلاثة الذين كانوا قيد الاعتقال في سجون الاحتلال، وهم جمال وغسان وأحمد، وكان يدفع لابنه بسام مبلغًا لدعم فعاليات الحركة، يتراوح بين خمسين إلى مائة دينار أردني شهريًا، وكان الشيخ يجمع مبالغ لدعم صندوق الحركة من أمه وإخوانه وأخواته وزوجات إخوانه ومعارفه، وكذلك كان يفعل معظم شباب الحركة، فضلًا عن التبرعات التي كان يجمعها الشيخ.

وكان والده يتبرع بالطوب ومواد البناء ونقلها للبيوت التي يهدمها الاحتلال في أكثر من مكان، وأثناء مطاردته، داهمت قوات الاحتلال مصنع الطوب الذي كان الوالد يملكه، وصادرت رافعة المصنع «المزليق» والجرار وتنك المياه والسيارة الصغيرة التي كانوا يملكونها، وكذلك اعتقلت شقيقه (أبو ربيع)، وذلك للضغط على الوالد من أجل تسليم ابنه الشيخ بسام، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هددت سلطات الاحتلال بجرف المصنع وتدميره، لكن والده رفض بشدة، فتدخل الصليب الأحمر، فأعاد الآليات المصادرة والسيارة بعد أحد عشر يومًا من الاحتجاز.

بعد عودة الشيخ بسام من مرج الزهور؛ كان والده قد وصل سنّ الاثنتين والسبعين عامًا، فشعر بتراجع في صحته، خاصة وأنه كان مريضًا بالسكري والضغط، وتفاقم مرضه في عام 1997م عندما اكتشف الأطباء أنه يعاني من تليّف في الرئة، مع أنه ترك التدخين منذ خمسة وعشرين عامًا.

قام أبناء الحاج راغب بنقله لمشفى المطلع في القدس، والمشفى الفرنسي في الناصرة، وعرضوه على أشهر الأطباء المختصين بالمرض المذكور، لكن جميع الأطباء قالوا إن هذا المرض مزمن لا يمكن الشفاء منه، ولا علاج له.

كان والـده أحيانًـا يطلـب مرافقـة الشـيخ بسـام إلى بعـض الأسر المحتاجـة خاصـة في رمضـان ليقـدم لهـم الصدقـات مـن مالـه الخـاص أو مـن الـزكاة الواجبـة عليـه، عنـد اشـتداد مرضـه، كان يطلـب منـه إحضـار بعـض الفقـراء ممـن تربطـه بهـم علاقـات قديمـة لكـي يتفقـد أحوالهـم ويقـدم لهـم مـن مالـه، ويجهـش بالبـكاء عندمـا كان يـرى بينهـم أحـد أعزّائـه.

في الشـهور الأخـيرة مـن عـام 1998م، تراجعـت حالتـه الصحيـة بشـكل لافـت، وأصبحـوا يتناوبـون عـلى خدمتـه، وكان الشـيخ يحـضر إليـه يوميًـا؛ لـيراه ويخفف عنـه، ويخدمـه، وفي ليلة السـادس مـن ينايـر (كانـون الثـاني) مـن عـام 1999م، اشـتد المـرض عليـه، فأحـضروا الطبيـب إلى البيـت، وبعـد المعاينـة، وجـد ضغطـه هابطًـا جـدًا، وقتهـا كان ابـن الشـيخ (يحيـى) البالـغ مـن العمـر عامـين ونصـف مريضًـا جـدًا، وكان يرقـد في مشـفى جنـين، فعـرف الوالـد أن الشـيخ يريـد الذهـاب في تلـك الليلـة لتفقـد يحيـى في ذلـك المشـفى، والاطمئنـان عليـه، فقـال لإخوتـه وهـو في حـال نـزاع شـديد:

«لا تتركـوا أخاكـم يذهـب للمشـفى في منتصـف الليـل وحيـدًا، فهـو مطلـوب لليهـود، وهنـاك خطـر عليـه، انتبـه يـا بنـيّ جيـدًا».

ذهـب الشـيخ للمشـفى، وعـاد إلى والـده، ومكـث عنـده لمـا بعـد منتصـف الليـل بقليـل، وذهـب لتفقـد أبنائـه، وإذا بابـن أخيـه محمـد الجمـال يقـدم إليـه باكيًـا، وهـو يقـول:

مات جدّي!

وكان ابن أخيه هذا يحب جده كثيرًا.

ذهـب الشـيخ إلى بيـت الأهـل وهـو حزيـن جـدًا لمـا لوالـده مـن مكانـة في قلبـه، فوجـد عـددًا من الأقـارب وقـد حـضروا عنـد سـماعهم الخـبر بالرغـم من بـرودة الطقس في تلـك الليلة من ليـالي رمضان.

وفي اليـوم التـالي أقيمـت لـه جنـازة مهيبـة شـارك فيهـا الكثـير مـن النـاس بالإضافـة إلى الأصحـاب والأقـارب الذيـن توافـدوا مـن المخيـم وجنـين والمحافظـة والداخـل المحتـل، كـما حـضرت ثـلاث سـيارات مـن سـيارات الشرطـة الفلسـطينية بقيـادة قائـد شرطـة المحافظـة، وشـاركت في موكـب رسـمي في مراسـيم الجنـازة.

بعد وفاة الوالد؛ شعر الشيخ أنه فقد سندًا كبيرًا رافقه خلال رحلته الجهادية المستمرة، وكان يقول له أحيانًا:

«إنّني قلق عليك، مع إعجابي الشديد بإرادتك وتصميمك، ومن يسلك هذا الطريق سيكون معرضًا للاغتيال، أو الاعتقال المتواصل، وكأني بك يا بنيّ ستقضي معظم حياتك في السجون، فجيلكم والأجيال القادمة أكثر شجاعة وصلابة من الأجيال السابقة».

رحم الله الوالد وأسكنه فسيح جناته.

ومما يذكر الشيخ بسام عن والده، ما قاله عندما شاهد العشرات من أبناء المجمع الإسلامي بغزة برفقة الشيخ القائد الشهيد أحمد ياسين عندما جاء برفقة حافلتين من غزة للمشاركة في عرس الشيخ عمر الغانم في كفر قود، في عام 1979م، وقد تأخر بهم الوقت ولم يستطيعوا العودة إلى القطاع، فباتوا في مسجد المخيم، وبعد صلاة الفجر، وتلاوة ورد الصباح، شرعوا في ممارسة الرياضة في الساحة الملاصقة للمسجد بحضور الشيخ ياسين شخصيًا، فسأل الوالد من يكون هؤلاء، فأبلغناه، فقال:

هؤلاء ليسوا مشايخ دين فقط، هؤلاء مشروع ثورة.

بيت العنكبوت

بعد تسلم رئيس الوزراء الصهيوني الجديد (إيهود باراك) السلطة في الكيان الصهيوني وعلى وقع تصاعد عمليات المقاومة في جنوب لبنان، وفشل كل العمليات الصهيونية والحروب المتعددة ضد «حزب الله»، تصاعدت في الكيان الصهيوني قناعة الفشل في النيل من تلك المقاومة، وأصبح من الضروري الانسحاب لإنقاذ جيشه من المستنقع اللبناني، والاستنزاف الدامي لذلك الجيش المحتل، فقرر «باراك» الهروب السريع من جنوب لبنان، وكان ذلك في الخامس والعشرين من مايو (أيار) من العام 2000م، تاركًا خلفه قسمًا من جيش العميل أنطوان لحد الذي ساند جيشه طيلة سنوات الاحتلال.

هـذا النـصر التاريخي والمـدوي، والـذي أجـبر المحتلـين عـلى تجـرّع الهزيمـة عـلى يـد المقاومـة الإسـلامية في لبنـان دون قيـد أو شرط، كان لـه الأثـر البالـغ في نفوس الفلسـطينيين والعرب والمسـلمين حتـى شـعوب العـالم الحـر؛ الأمـر الـذي انعكـس فرحًـا وسرورًا، وشـكّل حافـزًا لـدى الشـباب الفلسـطيني وكان قـد خـرج لتـوّه مـن مفاوضـات كامـب ديفيـد الثانيـة، التـي جـرت طويـلًا بـين الزعيـم الفلسـطيني يـاسر عرفـات ورئيـس وزراء العـدو (إيهـود بـاراك) بـإشراف الرئيـس الأمريكـي (بـل كلنتـون)، والتـي فشـلت فشـلًا ذريعًـا في إيجـاد حـل لأهـم قضايـا الـصراع وهـي القـدس وعـودة اللاجئـين الفلسـطينيين إلى ديارهـم، وإقامـة الدولـة الفلسـطينية المسـتقلة، وعاصمتها القـدس الشريف عـلى كامـل حـدود العـام 1967م.

كان النـصر المـؤزر للمقاومـة الإسـلامية في لبنـان واحـدًا مـن الأسـباب الرئيسـة لانـدلاع انتفاضـة الأقـصى لاحقًـا، كـما شـكّلت حالـةً مـن الفـرح في نفـس الشـيخ بسـام، ودرسًـا بليغًـا في انتـزاع الحـق السـليب بقـوة المقاومـة دون قيـد أو شرط، وأن مـا أخـذ بالقـوة لا يسـترد إلا بالقـوة، وأن هـذا النـصر هـو أحـد تجليـات منهـاج الثـورة المسـتمدة مـن الكتـاب والسـنة، النهـج الـذي حلم بـه في صغره، فـكان حقيقـة واقعـة ونتائـج كبـيرة في الكـبر، ودربًـا سـائرًا نحـو تحقيـق النـصر الأعظـم في المسـتقبل.

يتذكـر الشـيخ بسـام وهـو يتابـع مشـاهد الانتصـار المـدوي مخيـم العـودة في مـرج الزهـور ومعـبر «زمريـا»، والمعانـاة الشـديدة التـي لاقاهـا وزمـلاؤه المبعـدون هنالـك، وتذكـر مسـيرات العـودة ومسـيرة الأكفـان، كـما تذكـر أهـالي القـرى اللبنانيـة الطيبـين، ومعركـة الأيـام السـبعة، والقصـف المدفعـي والصاروخـي الـذي كان يمـر مـن فـوق رؤوسـهم، لقـد انهـارت مـا كانـت تسـمى بمنطقـة «الحـزام الأمني» ومـن كان يصـدق أن هـذه القـوة المحتلـة الغاشـمة سـتنكفئ وتندحـر ذليلـة صاغـرة أمـام قـوة المقاومـة الإسـلامية اللبنانيـة دون قيـد أو شرط؟!

لقـد حصـل هـذا فعـلًا وأصبـح الحلـم حقيقـة، وهـذا يعـزز الاعتقـاد بـأن مـا جـرى للمحتـل في جنـوب لبنـان حتـمًا سـيجري لـه في الأرض الفلسـطينية، بـل وكل فلسـطين مـن نهرهـا إلى بحرهـا إذا مـا تمسـك أهلهـا بالمقاومـة والجهـاد منهجًـا وقـولًا وممارسـة وفعـلًا.

كما شكل ذلك الانتصار في وعي الشيخ بسام نقطة جديدة في تعداد نقاط التراجع الصهيوني وتقهقر حلمهم الغابر في تحقيق دولتهم المزعومة من النيل إلى الفرات، فهذه الهزائم المتلاحقة والتي بدأت من معركة الكرامة مرورًا بحرب أكتوبر ومن ثمّ انتفاضة الحجارة وما سيأتي لاحقًا، تشير بشكل قاطع أن تلك الأحلام تتبدد وتتحطم على صخرة تصاعد قوى المقاومة في المنطقة رغم خذلان وتراجع الموقف السياسي لبعض الدول العربية إن لم نقل معظمها.

لقد حفر ذلك النصر في ذاكرة الشيخ بسام يقينًا أن النصر أقرب مما نعتقد مهما حجبه دخان اليأس والقنوط عند البعض، أو ثقل على الناس اليقين بقرب حصوله من هول ما رأوا من نوائب ومصائب بفعل المحتل، وتنكّر ذوي القربى، وتجاهل قوى العالم التي تكيل بمكيالين، وتتنكّر للحق الواضح وضوح الشمس.

متأهبون

كانت زيارة رئيس وزراء العدوّ؛ الهالك «أرئيل شارون» الاستفزازية لساحات المسجد الأقصى وباحاته الشرارة التي أشعلت الوطن الفلسطيني المحتل بانتفاضة الأقصى الدامية والطويلة، فكان كوادر الجهاد الإسلامي في محافظة جنين أمثال إياد الحردان وأنور حمران قد عملوا مسبقًا، وبشكل سريّ للتحضير لمثل هذه المرحلة من خلال تجنيد خلايا متشعبة في المدن والقرى والمخيمات حتى في صفوف الأجهزة الأمنية الفلسطينية من خلال عناصر تعمل ضمن تلك الأجهزة مثل الشهيد سامح أبو حنيش الذي كان ينتمي لقوات البحرية، والشهيد محمد نصر كميل الذي كان ينتمي للاستخبارات العسكرية، وكان الحارس الشخصي لإياد الحردان أثناء تواجده على ذمة جهاز الاستخبارات العسكرية الفلسطينية، وكذلك الشهيد محمد بشارات وغيرهم، لذلك يمكن القول إنّ حركة الجهاد الإسلامي كانت السباقة لتلك المرحلة؛ الأمر الذي لم يربك الحركة، بل سهل اندماجها بالانتفاضة حتى إن أول عمليتيّ تفجير حصلتا في كل من الخضيرة والقدس خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة تبنتهما حركة الجهاد الإسلامي.

التهبت الأرض المحتلة بمن عليها في وجه المحتلين، وأمام القمع الدامي والقاسي الذي اقترفته قوات الاحتلال، بدأ الغضب الفلسطيني يتفجر عملًا عسكريًا هنا وهناك، في المدن المحتلة من العام 1948م، وعلى طرق الضفة الفلسطينية ومحاور الاحتكاك في قطاع غزة؛ الأمر الذي أدخل الانتفاضة الجديدة في شلال من الدم، وكان لحركة الجهاد الإسلامي في محافظة جنين وباقي المحافظات كلمتها التي تنسجم مع توجهها ومنطلقاتها وأدبياتها التي تتبنى خط المقاومة الشاملة كطريق وحيد للتعامل مع هذا المحتل.

خلال الأسابيع الأولى من هذه الانتفاضة، خرج المعتقلون السياسيون من سجون السلطة عنوة بضغط من الجماهير الفلسطينية والقوى الوطنية والإسلامية، أو من خلال تغيير الظروف والاكتفاء بمدة توقيفهم وحجزهم، كان من بينهم أنور حمران ونعمان طحاينة ومحمد فارس جرادات وخالد زكارنة، وسفيان العارضة وغيرهم، وجميعهم كانوا موقوفين في سجون السلطة

في نابلس، فعادوا إلى جنين إلا أنور حمران وخالد زكارنة، فقد بقيا في مدينة نابلس، وسرعان ما أخذا دورهما في العمل الجهادي.

بقي إياد الحردان معتقلًا لدى جهاز الاستخبارات الفلسطيني في جنين خاصة بعد اتهام دولة الكيان له بمسؤوليته عن عملية الخضيرة التي أسفرت عن مقتل شخصين على الأقل، فاحتجز إياد كنوع من «الحماية» لكن حريته في الحركة كانت تتذبذب بين المنع الكامل أحيانًا، والسماح له بالخروج لقضاء بعض الحاجيات الضرورية شريطة وجود مرافق وحارس، فكان إياد يستغل هذه الفُسحة من أجل التواصل مع قيادته وتنظيم الشبان حتى التخطيط لمهاجمة بعض الأهداف في محافظة جنين خاصة قرب عرابة وعنزا وعلى الطريق الاستيطاني شمال جنين؛ لذلك تم التشديد عليه أكثر، ومنعه من الخروج من الاحتجاز، فشعر بالضيق، وطالب السلطة بالسماح له ولزميله في الاحتجاز عبد الحليم عز الدين (أبو القسام) بضرورة الخروج للتواصل مع فرع جامعة القدس المفتوحة في جنين لاستكمال تحصيله العلمي، فأرسل للشيخ بسام يطلب منه التوسط لدى قيادة منطقة جنين لكي يخففوا عنه المنع، فاتصل الشيخ بسام مع المرحوم العقيد فايز عرفات قائد منطقة جنين لبحث الأمر معه، فأبدى العقيد عرفات ترحيبه باللقاء، ووافق وحدد موعدًا له، فذهب الشيخ بسام حسب الموعد، ولما صعد إلى مكتب القائد أُبْلِغَ أن العقيد عرفات غير موجود، فشعر بشيء من الامتعاض، ونزل الدرج عائدًا إلى بيته، وخلال عودته وقبل أن يخرج من المقر مر بضابطين من مساعدي فايز عرفات وهما محمد الدمج، وخالد المعلا، فقال لهما:

أبلغا العقيد أنني لن أعود إلى اللقاء به ثانية.

وما أن خطا عدة خطوات حتى سمع أحدهم يناديه، ويقول له:

العقيد فايز عرفات يريد أن يراك.

فعاد، ودخل عليه، فوجده في مكتبه، فشرع العقيد بالاعتذار، وقال للشيخ:

إنّني أحترمك كثيرًا، وخجلت منك، ولا أعلم ماذا أقول لك بما جئتني به، إننا نخاف عليهم من الاغتيال.

فـرد الشـيخ قائـلًا: يـا سـيادة العقيـد، أنـا كذلـك أخـاف عليهـم، لكنهـم مصممـون، يريـدون التواصـل مـع الجامعـة وتقديـم الامتحانـات، أنـا أعلـم أن في ذلك بعـض الخطر عليهم، لكنهـا رغبتهم.

فأخرج العقيد عرفات ورقة، وقال له:

إذن لتوقّـع عـلى هـذه الورقـة التـي فيهـا إخـلاء لمسـؤوليتنا، ووضـع المسـؤولية عـلى عاتقـك وعاتقهـم، فوقـع الشـيخ، وأصبـح كل مـن الحـردان وعـز الديـن يخرجـان مـن الاحتجـاز لقضـاء بعـض أمورهمـا الضروريـة ومنهـا لقـاء ذويهـا، ومتابعـة تحصيلهـا العلمـي في فـرع جامعـة القـدس المفتوحـة في جنـين، ولم يخـل الأمـر مـن متابعـة الخلايـا التنظيميـة، وتنسـيق العمـل الجهـادي المقـاوم في المحافظـة حسـب مـا علـم لاحقًـا، ومـا نـشر عنـه الإعـلام العـبري.

أصبـح مـكان اعتقـال إيـاد الحـردان مـزارًا للكثيريـن ممـن يعرفونـه، وممـن يسـمعون بـه ولا يعرفونـه، التوّاقـون للعمـل المقـاوم مـن خـلال بوابـة الحركـة لاقتناعهـم بنهجهـا، فـكان الشـهيد القائـد محمـود طوالبـة ورفاقـه، مثـل الشـهيد عبـد الرحيـم فـرج من طلائـع مـن قامـوا بزيارتـه بقصـد الانصهـار في حركـة الجهـاد، كـما كان للأسـير خالـد الشـاويش علاقـة مـع إيـاد الحـردان خـلال لقاءاتـه المتعـددة معـه في فـرع الجامعـة في جنـين.

تواصـل الحـردان مـع الشـهيد الأول لسرايـا القـدس في المخيـم الشـهيد أسـامة تركـمان الـذي ارتقـى في الرابـع مـن شـهر مـارس (آذار) مـن عـام 2001م ليلـة عيـد الأضحـى عـلى الطريـق الاسـتيطاني الالتفـافي الـذي يقـع شـمال مدينـة جنـين، والـذي يصل شـارع جنـين العفولة ومعـبر الجلمة بمسـتوطنتيّ «جنيـم وقديـم» المُخلاتـين، وكان لأسـامة صـولات وجـولات قـرب «عنـزا»، و«عرابـة»، وعندمـا تسـللت وحـدة صهيونيـة لاعتقـال الشـهيد القسـامي نـصر جرار مـن بيتـه الكائـن في واد برقين غـربي المدينـة؛ هـب تركـمان والشـهيد إيـاد المـصري ولحـق بهـما الشـهيد أشرف السـعدي، وتمكنـوا مـن إحبـاط ذلـك التسـلل، وغنمـوا معـدات عسـكرية مـن القـوة المهاجمـة التـي عـادت أدراجهـا تحـت النار، ومُنِيَـت مهمتهـا بفشـل ذريـع.

بعـد شـهر عـلى ارتقـاء أسـامة التركـمان اغتيـل القائـد الجهـادي إيـاد الحـردان بعمليـة تفجـير لحجـرة الهاتـف العمومـي التـي كان يتصـل مـن خلالـه بأهلـه، والتـي تقـع عـلى بـاب مقاطعـة جنـين،

يقول الشيخ بسام إن يوم الخامس من أبريل (نيسان) لا ينسى، ففي ذلك الوقت شاركت في اجتماع لممثلي الفصائل الفلسطينية نيابة عن الأخ عبد الحليم عز الدين الذي كان مشغولًا وقتها، ولما كنا في عز الاجتماع الذي حضره ممثلو ثلاثة عشر فصيلًا فلسطينيًا؛ حدث انفجار، بدا للوهلة الأولى وكأنه ناتج عن غارة طيران، وبعد دقائق جاء الخبر الأول الذي يفيد بتفجير حجرة الهاتف أمام المقاطعة، واستشهاد شاب، دقائق أخرى جاء الخبر بأن الشهيد هو إياد الحردان، ففض الاجتماع، وتوجه الجميع إلى المكان، فوجدوا الجماهير التي احتشدت تحمل الجثمان وتسارع به إلى المشفى، ومن هناك حملته وطافت به في شوارع المدينة ثم توجهت به إلى مكان الانفجار، الأمر الذي لم أكن أرغب فيه خوفًا من الاحتكاك مع السلطة.

لكن الجماهير الغاضبة من الصعب منعها، أو السيطرة عليها، فوصلوا إلى هناك وقام العقيد فايز عرفات بسحب جنوده من المكان خوفًا من الاحتكاك والمواجهة، الأمر الذي دفع عشرات الشبان الغاضبين لاقتحام المقاطعة ومكاتبها وغرفها ومحاولة تحطيم محتوياتها، فتدخلنا وباقي ممثلي الفصائل، وأخرجنا الغاضبين من المكان، ونصحنا المسيرة بالتوجه إلى شوارع المدينة، ومن ثمّ وضعنا الجثمان الطاهر في ثلاجة مشفى الشهيد الدكتور خليل سليمان لكيّ يشيع في اليوم التالي وكان الجمعة، ولكي تنظم له مسيرة وجنازة تليق به كقائد ومجاهد صلب، وقد رفضنا طلبًا لرئيس بلدية عرابة الأسبق الذي أراد أن يدفن الحردان يوم الخميس، وقلنا له إنه شهيد قائد يجب أن يأخذ حقه من التكريم، وفعلًا كان لنا ما أردنا من إكرامه أفضل تكريم، وأقيمت له جنازة مهيبة كان أولها عند الدوار الرئيس في المدينة، وآخرها في أول المخيم، ثم نقل الجثمان إلى مسقط رأسه (عرابة) وكان له نفس التكريم ودفن قبل المساء في مقبرة البلدة.

كان قد سبق ارتقاء الحردان ارتقاء رفيق دربه أنور الحمران في نابلس في عملية اغتيال نفذتها دبابة من على جبل جرزيم بواسطة مدفع رشاش بعيد المدى بتاريخ الحادي عشر من ديسمبر (كانون أول) من العام 2000م، أطلقت عليه اثنتين وعشرين رصاصة أمام زوجته وأطفاله والمارة، أصابت جسده الطاهر تسع عشرة منها.

فكان ارتقاء هذين القائدين الشرارة التي أشعلت العمليات الاستشهادية في عمق

كيان الاحتلال، فكانت عملية الثنائي الاستشهادي علاء الصباح وأسامة أبو الهيجاء بتاريخ 25/ 05/ 2001م، والتي كانت في مدينة الخضيرة، وعملية الاستشهادي نضال أبو شادوف في جنوب حيفا والتي كانت بتاريخ 16/ 07/ 2001م من نفس العام، وعملية الثنائي يوسف السويطات ونضال الجبالي، والتي نفذت بتاريخ 28/ 10/ 2001م، في مدينة الخضيرة، وعملية محمد نصر بكر الحارس الشخصي لإياد الحردان والذي نفذ عملية استشهادية في «كريات موسكن» قرب حيفا.

كما شهد الحادي عشر والثاني عشر من سبتمبر (أيلول) من العام 2001م ارتقاء الشهيدين إياد المصري ابن حركة الجهاد الإسلامي وصديق ورفيق أسامة التركمان، وإبراهيم الفايد ابن كتائب القسام بعد حصار المخيم والمدينة بالدبابات، كما شهد الثاني عشر من نفس الشهر ارتقاء أربعة شهداء في «عرابة» وهم سفيان العارضة وشقيقته الطفلة بلقيس ووائل عساف وأسعد دقة بعد اشتباك عنيف وحصار لمنزل سفيان الذي تم قصفه بصواريخ من طائرات «الأباتشي»، حيث عاد ثلاثتهم من عملية مهاجمة هدف عسكري قرب «عرابة»، فلاحقتهم قوات الاحتلال وحاصرتهم في المنزل حتى ارتقوا شهداء، وهم من الجهاز العسكري للجهاد الإسلامي.

وقد رافق تلك الأحداث قيام قوات الاحتلال بهدم كامل لمقر المقاطعة في جنين في الفترة الممتدة ما بين الحادي عشر من أيلول وحتى الخامس عشر منه، وبلغ عدد الشهداء في منطقة جنين في تلك الفترة ثلاثة عشر شهيدًا، كما اجتاحت قبلها بشهر تقريبًا دبابات الاحتلال وجرافاته مدينة جنين بتاريخ الثالث عشر من أغسطس (آب) من نفس العام، وقامت بتدمير مقر الشرطة الخاصة في جنين.

بعد الحردان تسلم دفة القيادة الأسير ثابت المرداوي حيث قاد العمل بذكاء، فوثق العلاقة مع طوالبة والأسير الشيخ علي الصفوري، وأخذ ينسق ويتواصل مع باقي أذرع العمل المقاوم في المخيم وفي المحافظة، ويذكر الشيخ بسام أن كثرة العمليات التي كانت تخرج من المخيم، جعلت الاحتلال وإعلامه يطلق على المخيم مصطلح «عش الدبابير»، وأدت إلى زيادة ضغط الجانب الأمريكي على السلطة من خلال زيارات مبعوثيها «جورج تينيت» و«أنطوني زيني»

لوقف العمليات وتحقيق وقف للنار، فذات يوم اتصل العقيد أبو الفتح نائب قائد منطقة جنين، بالشيخ بسام وقال له:

أريد أن أتحدث معك بشيء غاية في الأهمية، سأرسل لك سيارة لتحضرك حالًا.

ذهب الشيخ من فوره، فقال له العقيد أبو الفتح:

يا شيخ، لا نريد أن يحصل لنا ما حصل ليوغوسلافيا، يمكن لليهود أن يهرسونا كالبيض، «الإسرائيليون» أبلغوا الأمريكان الآن، أن هناك اجتماعًا ثلاثيًا يجري الآن بين الثلاثة ثابت مرداوي ومحمود طوالبة والحاج علي الصفوي، وأن «الإسرائيليين» والأمريكان يقولون إن في اجتماع ثلاثتهم سيكون التحضير لعمل كبير حتمًا، وأن الرئيس ياسر عرفات قد اتصل بنا لنبلغكم أنه يجب التهدئة، ووقف العمل المسلح.

قلّل الشيخ بسام من تهويل العقيد، قائلًا:

أصدقاء يلتقون، لا داعي لكل هذا الخوف والفزع،

رفض أبو الفتح ذلك، وتمنى على الشيخ أن يوصل الرسالة.

تدفق المجاهدون على المخيم، وكان لابد من تأمين بيوت لهم ولأسرهم، خاصة أن غالبيتهم كانوا متزوجين، مثل ثابت المرداوي ومحمد العانيني وخالد زكارنة وشريف طحاينة ومحمد قاسم العارضة، وأيمن دراغمة، وفؤاد بشارات ونعمان طحاينة وعبد الحليم عز الدين، وستة من طمون ألقي القبض عليهم في معركة المخيم، وشاب آخر من قرية الهاشمية، ومحمد أبو طبيخ وربيع أبو الرب وناصر الشاويش، وقد كان عدد البيوت المستأجرة التي يقطنها مطاردو الجهاد الإسلامي في المخيم ستة عشر بيتًا، وغيرها من البيوت السرية التي تخضع في غالبيتها للحراسة والاحتياطات الأمنية من جميع الجهات بهدف تأمين سلامتهم، والعناية بهم.

ومع نهاية عام 2001م، ازدادت الضغوطات الأمريكية والغربية على السلطة الفلسطينية لوقف العمليات، فرفعت السلطة من وتيرة عملها لمنع تلك العمليات، فقامت بإرسال استدعاء

للقائد محمود طوالبة لإجراء مقابلة معه في نابلس، وأمام الوعودات بعدم الاعتقال، وافق طوالبة، وذهب إلى هناك ليفاجأ بأمر الحجز والاعتقال والتحويل لسجن نابلس المركزي؛ الأمر الذي أثار حفيظة جماهير المخيم والمحافظة، فسارت مسيرة غاضبة نحو مقر الأمن الوقائي القديم في جنين، قامت خلالها بحرق بعض سيارات الجهاز، وبناء على هذه الحالة من التوتر، تلاقت قيادات العمل الوطني والإسلامي لبحث الأمر، وكان ممثلًا حركة الجهاد في تلك اللقاءات الشيخ بسام والشيخ عبد الحليم عز الدين، وقد خرج المجتمعون وتوجهوا في منتصف تلك الليلة للمعتصمين أمام مقر الوقائي لإقناعهم بفض التجمع، وإبلاغهم أن هناك جهودًا تجري للإفراج عن الشيخ طوالبة خلال يومين، فانتهى الاعتصام.

في اليوم الثاني والثالث، لم يتم الوفاء بتلك العهود، فعادت المسيرات تنطلق من جديد، وفي هذه المرة استعدت قوات الأمن الفلسطينية لقمع المتظاهرين، لكن قيادة التظاهرة تعاملت بذكاء لحقن الدماء، حين وضعت في مقدمة المسيرة عشرات الأطفال الذين كانوا يحملون الورود ويهدونها لإخوانهم من رجال الأمن، وهي الفكرة التي اقترحها الشهيد نعمان طحاينة، تأسيًّا بتجربة الثورة الإيرانية، هذه التصرفات الذكية، لم تمنع السلطة التي تتلقى الضغط الهائل من الأمريكان والغربيين أن تواصل حملتها في اعتقال الكثيرين من القادة والناشطين العسكريين، فاعتقل الحاج علي الصفوري ونقل إلى مقر جهاز الاستخبارات في نابلس، كما اعتقل القائد محمد أبو طبيخ ووضع مع مجموعة من المحتجزين في بيت في حيّ السيباط في قلب مدينة جنين تحت إشراف الاستخبارات العسكرية، واعتقل الأستاذ محمد فارس جرادات وصهره حمزة قعقور، وتم نقلهما لنابلس بتنسيق ميداني مباشر مع الارتباط الصهيوني، كما اعتقل الشهيد محمد العانيني والشهيد أيمن دراغمة والشهيد الشيخ رياض بدير وغيرهم.

بقي ثابت مرداوي طليقًا في المخيم، فلقي من الاحتضان والمساعدة الكثير خاصة من بعض كوادر حركة فتح، وكان لوجود الشهيد طه الزبيدي الذي يعرف بدماثة أخلاقه وسجاياه الجميلة التي تجذب كل من في جيله، وثقته وإخلاصه الأثر الكبير في استقطاب من هم من جيله للانضمام لحركة الجهاد، وقد لازم الزبيدي المرداوي وساعده بشكل واسع وكبير، فأدارا العمل الجهادي بكل اقتدار، حتى كان ذلك اليوم الذي أغارت فيه الطائرات الصهيونية على سجن

نابلس القديم ومقر الاستخبارات الفلسطينية في نابلس وعلى المقاطعة في مدينة طولكرم، في محاولة لاغتيال القادة الثلاثة الشيخ محمود طوالبة والحاج علي الصفوري والشيخ رياض بدير، ومن معهم ومحمد العانيني ومحمد فارس جرادات وأيمن دراغمة وحمزة قعقور.

وقد تمكن طوالبة وعلي الصفوري ومن معهم من النجاة من ذلك القصف بأعجوبة، واختفيا في مخيم بلاطة لبعض الوقت، قبل أن يتم نقلهما بشكل سري لمخيم جنين بمساعدة بعض الإخوة، كان من بينهم عبد الكريم وإبراهيم نجلا الشيخ بسام، ليلتحق بهم الشيخ رياض بدير، وقد استقبلت الجماهير في المخيم والمحافظة الشيخ طوالبة والحاج علي الصفوري بالحلوى ومظاهر الابتهاج، تبع ذلك قيام شباب الانتفاضة بالذهاب إلى مكان احتجاز المقاومين ومنهم محمد أبو طبيخ في حي السيباط وإطلاق سراحهم خوفًا على حياتهم.

في شهر رمضان الواقع في نهاية العام 2001م، وبينما كان الشيخ بسام يستضيف عز الدين وعددًا من المعارف، رنَّ هاتف عبد الحليم عز الدين (أبو القسام)، وإذا به القائد الفتحاوي مروان البرغوثي، الذي قال لعز الدين: من معك؟

فرد عز الدين: معي الشيخ بسام.

قال البرغوثي، حَسنًا، أنا الآن أجلس بجوار الرئيس أبو عمار، وأفتح له سماعة جهازي النقال «السبيكر»، الرئيس يقول لكم إن المبعوث الأمريكي في ضيافته، وهو يأمل منكم وقف العمليات حتى ينقضي عيد الفطر السعيد وعيد اليهود الذي يليه.

فما كان من عبد الحليم عز الدين إلا أن أعطى الموافقة على هذا الاقتراح، ولما أغلق الهاتف أخذ الشيخ بسام يلوم عز الدين على ذلك الموقف؛ لأن الأمر ليس بأيديهم، فالجهاز العسكري له اتصاله المباشر مع القيادة، وما نحن إلا قادة سياسيون، فما كان بعد أيام إلا أن وقعت عمليتان الأولى للثنائي مصطفى أبو سرية من السرايا، وعبد الكريم أبو ناعسة من كتائب الأقصى بتاريخ 27/ 11/ 2001م. والثانية للاستشهادي من سيلة الحارثية سامر شواهنة من سرايا القدس والذي فجّر نفسه في حافلة في واد عارة، بتاريخ 29/ 11/ 2001م.

حريق آذار

في اليوم الأخير من شهر فبراير (شباط) من عام 2002م، وتحت جنح الظلام، تقدمت الدبابات وناقلات الجند، ووحدات القناصة، بالإضافة للطائرات العمودية الصهيونية؛ لتحيط بالمخيم من كل الجهات باستثناء منطقة ضيقة وهي الواقعة أقصى شمال شرق المخيم بمحاذاة مشفى الشهيد الدكتور خليل سليمان، وقد بدأت الدبابات وناقلات الجند والفرق العسكرية المدربة اقتحام الأطراف الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية للمخيم، وقامت بتصفية ستة من عناصر الشرطة الفلسطينية كانوا في موقع في منطقة الجابريات التي تعلو المخيم بدم بارد، وكان التقدم والتفتيش للبيوت بيتًا بيتًا، فجرت مواجهات بالأسلحة الرشاشة والعبوات الناسفة والقنابل اليدوية المصنعة محليا المعروفة بـ «الأكواع»، وقد جرت المعركة على طول اليوم الأخير من شهر شباط، فارتقى شهيدان، وأصيب نحو أربعين مقاومًا ومدنيًا بالرصاص وشظايا الصواريخ، وقتل أحد جنود الاحتلال، وأصيب آخرون.

عند ساعات المساء الأولى، خرج الشيخ بسام إلى الشارع الرئيس في المخيم، فسمع من يناديه من أحد الأزقة، فتوجه لناحية الصوت فإذا بالشيخ إبراهيم الجبر من قادة حماس، وجمال حويل وعطا أبو ارميلة من قادة فتح وكتائب الأقصى، فحدثوه عن المعركة التي جرت طيلة اليوم، وأن المقاتلين من الأمن الوطني وبعض المقاومين قد استغلوا الفتحة التي تركها المحتلون، وانسحبوا إلى مدينة جنين، خاصة وأن المخيم بمعظمه قد سقط، وأن المعركة كرّ وفر، وسلامة المقاتلين أهم، وأن الحرب لم تنتهِ بعد، وطلبوا منه أن يطلب من باقي المقاتلين الذين بقوا من الجهاد والفصائل المغادرة للحفاظ على حياتهم، وعلم الشيخ بالإصابة التي تعرض لها القائد المجاهد جمال أبو الهيجاء والذي كان يتنقل من مسجد لمسجد رغم الاجتياح وفرق القناصة وطائرات الهيلوكوبتر، ويبث نداءات التشجيع والحث على المقاومة عبر مكبرات الصوت من المساجد، وأنه أصيب برصاصة من إحدى الطائرات عندما خرج من مسجد عبد الله عزام، فبترت يده اليمنى، فحملها وذهب بها مشيًا إلى مشفى الشهيد الدكتور خليل محمود سليمان.

اقتنع الشيخ بذلك، وقام بإجراء المشورة عبر الهاتف مع بعض قادة الحركة وكوادرها منهم عبد الحليم عز الدين ونعمان طحاينة، فكان الرأي أنه لا مانع من الانسحاب، فقام الشيخ بسام بمرافقة عدد من المقاتلين بالانسحاب من تلك الثغرة، وعاد للحديث مع الباقين، ومنهم الحاج علي الصفوري والشيخ محمود طوالبة، الحاج علي الصفوري لم يكن إقناعه سهلًا، بل بعد جهد جهيد وافق بشرط خروج طوالبة كذلك، حتى لا يقال إن الحاج علي ترك طوالبة في المعركة وحده، فتعهد الشيخ بسام للحاج علي بإقناع طوالبة، فخرج الحاج علي والشيخ بسام ومعهم عدد من المقاتلين كان من بينهم أشرف السعدي وعبد الله الوحش، بعد أن تحدث مع الشيخ محمود طوالبة الذي كان يخجل منه، ويناديه دائمًا بالأب الروحي، وعده باللحاق به سريعًا إلى جنين.

خرج الشيخ بسام ومن معه إلى جنين، وباتوا ليلتهم في أحد منازل الحي القديم في المدينة، ليستيقظوا صباحًا على قناة الجزيرة وهي تجري مقابلة عبر الهاتف مع الشيخ محمود طوالبة يعلن من خلالها دحر الهجوم على المخيم، وقال لقناة الجزيرة الفضائية:

«لقد صد الهجوم عن مخيم جنين بعون الله»

فشعر كل من خرج بنشوة الانتصار، وعادوا بأعداد أكثر.

الضابط الصهيوني الذي كان مسؤولًا عن اجتياح المخيم في يومه الأول وقتها صرح للإعلام «العبري» أنه تمكن من تطهير المخيم من كل المقاتلين، فجاء تصريح طوالبة صفعة له، فقامت قوات الاحتلال بالإغارة ثانية على جنين ومخيمها وريفها؛ من جديد بشكل أكثر شراسة وقسوة، واستمرت المعركة حتى الخامس من مارس (آذار)، ارتقى خلالها من الشهداء اثنان وعشرون شهيدًا من بينهم الشهيد أمجد الفاخوري والشهيد محمد العانيني والشهيد لؤي ضبابة والشهيد الدكتور خليل محمود سليمان والشهيدة السيدة سميرة الزبيدي (أم العبد) والشهيد محمود العزب والشهيد خالد نجم ووالدته الشهيدة سعدة نجم والطفلة ماريا أبو سرية وناصر أبو جوهر والشهيد أبو فؤاد الجندي والشقيقان الشهيدان عرفات وياسر السايس والشهيد محمد مفيد والشقيقان الشهيدان لؤي استيتي وعبد الرازق استيتي والشهيد نعيم الصباغ، وجرح العشرات من الأهالي والمقاتلين، في حين قتل للقوات الغازية جنديان آخران وجرح العديد منهم وبقيت آثار دمائهم أيامًا في حارات المخيم.

كما شارك في تلك المعركة كل من الشهيد كمال أبو وعر والاستشهادي راغب جرادات.

وكان الشهيد محمود طوالبة قد تخندق في حارة الحواشين برفقة ثمانية مقاتلين، منهم عبد الرحيم فرج، وعبد الكريم نجل الشيخ السعدي، وطارق الحواشين ومحمد الفايد وآخرون، وأحس في اليوم الخامس بتوقف إطلاق النار، فخرج يبحث عن قوات الاحتلال في حواري المخيم، فسار من حارة الحواشين تجاه حارة السمران ومنها لجورة الذهب، ومنها لحارة الحجة عيشة ومنها لحارته في أقصى غرب المخيم، فلم يجد أحدًا من القوات الغازية، فردد عبارة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالرعب».

وقد ترافقت نهاية تلك المعركة مع عملية استشهادية نفذها الشهيد عبد الكريم طحاينة من سيلة الحارثية في الموقف المركزي للحافلات في العفولة؛ أسفرت عن مقتل صهيونيين وجرح خمسة وعشرين آخرين، وهو ينتمي لسرايا القدس، الجهاز العسكري للجهاد الإسلامي.

وقد عبر دوري غولد مستشار «أرئيل شارون» عن تلك المواجهة قائلًا: «لقد فشل الهجوم على المخيم؛ لأننا لم نستطع القضاء على السمكتين الكبيرتين محمود طوالبة وعلي الصفوري».

وكان القائدان ثابت مرداوي ومحمد العانيني قد شاركا في هذه المعركة من ساعات الفجر الأولى وحتى مساء اليوم الأول، وخرجا لإدارة المعركة من الخارج، بالتعاون مع الشهداء أيمن دراغمة وفؤاد بشارات وخالد زكارنة وإياد صوالحة، وذلك للتخفيف عن المقاتلين في المخيم. وشهدت تلك المرحلة استشهاد أيمن دراغمة وصهره فؤاد بشارات في الأغوار.

معركة نيسان
وأعدوا!

لقد أحدثت وقائع معركة اجتياح شهر مارس (آذار) أثرًا بالغًا في نفوس المقاتلين والمقاومين وأهالي المخيم والمنطقة، ودفع الجميع إلى ضرورة التحضير لاجتياح قادم لا محالة، خاصة مع استمرار العمل الجهادي المقاوم، وارتفاع منسوبه وتعاظم نتائجه، فذهب المجاهدون والمقاومون

للعمل على تحصين المخيم، والاستعداد لأصعب التوقعات، والاستفادة من عبر ودروس اجتياح شهر آذار، وقد تجلى ذلك في الأمور التالية:

• لقد برز بشكل فريد دور الحاضنة الشعبية للمقاومة في مخيم جنين، وصل إلى حد تسليم البيوت بمفاتيحها للمقاومين من قبل الأهالي دون أي مقابل، وكان لهذا الشكل من الاحتضان الأثر الكبير في حماية المقاومين.

• ترسيخ فلسفة المواجهة التي رسخها الشيخ طوالبة ورفاقه من المقاومين والمناضلين من خلال صمودهم ومواجهتهم في شهر آذار.

• لاحظ المجاهدون والمقاومون، وخصوصًا الشيخ محمود طوالبة والحاج علي الصفوري وثابت المرداوي وزياد العامر ومحمود الحلوة ويوسف ريحان (أبو جندل) أن وحدات الجيش الصهيوني كانت تتنقل من بيت لبيت في كثير من الأحيان خلال تسللها للمخيم عبر فتحات تحدثها في جدران البيوت المتلاصقة؛ لتفادي رصاص المقاومين فقرر المجاهدون والمقاومون اتباع نفس الأسلوب في المرة القادمة، حتى تتم مباغتة وحدات العدو، وحماية المقاومين من رصاص القنص أو صواريخ الطائرات أو قذائف المدفعية.

• لاحظ الشيخ محمود طوالبة وقادة المقاومة أن فعل القنابل اليدوية المصنعة محليا «الأكواع» شديد ومربك ومفزع لجنود الاحتلال، فعمل على إنشاء ثلاثة معامل لصناعة «الأكواع»، إحداها بالشراكة مع كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة «فتح»، كما كان هناك معمل رابع تابع لحركة «حماس»، وقام بتوزيع حقائب ظهر كثيرة على الفتيان، مليئة «بالأكواع» ليحملوها، ويساعدوا المقاتلين أثناء الاشتباكات القادمة.

• صناعة العبوات الكبيرة والتي كانت عبارة عن سخان له مقبضان محشوّ بالمواد المتفجرة، يزرع أو يلقى، فقد كان للعبوة التي زرعت في ساحة المخيم في اجتياح شهر مارس (آذار) الأثر الكبير، فبالرغم من أن من قام بالتفجير قد تعجل الفعل بعدما غاب عن ناظريه رأس العبوة، فقد أحدث انفجار تلك العبوة الكبيرة دمارًا كبيرًا في المكان والبيوت المجاورة نظرا لشدة انفجارها، فهو عبارة عن لغم من مخلفات الجيش الأردني.

• كشف أبو جندل النقاب عن إدخال سلاح «الآر بي جي» لأول مرة في المخيم، وأن هناك عدة قذائف ستستخدم في المعركة القادمة.

• توزيع الكميات الكبيرة من الرصاص والذخائر، فكل مقاتل من مقاتلي السرايا (الذراع العسكري لحركة الجهاد الإسلامي) كان يحمل في جعبته اثني عشر مخزنًا مليئة بالذخيرة، وكان يحمل على ظهره حقيبة فيها أربعمائة رصاصة، بالإضافة إلى مقاتلي فتح وحماس والجبهة الشعبية المسلحين جيدًا.

• استخدام العجانات والجبّالات في مزج المواد المتفجرة وصناعتها، واستخدام (الكونغو) للحفر وزرع عبوات السخانات والعبوات الكبيرة على طول الطرق الرئيسة في المخيم.

• قام القادة والمقاومون من حركة الجهاد بشراء كل كميات الرمل بأنواعه التي كانت في محلات وأماكن بيع مواد البناء، وأحضروها إلى المخيم لتعبئة الأكياس منها، وبناء السواتر، كذلك زرع أكوام الرمل على المداخل، وغرسها بالعبوات الكبيرة من أجل إعاقة الدبابات وناقلات الجند.

• قام طوالبة والمقاومون بصنع عبوات مموّهة على شكل صنابير مياه، ومناهل تصريف المياه، ووضع قسمٍ منها على الجدران على مستوى الرأس في حالة الجلوس، كما صنع عبوات صغيرة تم إخفاؤها على الجدران والأزقة.

• تم تجهيز مركز إسعاف كبير في أسفل أحد البيوت وتزويده بما يلزم من أدوات إسعاف من قبل جميع الفصائل.

وكان القائد الذي قاد الهجوم الثاني على المخيم في شهر مارس (آذار)، قد قال: «إن المقاتلين في المخيم قد فخخوا كل شيء، فكنا إذا تحركنا نخاف أن نفقد يدًا أو رجلًا أو حياتنا، إن أخطر شيء في العالم هو مخيم جنين، لقد قاتلت في لبنان، إن ما جرى في لبنان قياسًا لما جرى في مخيم جنين بمثابة لعب أطفال، إن أخطر شيء في الدنيا هو مخيم جنين».

وقد ترافق ذلك مع حصول عدة عمليات استشهادية كانت قاسية على دولة الاحتلال، خاصة في الأيام العشر الأواخر من شهر مارس (آذار) من ذلك العام، أبرزها عملية حافلة خط

الخضيرة العفولة في العشرين من مارس (آذار)، والتي نفذها الاستشهادي رأفت أبو دياك وهو من سرايا القدس، وعملية مطعم حيفا التي نفذها الاستشهادي القسامي شادي الطوباسي بتاريخ 31/ 03/ 2002م وعملية نتانيا التي نفذها الاستشهادي القسامي عبد الباسط عودة بتاريخ 27/ 03/ 2002م، الأمر الذي زاد القناعة بأن الاجتياح قادم، فَسُرِّعَ في عملية التحضير والانتظار.

صليل السيوف

في تاريخ الثاني من أبريل (نيسان) من نفس العام، وفي جو من الترقب والانتظار، وبعد اجتياح لعدة مدن فلسطينية، ومحاصرة مقر المقاطعة في رام الله الذي كان يضم مكاتب الرئيس والقيادة الفلسطينية، وفي جوّ ماطر، تحركت أرتال الدبابات وناقلات الجند من جميع الجهات نحو المخيم، من شارع حيفا، وشارع الناصرة، وشارع نابلس، نحو أربعمائة دبابة وناقلة جند مدرعة، وآلاف الجنود من مشاة وقناصة ووحدات الاقتحام الخاصة مثل وحدة «إيجوز» التابعة لهيئة الأركان، والكتيبة (51) التي قاتلت في جنوب لبنان سنين طويلة، بالإضافة إلى ست طائرات أباتشي أخذت تجوب سماء المخيم، فضلًا عن طائرات الاستطلاع.

وبعد استكمال الحصار المطبق والخانق لكل متر حول المخيم، شرع المقاومون بالمسير في الأزقة والطرقات وهم يرددون معًا تكبيرات العيد، في حين فتح المحتلون مكبرات الصوت التي كانت تنادي على المقاتلين وتطالبهم بتسليم أنفسهم، فيردد المقاتلون باللغة العبرية عبر مكبرات الصوت على جنود الاحتلال يطالبونهم بالعودة من حيث أتوا، قبل أن يعودوا في أكياس سوداء.

انبلج فجر الثالث من أبريل (نيسان) الذي بدأ فيه القتال من كل الاتجاهات والأماكن، وبقيت المعارك الطاحنة في المخيم من جهاته الأربع، ومن السماء، حتى حَلَّ ليل اليوم الأول، فهدأت المعركة قليلًا، فتحرك الشيخ بسام قاصدًا تفقد المقاتلين والأحوال العامة لأهل المخيم، وفي الشارع الرئيس التقى بالشيخ إبراهيم الجبر، واتفقا على الصعود للمنطقة العليا، وفعلًا سارا بحذر حتى يتفاديا طائرات «الأباتشي»، ووصلا قرب حارة الدمج، هناك ناداهم أحد المقاتلين

في عمق العتمة طالبًا منهم «سر الليل»، فعَرَّف الشيخ بسام بنفسه، فإذا هم مجموعة من مقاتلي الجهاد الإسلامي منهم ربيع السعدي وأنور أبو زهو وثائر العزمي قد كمنوا في المكان، فطلب الشيخ بسام منهم أن يوصلوه إلى مكان الشيخ محمود طوالبة، فرافقه أنور أبو زهو، فدخلا البيت الذي كان يأوي طوالبة في حارة الدمج وهو محصن بشكل لافت، فوجد الشيخ محمود ونحو عشرة من المقاتلين، بعضهم دفعه تعب مواجهة الليلة وطيلة النهار لأخذ قسط من الراحة، أما الباقون فهم متيقظون وأيديهم على الزناد، فأعد طوالبة القهوة للضيوف ولمن معه، وجرى نقاش خلال تلك الجلسة حول استخدام العبوات الكبيرة والناجعة ضد الدبابات أم الجرافات، فالتفت الشيخ بسام لرأي الشيخ طوالبة الذي قال:

الدبابات أنجع؛ لأننا في حال ألحقنا الضرر الكبير بدبابات «المركافاة» الجيل الرابع، فإنّ ذلك سيفشل صفقات بيعها لكل من اليابان وباقي دول العالم، وسنلحق الخسارة المادية أيضًا بدولة الاحتلال.

وعندما سُئِلَ عن توقعاته من تقدم الجنود الصهاينة ليلًا، قال «لا أتوقع دخولهم ليلًا؛ لأنهم جبناء، أتوقع أن يبدأوا هجومهم مع انبلاج الصباح».

عاد الشيخ بسام والشيخ إبراهيم إلى منطقة المخيم التي جاؤوا منها وحتى يستطيعا السير في الأزقة لعشرات من الأمتار؛ كان عليهما أن يسيرا بحذر لأكثر من ساعتين ونصف خوفًا من قصف الطيران المتواصل، قبل أن يدخلا في بيت يمضيان ما تبقى من الليلة الثانية من المعركة الملتهبة على كل المحاور.

في اليوم الثاني والثالث والرابع شهد الموقف معارك طاحنة على كل المحاور، وبدأ توارد أنباء ارتقاء الشهداء، وسقوط عدد من الجنود الصهاينة القتلى والجرحى، وكلما تقدم الجنود الصهاينة في المخيم من كل جوانب المخيم مترًا واحدًا؛ تصاعد التصدي والقتال الشرس، وهنا نسوق بعض الأمثلة على معارك حصلت في المخيم من قبيل الاختصار في معظم حواري المخيم:

في أقصى شمال الحارة الغربية حيث بيت الشيخ محمود طوالبة، كان أول بيت تسلل إليه

الجنود في اليوم الثاني بيت المرحوم أبو سري سمور، هناك هاجمهم طوالبة وأبو جندل، فقتلا جنديًا وجرحا آخر، ولم يكتف طوالبة بذلك، بل صعد بيتهم المحاذي لبيت أبو سريّ، وألقى على البيت الذي كانوا فيه عبوة كبيرة، جعلت الجنود والضباط يهربون من المكان، وهم يحملون قتلاهم وجرحاهم.

وفي الحي الذي يضم بيت أم بسام شافع السعدي، كَمَن هو وأبو جندل وعدد من المقاومين خلف ساتر من أكياس الرمل، فلما تقدم ضابط من الطريق القادم من جهة بيت علي الحويطي نزولًا باتجاه بيت أبو حسام السعدي، أومأ أبو جندل لمن معه بتركه يتقدم، فلما تقدم الثاني، أطلق عليهما النار، فقتلهما؛ لتشتعل هناك معركة طاحنة استمرت لساعات تحت وابل من صواريخ الطائرات.

في الجهة الشرقية، أي في حارة الدمج كان القائد ثابت المرداوي يكمن هو ومجموعة من المقاتلين على سطح بيت متقدم من الجهة الشرقية، وقد أخفوا أنفسهم تحت بطانية وضعت فوقهم على سطح المنزل حتى لا تكتشفهم الطائرات، فتقدم ثلاثة جنود من دبابات كانت قريبة من المكان، فأطلقوا عليهم النار، فسقطوا بين قتيل وجريح، وقد حاولت مجموعة أخرى من الجنود إخلاءهم، لكنهم هم أيضًا وقعوا تحت نيران المجاهدين والمقاومين، واستمرت المعركة لأكثر من ساعتين ونصف، وأصيب وقتل خمسة آخرون منهم، وتقدم ثلاثة آخرون فذاقوا ما ذاق أصدقاؤهم، فكانت الساحة المقابلة للمقاتلين تعج بأحد عشر ضابطًا وجنديًا محتلًا مضرجين بدمائهم بين قتيل وجريح، فقام الطيران بإطلاق عشرات الصواريخ على بيوت ذلك الحيّ، الذي اشتعل قسم من بيوته، فهب طوالبة من بعيد، ووصل المكان وقام بفتح أحد نوافذ البيوت المحترقة بمهدّة، مُخرجًا سكانه من البيت عبر النافذة، ومنقذًا لهم من الموت المحقق، وهم من آل غريب الذين كانوا تحت القصف الشديد، وارتقى منهم شهيد.

وفي مكان آخر، استخدمت قوات الاحتلال الكلاب المدربة التي تحمل على رأسها كاميرات تصوير دقيقة تبث التصوير عبر جهاز مثبت عليها إلى الطائرات ووحدات القيادة، فأطلق أشرف السعدي النار على ذلك الكلب فقتله، فشرعت الطائرات بقصف ذلك البيت

والبيوت المجاورة بوابل من الصواريخ، وكان بعض المقاتلين يصنعون من الحدث الماثل أمامهم فرصة للاتقاء من القصف، كأن يلوذوا بالبيوت التي تعرضت للقصف بعد توقفه، بالرغم من اشتعال النار فيها؛ لأنهم لاحظوا أن القصف لا يعود ثانية على نفس المكان في الغالب، كما كانوا يتقون القصف بالالتصاق بالأعمدة الإسمنتية، ومداخل الدرج، وكان مع أشرف السعدي في ذلك المكان الحاج علي الصفوري وعبد الله الوحش ومجموعة من المقاتلين.

كما وقع أحد الجنود المحتلين الغزاة جريحًا في منطقة شرق المخيم، ولم يستطع زملاؤه الوصول إليه من كثافة النار، فقضى ليلته يصرخ وينادي ويقول باللغة العبرية «جاي.... أني إميت» كما ذكر لاحقًا بعض المقاتلين الذين كانوا في المكان.

ويذكر الشيخ بسام أنه عندما اعتقل لاحقًا، والتقى بالأسير ثابت مرداوي أخبره أنه كان في بيت من البيوت في وسط المخيم، وهذا البيت مطل على بيت مجاور ملاصق، وكان هناك شباك صغير مفتوحًا يطل على غرفة في البيت المجاور، فشاهد شخصًا يلبس خوذة عسكرية على رأسه، تردد المرداوي قليلًا قبل أن يطلق النار؛ لأن كثيرًا من المقاتلين كانوا يرتدون خوذات عسكرية أيضًا، فلما التفت ذلك الشخص، وبان وجهه، وتأكد المرداوي أنه جندي صهيوني، أطلق عليه النار، فأصابه إصابة قاتلة في الحنجرة، بعدها جرى اشتباك، تعرض خلاله المرداوي لرصاصة قذفته خارج البيت بعدما أصابت سترته الواقية من الرصاص التي كان يرتديها عندما كان يحاول تغيير مكانه الذي أصبح تحت مرمى صواريخ الطيران.

ويذكر الشيخ بسام أن المواطن العادي وغير المقاتل كان في المخيم فدائيًا ومشاركًا في المعركة في كل الحالات حتى عندما كان جنود الاحتلال يجبرونه على أن يكون أمامهم كدرع بشري، فيذكر أن شابًا يدعى خالد تركمان، يقع بيته في أقصى الجهة الشرقية من المخيم، اقتحم الجنود بيته، واقتادوه ليكون أمامهم درعًا بشريًا لاقتحام البيوت المجاورة، وكان يعلم بوجود مقاتلين في بيت جيرانهم المجاور، فأجبره المحتلون تحت تهديد السلاح على السير أمامهم، ودخول البيت المجاور واللصيق ببيتهم، فلما دخل باب ذلك البيت صرخ بالشبان المقاتلين المتحصنين بالبيت «ورائي جنود» وارتمى أرضًا، فجرى اشتباك عنيف بين المقاتلين وجنود الاحتلال تمكن خلاله

الشاب خالد من الإفلات من الجنود المحتلين الذين تقهقروا للخلف، وانضم لإخوانه المقاتلين حتى نهاية المعركة.

ويضيف الشيخ أنه حتى كبار السنّ كانت لهم مواقف مشرفة وبطولية في المعركة، فالمرحوم أبو سمير السولمي الذي يقع بيته على أطراف حارة الحواشين من الجهة الجنوبية الغربية، كان يزدحم بالمواطنين من كبار السن والنساء والأطفال، فاقتحم الجيش الغازي بيته، وفتش كل الغرف ودقق في بطاقات الهوية لكل الموجودين، وأراد الضابط دخول الحاكورة التي تقع خلف البيت، والتي تجاور نوافذ ثلاثة بيوت مجاورة يعتقد أنها تأوي عددًا من المقاتلين، وطلب الضابط من أبو سمير الدخول أمامه إلى تلك الحاكورة، فرفض أبو سمير، وطلب من الضابط إعفاءه من هذا العمل، لكن الضابط هدده بالقتل إن لم يسر أمام الجنود، فرفع أبو سمير صوته عاليًا؛ حتى يسمع الشبان الموجودون في تلك البيوت الملاصقة، عندها أشهر الضباط السلاح على أبو سمير، فسار أبو سمير أمامه وفتح له باب الحاكورة، ووقف جانبًا ليشاهد ما الذي سيجري، عندها دخل الضابط والجنود وأصبحوا في منتصف الحاكورة، فانهال عليهم الرصاص من كل نافذة من النوافذ المحيطة، فقتل جنديان وأصيب جنديان آخران وهرب الباقون، فصرخ أبو سمير في وجه الضابط ساخرًا منه وقال:

«مهو أنا قلتلك بلاش تفوت الحاكورة»

سمو الروح

كان القائد الشيخ محمود طوالبة متميزًا بكثرة الحركة والتنقل والمواجهات في كل حواري المخيم ونقاط التماس، ليس للقتال والمشاركة فيه فقط، بل كان أيضًا ينقل التموين على عاتقه، ويقدمه للعائلات التي بدأت تشعر بفقدان الطعام بعد عدة أيام من المعركة، ومع تقدم قوات الاحتلال في أكثر من حيّ من أحياء المخيم، أصبح حيّ الحواشين الواقع في قلب المخيم ملاذًا للمقاتلين والنواة الصلبة والقاسية في المواجهة، وقد التقى الشيخ محمود في أيامه الأخيرة مع كل

من شادي النوباني، وصديقيه إياد أبو الليل وعبد الرحيم فرج وكانوا في المعركة ضمن تشكيليْ سرايا القدس وكتائب عز الدين القسام.

تحصن أربعتهم في بيت جواد القاسم الواقع أقصى شمال غرب حيّ الحواشين، كان طوالبة يحمل حقيبة محشوة بالمتفجرات شديدة الانفجار تزن حوالي اثنتي عشرة كيلو غرامًا، وكان يريد تفجيرها في حال اقتحمت قوات الاحتلال عليه وعلى من معه في المنزل، وكان يخطط أيضًا لأسر جنود إن تمكن من ذلك؛ للمساومة عليهم في فك الحصار عن المخيم، وقد صد هجومين على ذات المنزل خلال الساعات التي تواجد فيها في ذلك البيت، الهجوم الأول كان بعد أن تقدمت قوة راجلة كبيرة من جنوب البيت، فأُمطرت بوابل من الرصاص، وهربت باتجاه بيت أبو العبد الزبيدي المجاور إلا جنديًا واحدًا أصيب، ولم يتمكن من الهرب، فأصبح نصف بطنه وفخذاه مكشوفين تمامًا لرصاص المقاتلين، وقبل أن تسارع دبابة «المركافاة» لحجبه عن الرصاص، كان قد أصيب بأكثر من مائة رصاصة.

الهجوم الثاني كان من جهة بيت أبو محمود أبو الهيجاء الذي لا يبتعد عن البيت الذي يتحصن فيه طوالبة سوى خمسة أمتار، فتمكن ومن معه من صد الهجوم، وإصابة الضابط الذي قاد الهجوم؛ الأمر الذي أرغم تلك الوحدة على الانسحاب، والابتعاد أكثر من مائة متر، واللجوء إلى بيت مقابل.

كان طوالبة ومن معه صائمين، فأفطروا مع الغروب على قطع من البسكويت وجرعة من الماء، وكان للبيت منفذ وطاقة خلفية، فاتفق أربعتهم على المناوبة في حراسة المنفذين، ولما انتصف الليل، بدأ المنزل يتعرض لقصف من الطائرات بشكل جنوني، دخل الصاروخ الأول الغرفة التي كان فيها طوالبة وشادي النوباني وعبد الرحيم فرج، وكان إياد أبو الليل عند باب الغرفة، يقول إياد: فقدت الوعي لفترة ثم أفقت، فوجدت جثة مقطعة حولي، فعرفت عبد الرحيم فرج من سنّ الذهب البادي من ثغره، أمّا الشهيد طوالبة فلم أستطع أن أشخصه، ووجدت شادي النوباني يجلس على الكرسي على بعد مذهولًا ولم يمسسه سوء، فسألته عما جرى، فقال: لا أعرف، بعدها تكاثر القصف على البيت، فزحفت خارج الغرفة إلى أسفل مصعد الدرج، وأنا مصاب بالجروح والحروق.

في الوقت الذي تواصل فيه قصف الطيران لذلك المنزل، والذي بلغ سبعة عشر صاروخًا، أتت بمساعدة الجرافة الضخمة على المنزل بأدواره الثلاثة؛ ليرتقي ثلاثتهم، بعد أن تمزقت أجسادهم، وليبقى إياد أبو الليل خلف مصعد الدرج الذي تبقى من البيت، بين فقدان الوعيّ والاستيقاظ، مع الجوع والعطش، وقد دفعه الجوع لتحسس ما حوله، فلمس وعاءين كبيرين ففتحهما، فوجدهما يمتلئان بالجبنة البلدية، فتناول منهما ما يقيم أوده، حتى جاء صاحب البيت (جواد القاسم) في اليوم الثالث على الهدم، فاكتشفه، ورتب له حيلة تجاوز فيها مراقبة الجنود والدبابات، ورُحِّلَ للحارات البعيدة من المخيم، ومن ثم نُقِلَ للمشفى، لكنه واصل الفعل المقاوم وارتقى شهيدًا ولحق برفاق دربه بعد أشهر في اشتباك مسلح.

عصف الكمين

في اليوم الثامن للمعركة، كان الشيخ بسام قد لجأ إلى بيت والده منذ أربعة أيام، في ذلك اليوم، لم يتبق من المخيم خارج سيطرة الاحتلال إلا حيّ الحواشين، هناك ازدحمت المنازل والبيوت بالمقاومين المصرّين على مواصلة القتال بالرغم من النداء عبر مكبرات الصوت للخروج وتسليم أنفسهم، والتهديد بقصفهم بالطيران الحربي من طراز «إف 16» الذي حلّق لبعض الوقت في سماء المخيم.

حلت ساعات العصر، فورد اتصال للمقاتلين يفيد أن هناك عملية تجمع لوحدات عسكرية خاصة شرق المخيم خلف مشفى الشهيد الدكتور خليل محمود سليمان، فاتخذ المقاتلون قرارًا بالصمت والهدوء وعدم التنقل، والاستعداد لاقتحام الحيّ، فساد الهدوء التام، حتى ظن المحتلون أن المنطقة فرغت من المقاتلين، وأن تمشيطها وتفتيشها سيكون سهلًا.

في الساعة الرابعة من فجر اليوم التاسع، تقدمت الوحدة الأولى من تلك القوات لتمشط الزقاق الثاني من حيّ الحواشين، فدخلت الوحدة المكونة من ثمانية وعشرين ضابطًا وجنديًا من وحدة «إيجوز» التابعة لهيئة الأركان الصهيونية مباشرة، سارت في الشارع الرئيس مائة متر، ثم دخلت زقاق الرزي لعدة أمتار بحذر شديد، ثم تقدمت لتكون في قلب زقاق أم راضي، هناك كانت البيوت مليئة بالمقاتلين، تقدم ضابط تلك الوحدة، فاقترب من شباك بيت أم راضي وسط

ظلمة شديدة بفعل انقطاع التيار الكهربائي منذ اليوم الأول للمعركة، وما أن التصق بالشباك حتى أفرغ مقاتل في صدره صلية من الرصاص أردته قتيلًا على الفور.

لينفجر الوضع، وتخرج على القوات المتسللة نار جهنم من كل الجهات، معركة لأكثر من عشر دقائق إلى ربع ساعة تقريبًا، في حصار ناري من جميع الجهات وقتال لتلك الوحدة من مسافة الصفر، نتج عنها مقتل ثلاثة عشر جنديًا وضابطًا وجرح سبعة، وهروب الثمانية الباقين من المكان وفي قمة الشعور بنشوة الانتصار من قبل المقاومين، وطئت أقدام بعضهم جثث الغزاة، وقام بعضهم بنزع القلائد العسكرية من على رقابهم لحفظها، وجروا بعض الجثث إلى داخل أحد البيوت للمساومة عليها، كما سيطروا على أسلحتهم المتميزة.

طلب المحتلون وقف النار عبر الصليب الأحمر الدولي حتى يخلوا قتلاهم من المكان، رفع الأمر للرئيس أبو عمار المحاصر في المقاطعة في رام الله، فبكى (كما ذكر بعض من كانوا معه) بعد أن شعر أن الدعم المعنوي قد جاءه من المخيم في الوقت الذي خذله كل العالم، وأعاد الأمر للقيادة الميدانية في المخيم، فبدأ المحتلون بقصف مجنون على تلك المنطقة، وقد ارتقى في تلك المعركة كل من الشهداء نضال النوباني، ومحمد مشارقة، وأمجد الفايد وشقيقه محمد وغيرهم من الشهداء، واستشهد منهم لاحقًا الشهيد عبد الهادي العمري في كمين للقوات الخاصة في السيلة الحارثية، وقد غنم بعضهم الأسلحة المتطورة لدى تلك الفرقة الخاصة، والتي كان مثبتًا عليها مجسّات تحدد مكان وتحرك الجنود، فاستغل الطيران تلك الثغرة وشرع بقصف مُركّز وعنيف نحو أولئك المقاتلين.

وقد وصل فورا إلى مكان قريب من المخيم رئيس وزراء العدو وقتها «أرئيل شارون» ووزير حربة «بنيامين بن العيزر» ورئيس أركانه «شاؤول موفاز»، وعقدوا اجتماعًا ميدانيًا مع عدد من الضباط، وقرروا وقتها إدخال إحدى عشرة جرافة ضخمة من نوع 9 لجرف حيّ الحواشين بالكامل، والأحياء المجاورة، وأي مكان يوجد فيه مقاتلون، وعلى مدى أربعة أيام، مسحت جرافات من على وجه الأرض أكثر من أربعمائة وسبعين منزلًا في الحيّ المذكور، والأحياء المجاورة، كما قامت وحدات الهندسة بتفجير بعض المنازل التي عثر فيها على عبوات ناسفة ومواد متفجرة.

وحدثت في ذروة المعركة عملية استشهادية نفذها راغب جرادات ابن الثمانية عشر عامًا في حافلة تقل جنود وضباط ما يسمى مصلحة السجون الصهيونية، قرب مفرق الياجور في منطقة حيفا، والجدير بالذكر أن راغب هذا كان ضمن المقاتلين المدافعين عن المخيم خلال اجتياح شهر مارس (آذار)، وأسفرت عن مقتل اثني عشر جنديًا وضابطًا، وأصابت العشرات، وهو من بلدة سيلة الحارثية، وأحد أعضاء الجهاز العسكري لحركة الجهاد الإسلامي (سرايا القدس)، وقد شكّلت عمليته التي قادها الشهيد خالد زكارنة ضربة نوعية لعملية السور الواقي في ذروتها، كما أعطت دعمًا معنويًا هائلًا للشعب الفلسطيني، وخلقت يأسًا عميقًا في المجتمع الصهيوني ومنظومته الأمنية، نظرًا لتوقيت العملية، ونجاح المنفذ في اختراق ميدان المعركة في جنين، والتجول في قلب حيفا، وخاصة في محطة الباصات المركزية، والانتقال عبرها لضرب هدف أمني محكم قرب مركز تحقيق الجلمة المختص بتعذيب الأسرى.

في الأيام الأربعة الأولى كان الشيخ بسام يتحرك في حواري المخيم، يتفقد المقاومين والعائلات، ويمدهم ببطاقات الاتصال، والمواد الغذائية، وكان يلمس من ردود فعل المقاومين عندما يزورهم ويطمئن عليهم أن معنوياتهم ترتفع، حتى جاء اليوم الخامس، فتوجه إلى بيت والده في أقصى شمال المخيم، وقد وصله بصعوبة بعد مغامرة خطرة، فعلم أن قوات الاحتلال تطوق الحي الذي يوجد فيه، وأن بعض البيوت المجاورة قد احتلت، وأن بيتهم على وشك الاقتحام، فصعد إلى «السدة» التي تعلو المطبخ، ودخل منها لسدة أخرى مخفية خلفها من خلال شباك يتهيأ لمن يراه أنه يطل على الحيّ، في حين قامت والدته المسنة بالنوم في المطبخ أمام طريق تلك السدة، وتظاهرت بالمرض الشديد لإعاقة تحرك الجنود في حال دخولهم المنزل.

حمل معه في مخبئه هاتفًا نقالًا ومذياعًا صغيرًا، فاقتحم الجنود البيت، وشرعوا بالتفتيش، سألوا عن حالة الأم المسجاة في المطبخ، فقيل لهم إنها عجوز مسنة مصابة بالفالج، فعرضوا تقديم خدمة علاجية لها من خلال طبيب عسكري معهم، لكن أفراد العائلة رفضوا، وقالوا لهم ليست بحاجة إلى طبيب، هي تتلقى الأدوية فقط، وقد تعرض ذلك البيت للتفتيش ثلاث مرات، وكل مرة يكون البحث والتفتيش لا يقل عن ساعة، ثم انتقلوا إلى بيت مجاور، كان الشيخ يخرج

للضرورة أحيانًا، ويجلس مع أشقائه وأهل بيته أحيانًا أخرى، وكثيرًا ما تعمد تناول وجبات خفيفة من الطعام، وهو في مخبئه.

في اليوم الثامن، وعندما اشتد القصف والقتال، وقد استغرب هو وأشقاؤه مما يجري، وأن هناك أمرًا مذهلًا وقع، ففتح المذياع على محطة «البي بي سي» البريطانية، ليعلم من خلال مقابلة مع الناطق باسم الحكومة الصهيونية المدعو «جندلمان» أن ثلاثة عشر جنديًا قد قتلوا دفعة واحدة في كمين، وأن سبعة آخرين قد أصيبوا، وأن رئيس الوزراء الصهيوني ووزير حربه ورئيس أركانه قد قدموا للمكان.

فقال الشيخ لأشقائه سيهدم شارون المخيم أو المنطقة التي وقع فيها الحادث، أو ربما يفتح الشوارع العريضة للسيطرة عليه، فهذه سياسته المتمثلة بسياسة «الحلق» التي كان ينتهجها في قطاع غزة عندما كان يتعرض لهجوم في نهاية الستينيات وبدايات السبعينيات.

طهارة الوريد

وفي الجانب الإنساني، يقول الشيخ بسام إن ما جرى في تلك المعركة غير المتكافئة في العدة والعتاد؛ قد أفرز الكثير من القصص الإنسانيّة التي تحمل في طياتها رمزية الصمود، وبطش الاحتلال وصلفه، منها قصة السيدة حنان أبو الرب، إحدى حرائر المخيم التي كانت في أمسّ الحاجة إلى وحدات من الدم، بعد ميلادها العسير، والتي عرض عليها الجنود تقديم الوحدات اللازمة لإنقاذ حياتها فرفضت بشدة؛ كان رفضها كرفض المجاهدين والمقاومين في مخيم جنين التراجع، وتصميمهم على المضيّ إلى الشهادة والخلود.

يروي الشيخ بسام عن هذه القصة الإنسانيّة المقاومة فيقول:

السيدة حنان أبو الرب (40 عامًا) كانت قد أكملت شهرها التاسع من الحمل مع بداية شهر أبريل (نيسان) عام 2002م، وعندما بدأ الاجتياح، التزمت مع أطفالها وزوجها البيت، في جو مخيف ومرعب، حيث الدبابات وناقلات الجند المتمركزة قرب المنزل الذي تسكنه، تقصف

المخيم من الجهة الغربية، وفي اليوم التاسع للمواجهة شعرت بألم المخاض، فتسللت إلى منزلها ثلاث نساء من الجيران إحداهن تدعى (أم أحمد خليل) وكانت تتقن اللغة الإنجليزية، فقررن نقلها إلى المشفى الرئيسي في المدينة، والمجاور للمخيم من الجهة الشرقية، بعدما أدركن صعوبة وضعها الصحي.

كانت المسافة بين منزل السيدة حنان والمشفى لا تتعدى كيلو مترًا واحدًا، لكنها محفوفة بالموت والدمار، فسارت النسوة الأربع باتجاه أزقة المخيم يحملن راية بيضاء خوفًا من تعرضهن للموت برصاص الجنود الصهاينة، فاعترضتهنّ الدبابة الأولى، وبعد جدال طويل، سُمح لهنّ بدخول أزقة المخيم من الجهة الغربية، وبعد أمتار معدودة، شاهدن جثة الشهيد المُسنّ محمود الحمدوني (72 عامًا)، وكان منظرًا مرعبًا، وعلى بُعد عدة أمتار من تلك الجثة، كانت هناك ساق مبتورة ملقاة على الأرض، فواصلن السير حتى اصطدمنَ ثانية بفرقة أخرى من الجيش، فأعادوهنَّ من حيث أتين.

لكنهن وعلى وقع تزايد الألم أصررن على التقدم، فسرنَ باتجاه مدرسة البنات الابتدائية التابعة لوكالة الغوث، وهناك اعترضتهنّ فرقة أخرى، وأمطرتهنَّ بوابل من الرصاص، تطاير من فوق رؤوسهنّ وأمامهنَّ وحولهنّ، فهربنَ على عجل، وتوجهن إلى الأعلى، مرورًا من أمام منزل السيد خالد السعدي، وهناك شاهدنَ خمسة جثث لشهداء مقاتلين قد مزقتهم القذائف منهم الشهيد مصطفى الشلبي والشهيد نضال سويطات، ثم عطفن إلى وسط المخيم، ومنه إلى حارة الحواشين حيث رأين الجرافات العملاقة التي يزيد عددها على العشر، وهي تقوم بجرف البيوت بمن فيها، فتسلقن أكوام الركام، وتوجهن إلى الساحة الرئيسية في المخيم، وهناك اعترضتهنَّ فرقة أخرى، وقام ضباط وجنود هذه الفرقة بتهديدهنّ بالقتل، وكان الألم يشتد مع السيدة حنان، وأم «أحمد خليل» تتحدث معهم باللغة الإنجليزية بشكل شاق لتوضح حالتها، وبعد دقائق قاسية مرت عليهن، سُمح لهنّ بالمرور للمشفى، بشرط أن يسلُكن الطريق الخارجي، فأسرعن الخطا، ومررن بأرتال الدبابات حتى وصلن إلى مسافة مائة متر تقريبًا من باب المشفى الذي كان يعج بالدبابات.

في هذه اللحظة، قفز من تلك الدبابات عدد من الجنود، واتخذوا لهم مواضع قتالية، وسددوا نحوهنَّ فوهات البنادق، وصرخوا بواسطة مكبرات الصوت قائلين:

لا تقتربن وإلا سنطلق النار!

وطالبوهنَّ بالجلوس أرضًا على الفور، صرخت (أم أحمد خليل) باللغة الإنجليزية وهي تشرح حالتها، فلم يكترثوا لها حتى خرج متطوع ألماني الجنسية من جمعية الهلال الأحمر المجاورة، وتقدم نحو الجنود، وتحدث معهم فاتفقوا معه على أن تتقدم السيدة حنان وحدها، وأن تذهب باقي النسوة إلى الجمعية المجاورة، وعندما اقتربت من الدبابات التي تسد باب المشفى، صرخ أحد الضباط:

ارفعي جلبابك لنتأكد أنّك حامل، وأنّك لا تخفين العبوات!!

وأضاف صارخًا: إنّكم مخيم إرهابيين!!

رفضت بشدة، فحاول المتطوع الألماني إقناعها بعد أن هددوها بإطلاق النار، فرفضت بشدة أكثر، وصرخت، فترجل أحد الضباط من الدبابة، وضربها ببندقيّته فسقطت أرضًا، وارتطم رأسها بعمود للكهرباء فأُغمي عليها.

أفاقت في المشفى على جمهرة الأطباء والممرضات الذين شرعوا بتقديم الإسعافات الأولية لها، وبعد أن قام الطبيب النسائي بفحصها قال:

لابد من إجراء عملية جراحية لإخراج الجنين.

مدير المستشفى صُعِق؛ إذ لا يوجد ماء، ولا كهرباء، ولا غاز، وحياتها في خطر، ما لم يخرج الجنين فورًا بشكل طبيعي، فلا مجال لإجراء عملية!!

فنقلت فورًا لقسم الولادة، وبعد دقائق معدودة تعرضت غرفة الولادة التي كانت فيها لقصف مدفعي من الدبابات المحيطة بالمشفى، وقد ألحقت القذيفة دمارًا واسعًا، كادت أن تودي بحياتها، لكنها نجت من الموت بأعجوبة.

وبدأت معها رحلة المخاض العسير التي استمرت ثمانية وأربعين ساعة من النزيف الحاد، والإرهاق الشديد، والآلام التي لا تُطاق، ومع انتصاف ليل اليوم الثاني، جاء الفرج من الله، وعندما أوشكت على الميلاد تعرض المنزل المجاور للمشفى والذي يملكه (أبو حسن زكارنة) للقصف بقذائف الدبابات الحارقة، فذهلت، وكاد طفلها يموت من وقع ردة فعلها، لكن حُسن تصرف أحد الممرضين العفوية الذي حلَّ محل القابلة التي هربت من غرفة الولادة فزعًا من القصف، أنقذ حياتها، وحياة رضيعها من الموت المحقق.

بعد ليلة طويلة، بزغ نور الفجر، فشرع مدير المشفى الدكتور «محمد أبو غالي»، بإجراء اتصالات مع الصليب الأحمر الدولي لينسق بدوره مع قوات الجيش التي تحيط بالمشفى من أجل السماح لها بالعودة إلى منزلها، وقد استغرقت العملية عدة ساعات، فوافق جيش الاحتلال بعدها على عودتها للمنزل برفقة ممرضتين من سكان المخيم، فسرن ثلاثتهنَ في أزقة المخيم حيث الدمار والخراب، وعندما همت بالخروج من المخيم من الجهة الغربية حيث منزلها، اقتربت منها ثلاث دبابات وحاصرتها، فطلب منها ضابط إحدى هذه الدبابات، إلقاء ما بيديها يقصدون الطفل الوليد، فقالت لهم:

إنّه طفلي الذي لم يتجاوز عمره أربعة وعشرين ساعة.

فقال: أنت تكذبين، ما تحملينه هو عبوات أو متفجرات!! أنتم مخيم إرهابيين.

وبعد جدال طويل، أطلقوا النار فوق رأسها، وطالبوها بالعودة من حيث أتت إلى داخل المخيم الذي فرغ من أهله تمامًا، ولم يبق إلا الجرافات الضخمة التي تسوي بيوته بالأرض، عادت إلى الخلف قليلًا، فشعرت بدوار، وأغمي عليها، فوقع الطفل من يدها، وتدحرج بعيدًا وهو يصرخ، ولم تَصْحُ «السيدة حنان» إلا عندما قام أحد الجنود بضرب رأسها بحجر بحجم الكف، فسمعت صوت ابنتها «ميس» التي كانت وقتها ابنة الستة عشر عامًا، وهي تحاول التقاط أخيها الوليد من على الأرض، وقد أحاط الجنود بذلك الوليد بالبنادق، لم يحتمل الجيران هذا المنظر، فتقدمت جارتها (أم معاذ) رغم الخطورة الكبيرة على حياتها، وتجرأت وتحدثت بالإنجليزية مع الجنود قائلة:

إنّ الطفل وأمه سيموتان إن بقيا على هذا الوضع.

أخيرًا وافق الجنود على مرافقتها إلى المنزل، بعد أن فتشوا الطفل عدة مرات، وتأكدوا أنه طفل رضيع وليس متفجرات!!

عادت إلى المنزل، ودخل معها أكثر من عشرين جنديًا وضابطًا، فأصيب أطفالها بالهلع والخوف الشديد، وتقدمت منها ابنتها «ميس» وهمست في أذنها وأخبرتها أن هناك مقاومَيْن مسلحين في منزلهم، وهما يتحصنان في غرفة الغسيل على السطح، وأن الجيش يهم بالصعود، الأمر الذي ينذر بمعركة وشيكة، إزاء هذا الوضع كان لابد لها أن تتصرّف رغم حالتها الحرجة، تظاهرت بوجود ألم شديد، وبدأت تصرخ بشدة، تجمهر الجنود حولها، طلبت منهم أن يرسلوا لها بطلب الممرضة (أم معاذ)، فوافقوا على عجل من شدة صراخها، وهم يكيلون لها السباب والشتائم، فذهبت ابنتها وطلبت من (أم معاذ) أن تأتي بسرعة، فجاءت، وهمست السيدة حنان بأذنها بعد أن تراجع الجنود إلى الخلف، ففهمت قصدها وخاطبت (أم معاذ) الضابط المسؤول قائلة:

إذا أردت أن يتوقف الصراخ، أخرج جنودك من المنزل؛ لأن منظرهم يزيد من سوء حالتها شيئًا فشيئًا، وقد تموت، فوافق الضباط، وانسحب مع جنوده إلى خارج المنزل، فصعدت (أم معاذ) إلى سطح المنزل خلسة، وأخبرت المقاومين بوجود طريقة آمنة للانسحاب، قبل أن يقتلا على يد الجيش المحتل.

ويضيف الشيخ بسام، بعد ذلك عاد الجيش مرة ثانية، ولكن هذه المرة برفقة طبيب عسكري قام بفحصها، وقال:

إنّها بحاجة لأن تنقل إلى مشفى «رامبام» في حيفا، لكنها رفضت على الفور، ثم توجه إلى إحدى الدبابات، وأحضر عدة وحدات من الدم، وجهازًا خاصًّا من أجل تزويدها به، خاصة وأن نسبة الدم كانت منخفضة عندها! لكنها رفضت بشدة وقالت:

إنه أمر مفزع، كيف أتلقى الدم من الجيش المحتل الذي قتل ودمر وارتكب المجازر بحق أهلي وأبناء مخيمي؟

بقي الجيش في المنزل عدة ساعات أخرى حتى جاء الصليب الأحمر الذي أحضر الأدوية وبعض المؤن.

ولا تتوقف القصص الإنسانيّة عند هذا الحد، بل إنّ ذكرها يحتاج لمجلدات، وخاصة في الجانب النسوي، فيذكر الشيخ بسام كيف التقى في أحد الأزقة القريبة من بيته بالسيدة مريم الوشاحي (أم مروان) التي كانت تعدّ شطائر الزعتر والجبنة والمعجنات للمقاتلين، وتحملها على رأسها، وتدخل لطرقات وأزقة المخيم، وتقدمها للمقاتلين، وكان لها شاب في مقتبل العمر اسمه «منير» يقاتل بشراسة في المعركة، وقد أصيب إصابة بالغة، وأمضى ثلاثة أيام يتألم ويحتضر حتى ارتقى شهيدًا.

يقول الشيخ بسام: عندما التقيت (أم مروان) وسألتها:

لماذا لا تحملين هاتفًا نقالًا حتى يسهل عليك التنقل والتواصل في مهمتك الخطرة؟

فقالت: الله هو المنجي، روحي ليست أهم من أرواح الشباب.

التحقت (أم مروان) بابنها شهيدة برصاص قناص محتل، وهي تخبز الشطائر تردد «التراويد» الشعبية المشبعة بالحزن والخوف على فلذة كبدها وباقي المقاومين، وهي لا تعلم أن روح «منير» قد سبقتها بساعات إلى جنة الرضوان، وكان منير مسؤولًا عن الإطار الطلابي للجهاد الإسلامي في مدارس المدينة والمخيم.

وهناك نماذج كثيرة من النسوة كبار السن وصغارهنّ قد عملن بإصرار وحيوية دائمة في مؤازرة المقاتلين، مثل الحاجة المرحومة (أم محمد أبو سرية) التي كانت تملك بطارية كهرباء كبيرة تعمل من خلالها على شحن بطاريات الهواتف النقالة للمقاتلين.

وكان للسيدة (أم إبراهيم) زوجة الشيخ بسام وأم الشهيدين عبد الكريم وإبراهيم؛ دور في مساندة المعركة، مثلها مثل الكثير من النسوة اللاتي عملن بتفان وإخلاص لدعم صمود الأبطال المقاتلين بأكثر من شكل ووسيلة بعيدًا عن أضواء الكاميرات وأخبار الصحف، بالإضافة إلى

المجاهدة (أم علي العويس) التي خدمت الجميع، ولم تقصر بأحد، وغيرهنّ من النساء اللواتي قدمن مساعدات كبيرة للمجاهدين تحت القصف، وفي أحلك الظروف.

ومن القضايا الإنسانيّة القاسية التي مرت بها معركة مخيم جنين، استشهاد جمال الصباغ (أبو خالد) وكان أحد مواطني المخيم، أجبره الاحتلال على النزول إلى ساحة المخيم برفقة نعيم الزبيدي، وعندما وصلا إلى ساحة المخيم الرئيسية، طلب منهما الجنود أن يخلعا ملابسهما سريعًا، فرفع نعيم عن وسطه بسرعة كونه شابًا، أما جمال الصباغ فقد كانت صحته لا تساعده بأن يقوم برفع ملابسه بالسرعة المطلوبة، فأطلق عليه الجنود النار فورًا، فارتقى شهيدًا، ولكن من صلف وحقد المحتلين على أبناء هذا المخيم، تركوه ينزف حتى فاضت روحه إلى باريها، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذت دبابة «المركفاة» التي تزن خمسين طنًا تروح وتجيء على جثته الطاهرة حتى التصق لحمه المهروس بالأرض.

وكان استشهاد الشابين وضاح الشلبي وعبد الكريم السعدي مؤشرًا على دموية المحتلين، فبعد أن أُخرج الاثنان من البيت، تم صلبهما على الجدار، وطلب منهما رفع الملابس عن وسطيهما، ففعلا، وكان عبد الكريم يعاني من ألم في الظهر، وقد ربط على وسطه حزامًا طبيًا، فلما شاهد المحتلون ذلك أطلقوا النار عليهما فورًا وقتلوهما، ثم ابتعدوا قليلًا، فخرج والد وضاح باحثًا عن ولده فوجده قد ارتقى هو وابن جيرانهم، فعاد الجنود ثانية لمكان الجريمة للتنكيل بهما من جديد، فخشي أبو وضاح أن يقتلوه، فقام بدهن وجهه بالدم، وتظاهر أنه شهيد ارتقى بين ابنه وابن جيرانه حتى تمكن من الإفلات من الموت المحقق.

انجلاء الغبار

بعد ثلاثة عشر يومًا من المعارك الشديدة، وبعد جرف مئات البيوت وهدمها هدمًا كاملًا، وإصابة مئات البيوت الأخرى بهدم جزئي وأضرار بالغة، وتدمير الشوارع والطرقات، استيقظ العالم على هول ما جرى، وكانت الخسائر البشرية على النحو التالي:

• الجانب الفلسطيني: 64 شهيدًا (58 + 6 شهداء ارتقوا في طوباس منهم القائد القسامي قيس عدوان)، منهم 29 مقاتلًا، و35 مدنيًا، ونحو سبعين جريحًا، وتهجير الآلاف من سكان المخيم، وأسر المئات من شباب المخيم ورجاله، أفرج عن قسم منهم، وبقي نحو 166 أسيرًا، بعضهم لا زال يقضي السجن المؤبد عدة مرات حتى وقتنا الراهن، وهدم 470 بيتًا بشكل كامل، وأضرار جسيمة في باقي بيوت المخيم بنسب متفاوتة، وتدمير كامل للبنى التحتية في المخيم.

• الجانب الصهيوني المحتل: اعترفت إحصائيات الإعلام الصهيوني الرسمية بمقتل 27 ضابطًا وجنديًا، منهم 13 من قوات النخبة «الإيجوز» و147 جريحًا بجراح متفاوتة بين خطيرة ومتوسطة وطفيفة، وهو ما جاء في إحصائية صحيفة يديعوت أحرنوت، وإعطاب عدد من الدبابات وناقلات الجند وتدميرها، وقد بقي أجزاء من مكوناتها في أرض المعركة أيامًا طويلة.

كان لابد للشيخ بسام من الخروج من مخبئه متخفيًا لتفقد ما جرى، وما أن وقعت عيناه على هول المنظر والمكان، حتى تذكر قول والده المرحوم، وشعر بحجم تبعات هذه المعركة الهائلة، وأنها ستكون درسًا ونموذجًا للإرادة الصلبة في مقاومة المظلوم للظالم، لكنه أيضًا أحسّ بما عليه من واجب إغاثي لإسعاف أهالي المخيم وإغاثتهم من الكارثة التي حلّت بهم.

عاد الشيخ بعد ملحمة المخيم يرتب أوراقه، وسرعان ما أن انضم للجنة التي شكلت من الفصائل والفعاليات كافة والتي عرفت بـ «لجنة إغاثة وإعادة إعمار مخيم جنين»، والتي ترأسها رجل الإصلاح البارز فخري تركمان، وكان من أبرز أعضائها عبد الرزاق أبو الهيجاء وعلي البركات وعطا أبو ارميلة وجمال الزبيدي وجمال أبو الهيجا وعلي الدمج وجمال الشاتي ورشيد منصور وعصام الشلبي ومحمد نمر السعدي ومحمد الشلبي ووضاح الأسمر ومحمد الغول وآخرون، وكان الشيخ بسام ضمن اللجنة المالية في تلك اللجنة، كما كان عضوًا في مجموعة لجان أخرى تشكلت في مجالات مختلفة.

وبدأ الشيخ بسام بحملته الذاتية بعد ساعات من انسحاب القوات المعتدية، حيث اتفق مع محلات الألبسة والأحذية والحوانيت الصغيرة من أجل تلبية احتياجات المنكوبين من ملبس ومأكل ومشرب من خلال هذه الحوانيت، وكان يقوم بتسديد تكاليف تلك الأغراض من

خلال ما تدفق من مال من المحسنين والمتبرعين من صدقات ودعم ومن الأموال الرسمية، كما كان يغطي التزامات كثير من البيوت المتضررة من خزانات الماء البلاستيكية والمعدنية، ويقوم بشراء كثير من أدوات المنزل والقطع الكهربائية للبيوت، كما وزع في إحدى المرات مبلغ مائة وثلاثين ألف شيكل على أصحاب البيوت المهدمة، يرافقه في هذا الجهد الكبير شريف طحاينة حيث كانا مسؤولين عن جمعية الإحسان، وكذلك الشهيد نعمان طحاينة و«أبو مؤمن» جرادات.

كما بادر هو وإخوانه أبو الحسين وأبو مؤمن وشريف نيابة عن حركة الجهاد الإسلامي؛ بتكريم عمال النظافة في كل من بلدية جنين والمخيم ومنح كل واحد منهم مائة دولار، وكذلك أصحاب البسطات التي هرستها دبابات الاحتلال حيث تم منح كل واحد منهم 300 شيكل، وكان مجموع هذا المبلغ مما رصدته الحركة لإحياء ذكرى استشهاد الشقاقي، فاختار الشباب تحويله لهذا العمل الإغاثي.

وقامت حركة الجهاد بشراء منزل لوالدة الشهيد نضال الجبالي بقيمة ثلاثين ألف دولار، ومنح الأسرى من المخيم، ومن أسروا داخل المخيم، وعددهم مائة وستة وثلاثون أسيرًا مبلغ مائتي دينار أردني للمتزوج، ومائة وأربعين دينارًا للأعزب، وقدّم مبلغ أربعة وستين ألف دينار لصالح العائلات المستورة في المخيم، وقدمت عشرات الآلاف من الدنانير الأردنية للبيوت التي هدمت لاحقًا لذوي الشهداء والأسرى المحسوبين على حركة الجهاد وغيرهم لتعويضهم، أو ممن أصيبوا بجراح متفاوتة، وشراء ما يحتاجونه من مستلزمات وأغراض.

أبو عبد الله الأمين

عرف الشيخ بسام القائد الدكتور رمضان عبد الله شلّح (أبو عبد الله) أثناء الإبعاد في مرج الزهور من خلال ما سمع عنه حيث كان الدكتور وقتها يُدَرّس في جامعة «تامبا» في ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما قام الحرس الثوري الإيراني بمد خط اتصال أرضي للمبعدين للتواصل مع أهليهم وذويهم في الوطن المحتل، ولم يكن هناك مجال لحصول اتصال مباشر عبر بدالة لبنان وفلسطين المحتلة، فقد لزم الأمر بدالة ثالثة، أو مقسمًا يقوم بعملية

الربط، فكان الحل عبر الهاتف الخاص للدكتور رمضان شلّح، ومن بيته في الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك جرى التواصل بين المبعدين وذويهم عبر هاتف الدكتور شخصيًا لعدة أيام.

خَلَفَ الدكتور رمضان، الدكتور الشهيد المؤسس فتحي الشقاقي بعد اغتياله في عام 1995م، وأصبح أمينًا عامًا لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وأصبح من الطبيعي التواصل معه لكونه قمة الهرم القيادي للتنظيم، فقام الشيخ بسام بالتواصل معه عبر الهاتف خلال انتفاضة الأقصى خاصة عندما أصبح مطاردًا، وبعد هدم المخيم أيضًا، أجرى الشيخ اتصالًا بالدكتور (أبو عبد الله) وقال له:

ما بال الإخوة يغلقون جوالاتهم، ولا يوجد من يتواصل معنا، ومن سيقوم بالناس؟

فرد الدكتور: اعذرهم، الوضع صعب.

فرد الشيخ قائلًا: ها نحن نتصل معكم من بين جنازير الدبابات.

وقد فتح الدكتور الخط مع الشيخ بسام، وأصبح التواصل مستمرًا، كما كان يجري التواصل أيضًا للتشاور في كيفية النهوض بوضع الحركة، ومعالجة احتياجات أهل المخيم والمحافظة بعد الاجتياح في العام 2002م، وقد توثقت معه علاقة طيبة ومتواصلة، حتى إن الشيخ كان أحيانًا يتصل معه وهو في اجتماع مع أعضاء المكتب السياسي وكامل القيادة، فيتحدث مع الشيخ، ويمرر الهاتف على من هم في الجلسة، يتحدثون مع الشيخ الواحد تلو الآخر، وكان (أبو عبد الله) يتابع شؤون المجاهدين جميعًا، ويحرص على تأمين احتياجاتهم بشكل كامل، ويوصي دائمًا بأخذ الحيطة والحذر، ويقول:

«إنّ هذه المعركة طويلة، يجب أن نخوضها بحكمة وعقلانية، والانتصار على هذا العدو يسجل بالنقاط وعلى المدى البعيد».

وكان الإخوة في لبنان من كوادر حركة الجهاد الإسلامي يتصلون بالشيخ بسام ليتواصل مع الدكتور رمضان عبد الله شلّح عندما تكون هناك قضية أو مشكلة أو مسألة تقتضي التواصل العاجل، وكان الدكتور ـ رحمه الله ـ يتحسس أوضاع الحركة في محافظة جنين، ويتابع أمورها في كل صغيرة وكبيرة، وكان يركز على أن تكون قياداتها وكوادرها وعناصرها بأمان.

يقول الشيخ بسام إنه لمس من خلال التواصل مع الدكتور رمضان عبد الله شلّح أنه عميق الوعي، واسع الثقافة، مفكر على اقتدار عالٍ، يدير الحوار بشكل لافت، فقد كنت أجري معه اتصالات تستمر ساعة ونصفًا أحيانًا.

شهادة الأم وتغريدة الطير

لم يكن هدم المخيم وانتهاء المعركة انتهاء لجذوة المقاومة والجهاد، بل حصلت عدة عمليات بعدها بأسابيع، منها عملية مفرق مجدو التي نفذها الاستشهادي حمزة السمودي والتي وقعت بتاريخ الخامس من يونيو (حزيران) من العام 2002م، وأدت إلى مقتل سبعة عشر جنديًا وإصابة نحو خمسة وخمسين، فقامت قوات الاحتلال باجتياح المخيم من جديد، وحامت الطائرات العمودية في سماء المخيم، وأخذت تطلق نيران رشاشاتها الثقيلة حول المخيم، وكان الشيخ وقتها في المخيم، فتوارى في بيت آمن، واختبأ فيه، حتى هدأت الأوضاع، قام بعدها بالتفكير بالانتقال إلى قرية قريبة خوفًا من دخول الجيش المحتل للمخيم، والقيام بتفتيشه، وبالفعل تمكن من الانتقال لإحدى القرى، في حين قامت قوات كبيرة من الجيش المحتل بفرض منع التجول على المخيم، ومن ثم شرعت بالبحث عن مطلوبين، وقامت بجمع من هم فوق سن الستة عشر عامًا ولغاية ستين عامًا من الذكور في ساحة مدرسة ذكور وكالة الغوث، ومن ثم ترحيلهم إلى معسكر سالم للتحقيق معهم قبل إطلاق سراح معظمهم.

في تلك الأيام داهمت قوات الاحتلال منزل والدة الشيخ، وسألوها عن بسام، فأجابت:

لا أعرف.

فقال لها أحد الضباط: لقد قتلنا بسام، وانتهينا منه.

فأصيبت من فورها بجلطة دماغية، وتم إبلاغ أولادها وكرياتها بما جرى لها، ونقلت لمشفى الشهيد خليل محمود سليمان لكنها كانت قد قضت شهيدة.

علم الشيخ بشهادة والدته، فاحتسبها عند الله، وتابع عبر الاتصال مع إخوته وذويه ترتيبات الجنازة، وقبل أن يغلق بيت العزاء بالشهيدة الوالدة؛ دخلت الدبابات مرة أخرى، فخرج شباب المخيم وأطفاله لملاحقتها ورجمها ورمي النفايات عليها، وتسلقها، فأطلق أحد الجنود الرصاص من إحداها، فأصابت الطفل بسام غسان السعدي ابن شقيق الشيخ بسام، وهو الذي سميّ على اسمه برصاصة قاتلة، ارتقى على إثرها شهيدًا ليتواصل بيت العزاء والتهنئة بالشهادة في ذلك البيت.

رصاصتان في الكبد

بعد معركة مخيم جنين بأيام أتم نجلا الشيخ بسام التوأمان إبراهيم وعبد الكريم سن السادسة عشرة، وقد حملا السلاح في سن الخامسة عشرة، وكان سلاح أصدقاء لهما، وأصبحا مطاردين بعد الاجتياح مباشرة، وقد أصبحا ضمن العناصر المقاتلة التي تسهر على حراسة المخيم من تسلل قوات الاحتلال إليه ليلًا، كذلك كانا يعملان على تأمين المجاهدين المطلوبين لقوات الاحتلال ونقلهم؛ مثل الشهيد القائد حمزة أبو الرب، وقد التحق إبراهيم بوالده في مخبئه في المخيم، وأصبح يمضي معه بعض الوقت، وقد سأل الشيخ ابنه إبراهيم عن شقيقه عبد الكريم، فقال له إبراهيم:

إنّه يحرس قرب بيت أبو مروان الوشاحي،

فقال الشيخ: أخاف أن يرتقي هناك ويقع في الوادي المجاور وتنال منه القطط.

فقال إبراهيم: توكل على الله يا أبي، ولا تقلق.

في تاريخ الفاتح من سبتمبر (أيلول) من العام 2002م، كان الشيخ قادمًا ليلًا من مخبئه متوجهًا نحو بيت أخيه أبو عارف في المخيم، والملاصق لبيت والده، وكانت الساعة قبل صلاة الفجر بقليل، دخل أحد الأزقة، فسمع صوت شبان يسهرون يحرسون المخيم، وعرف صوت ابنه عبد الكريم ومعه خليل المصباح ومعمر الصباح وآخرون، فعاد أدراجه حتى لا يروه، وغيّر

طريقه ومرّ من مكان آخر، فشعر بوجود ضوء سيارة قادم من بعيد، فتعجل وركض حتى يتوارى عنها، فوقع وأصيب في رسغ يده وكوعه، لكنه وقف وواصل المسير، ودخل للحيّ الذي يضم المكان الذي ينوي الوصول إليه من خلال ولوجه في زقاق أبو عارف.

وصل بيت أخيه أبو عارف، فالتقى هناك بزوجته أم إبراهيم، ولما سمع صوت الشبان، أطل من الشباك بحذر، فشاهد ابنه عبد الكريم مع عدد من الشبان الذين يحرسون المخيم، فقال لزوجته:

أعدّي لهم الشايّ، ونادي عبد الكريم، فأنا مشتاق لرؤيته، ولكن دون أن يعلم أحد أنني موجود هنا.

فقامت بالخروج إليهم، وسلمتهم آنية الشايّ، ونادت عبد الكريم بصوت خافت، فلم يسمعها، وقد ذهب لمكان آخر، عندها دخلت قوات الاحتلال عبر الدبابات وناقلات الجند، فجرى اشتباك مع وحدة الحراسة، أسفر عن انكفاء قوات الاحتلال بشكل ظاهري، وأبقوا على وحدة من القناصة اختبأت في أحد المنازل المجاورة للمخيم في حي الزهراء، وعندما لاحق عبد الكريم ورفاقه الدبابات وناقلات الجند من جهة بيت العرسان، قام قناص بإطلاق النار عليه، فأصيب برصاصة في البطن، ولما حاول شقيقه عز الدين إخلاءه ونقله للمشفى، أصيب هو الآخر برصاصة في قدمه، وبقي عبد الكريم أكثر من ساعة ملقى على الأرض ينزف حتى استشهد، وكانت وحدة القناصة تمنع سيارات الإسعاف وأي شخص من الاقتراب من المصابين، وتطلق النار على من يحاول الاقتراب منهم، فاتصل الشيخ بسام بهاتف نجله عبد الكريم، فرد عبد الله الوحش، وهو يصيح:

لقد أصيب عبد الكريم.

عرف الشيخ بسام أن ابنه قد ارتقى شهيدًا، فبكى أشقاء الشيخ، أمّا هو فقد حمد الله، وأخذ يلومهم، ويقول لهم:

لماذا البكاء؟ لقد قضى شهيدًا، ولم يقض في شجار أو غيره، الشهادة فخر وفضل ومنّة من الله ففوجئوا بصلابته ورباطة جأشه.

فهذا الأب المجاهد المطارد الذي أفصح لزوجته عن اشتياقه لابنه، ومحاولته لرؤيته، ولم يفلح؛ يتمالك الآن لحظة وصول خبر استشهاده، تاركًا عطشه في روحه حتى لقاء الله، في ظل عرش الرحمن، وهذا الأمر بحد ذاته دليل صارخ وموجع على عظم التضحية والصبر، وأي صبر، وعلى الاحتساب، وأيّ احتساب؟!

تواصل الشيخ مع الإعلاميين، وطلب منهم تصوير الجنازة كاملة، وبثها من خلال المحطة المحلية ليشاهدها من مخبئه.

بعد أربعين يومًا على استشهاد عبد الكريم، استشهد صديقه سامي النورسي، والذي كان رفيقه في الحراسة والمقاومة.

وعندما حصلت عملية معسكر «كركور» الاستشهادية قرب مدينة الخضيرة، التي نفذها الاستشهاديان أشرف الأسمر ومحمد حسنين وهما من سرايا القدس بتاريخ الحادي والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) من العام 2002م، والتي أسفرت عن مقتل أربعة عشر جنديًا صهيونيًا، وجرح نحو خمسين؛ قامت قوات الاحتلال باجتياح جديد للمخيم ومدينة جنين، وفرضت نظام منع التجول، وقامت بإخفاء كثير من الوحدات في البيوت بقصد إلقاء القبض على المطارد الجهادي القائد الشهيد إياد صوالحة.

كان الشيخ بسام في اليوم الأول والثاني مختبئًا في أحد منازل المخيم، وقوات الاحتلال تحيط به من كل الأماكن تقريبًا، فاتصلت به الإذاعة البريطانية «البي بي سي» وأجرت معه مقابلة، وجنود الاحتلال لا يبتعدون عن البيت الذي هو فيه سوى ثلاثين مترًا، بعد المقابلة، قرر الخروج من المخيم، وكانت إحدى سكان ذلك البيت امرأة عجوز مصابة بمرض ضغط الدم، فطلب من ذويها الاتصال بسيارة الإسعاف حتى يقوموا بنقلها إلى المشفى، ففعلوا، في حين قام هو بإخفاء وجهه من خلال نظارات وقبعة بعد أن حلق ذقنه، وارتدى ملابس قريبة في لونها من لون ملابس رجال الإسعاف.

ولما وصلت سيارات الإسعاف بعد وقت من التنسيق للحركة من قبل إدارة المشفى وفيها السائق ومتطوعة أمريكية؛ صعد الشيخ بسام مع السيدة العجوز، متجاوزًا الحصار، فحاول

السائق الاحتجاج، فأشار عليه بالصمت والتحرك، فتحركوا، وما إن وصلت السيارة إلى بيت أبو نائل الغزاوي، أي على بعد عشرات الأمتار، حتى أوقفها جنود الاحتلال، فشرع الشيخ بسام بتلاوة مقدمات سورة ياسين، وهو يتابع نبض تلك السيدة متظاهرًا أنه مسعف، فأصدر ضابط الوحدة العسكرية الصهيونية أمرًا لسيارة الإسعاف بالتحرك، فتحركت ومرت بحاجز آخر داخل المخيم، ثم عرجت على بيت آخر لاصطحاب طفل مريض آخر من عائلة السعدي، فصعدت سيدة أخرى برفقة طفل، كانت من قريبات الشيخ بسام، لكنها لم تعرفه، فسارت السيارة نحو مشفى الشهيد خليل سليمان، وقبل أن تترجل السيدة الثانية المرافقة للطفل، ألقى الشيخ السلام عليها التحية، ففوجئت بعد أن دققت فيه وتعرفت عليه، فأشار عليها بالحذر، فترجلت، فطلب سائق السيارة من الشيخ بسام الترجل، لكنه أجابه قائلًا:

لا نريد أن ننزل هنا، نريد الذهاب إلى المشفى الأردني.

قال السائق: يا سيد، التصريح الذي منحوني إياه هو لهذا المكان فقط.

فأشار إليه الشيخ بأن يصمت وينفذ، وكان الشيخ متضايقًا داخليًا من إجبار السائق على السير رغمًا عنه، لكن الظروف أوجبت ذلك، فسار السائق بالسيارة مرغمًا، فترجل الشيخ بسام قبل الوصول للمشفى الأردني، وسار مقابل الدبابات المتواجدة على بعد عشرات الأمتار، وتوجه إلى بيت أبو صبحي القطنات الواقع في بداية مرج ابن عامر.

في اللحظة الأولى ظنت زوجة أبو صبحي أن هذا القادم يريد شراء الحليب الذي كان يسوّقه أبناء أبو صبحي من ناتج حلب الأبقار والأغنام التي يملكونها، لكنها عندما دققت فيه عرفته، خافت، وقالت له عندما سألها عن أبو صبحي أنه ذهب لجنازة إحدى قريباته، فخرج إليه ابنه الأكبر الذي كان زميله في الدراسة، فأدخله البيت، وأكرمه، فقال له:

هل تقوم برعاية الأغنام في هذه الأيام؟

رد قائلًا: أحيانًا.

فقال: إذن، حضر نفسك لتقوم بذلك الآن.

ففعل، وسار صاحب البيت أمام القطيع متوجهًا لعمق مرج ابن عامر، وسار الشيخ خلف القطيع يحمل عصا، ويتظاهر بتوجيه القطيع بالحجارة يلقيها حولها هنا وهناك، حتى وصل به لمنطقة مجرى «المقطع»، عند ذلك، تركه وذهب للتجمع الذي يضم بعض البيوت، فأمضى عند إحدى الأسر هناك ثلاثة عشر يومًا، ووجد عندهم بعض الشبان من بينهم الشهيد إياد أبو الليل، وقام أبو الليل هناك بإجراء مكالمة مع قيادة التنظيم، ثم سحب بطارية الجوال، فقامت قوات الاحتلال التي كانت قريبة من المنزل بعملية مداهمة للمنازل المجاورة، فخشي أبو الليل التسبب بإلحاق الأذى للعائلة التي تأويه هو والشيخ بسام والشباب الآخرين، فقام بدس سلاحه في حفرة في حاكورة المنزل، ووضع عليها البصل حتى لا تكتشف مكانه الكلاب المدربة.

رفع منع التجول من أجل السماح للمواطنين بالتسوق وقضاء احتياجاتهم الضرورية، فجاء بعض أقارب الشيخ ونقلوه بناء على طلبه لقرية قريبة، وأمّنوه في بيت هناك، وبعد أيام استشهد القائد إياد صوالحة بعد اشتباك مسلح بينه وبين قوات الاحتلال أسفر عن إصابة خمسة جنود منهم.

في الخامس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 2002م؛ نفذ الاستشهاديون أكرم الهنيني وولاء سرور وذياب المحتسب عملية زقاق الموت في وادي النصارى في الخليل، والتي جاءت ردًا على استشهاد القائد إياد صوالحة، وقد أسفرت عن مقتل ثلاثة عشر ضابطًا وجنديًا صهيونيًا، من بينهم القائد العسكري لمنطقة الخليل، فَسُرَّ إبراهيم نجل الشيخ بذلك، وحاول فتح المسجد مساء لإلقاء بيان إشادة بالعملية، لكنه فوجئ بإغلاق المسجد، ورفض فتحه من قبل المؤذن، فقام إبراهيم بالتواصل مع والده بهذا الشأن الذي نهاه وطلب منه ترك الأمر لأهله؛ لأن هناك لجنة تقوم بذلك، لكن إبراهيم لشدة حماسه واندفاعه رفض وأصر، فاتصل بصديق له من غزة اسمه إبراهيم، فكتب له البيان، وقام إبراهيم بعدها بفتح باب المسجد وتلا البيان، فاتصل القائمون على المسجد بوالده وأخبروه بما جرى، فتعهد بإصلاح الباب بعد أن اعتذر منهم، وقام بالاتصال بابنه إبراهيم وأنّبه على ما فعل. وبعد لحظات عاد إبراهيم لأبيه باتصال يطلب هو ومن معه الحصول على السحور، فأرشده بأن يذهبوا لأي دكان وليأخذوا ما يريدون، وسيقوم بتغطية التكاليف.

في تلك الليلة، اقتحمت قوات الاحتلال المخيم والمدينة ليلًا، فجرت اشتباكات عنيفة على باب المخيم بين المقاتلين ومنهم إبراهيم، والقوّة المقتحمة استمرت عدة ساعات من صلاة الفجر حتى الصباح، منع المقاتلون خلالها القوات الغازية من دخول المخيم، فقامت القوات مرة ثانية بالتظاهر بالانسحاب، واختبأت وحدة منها في نفس البيت الذي قتلت منه شقيقه عبد الكريم، فذهب إبراهيم بسيارة عمومي إلى الحيّ الشرقي من المدينة وهو يحمل السلاح على كتفه، وعاد مع الساعة السابعة إلى بيت أهله وهو ما زال يحمل السلاح، فرآه القناص المختفي في ذلك البيت، فصوب سلاحه إلى قلبه، وأطلق رصاصته الغادرة، فارتقى إبراهيم شهيدًا، فهرع لإنقاذه جارهم أسعد أبو الحفيظ، فتلقى الرصاص هو أيضًا، وتقدم منه وسيم الحواشين، فتلقى الرصاص هو أيضًا، وقد سببت له الإعاقة الدائمة.

كان الشيخ عند تلك العائلة التي تأويه يستعد لتناول طعام الإفطار، فتلقى اتصالًا يخبره باستشهاد إبراهيم أيضًا، فحمد الله، وقال لمن كانوا عنده في البيت الذين بكوا جميعًا، نفس الكلام الذي قاله لإخوته عندما استشهد ابنه عبد الكريم.

قام بالاتصال بالإعلام والمصورين الصحفيين، وطلب تصوير الجنازة كاملة حتى يتسنى له مشاهدتها عبر المحطة المحلية، وعندما سأله أحد الصحفيين عن ردة فعله من ارتقاء نجله الثاني، قال:

هي معركة عضّ أصابع، من يئنّ أولًا فهو المهزوم.

ويتابع الشيخ بسام قائلًا: إن استشهاد نجليه وصديقهما سامي النورسي جاء ضمن سلسلة مواجهات متواصلة مع كل تقدم لقوات الاحتلال تجاه المخيم بقصد اجتياحه أو هدم منزل، أو حصار مطارد، ويسوق هنا الأمثلة التي لا تنتهي، فيقول إن حصار بيت (أبو عدنان النغنغية) في أقصى شمال المخيم لاعتقال المطارد المجاهد عبد الله الوحش؛ نتج عنه معركة استمرت ثلاث ساعات، شارك فيها بشراسة كل من يوسف السعدي وإياد أبو الليل ونضال تركمان ويوسف مشارقة، وعدد من المقاتلين، أسفرت عن استشهاد طفل من آل بلالو، ومهندس أجنبي من مستخدمي وكالة الغوث الدولية، ويشير الشيخ إلى بسالة المقاومين وقتها في الهجوم على القوة التي

دخلت في وضح النهار، وقامت بحصار وهدم المنزل المذكور، وأسر المجاهد عبد الله الوحش.

كما شهد شهر يناير (كانون الثاني) من العام 2003م، ارتقاء الشهيد يوسف صالح عامر السعدي ابن «سرايا القدس» مع أربعة من رفاقه بينهم طفل من عائلة الكستوني كان من أشبال حركة الجهاد في اشتباك مسلح في مدينة جنين.

كما ارتقى خمسة مقاتلين، أربعة من «السرايا» بتاريخ الرابع عشر من مارس (آذار) من العام 2003م وهم: واثق اغبارية، وإبراهيم منيزل، وأسامة أبو خليل، وربيع الفار، وخامس من كتائب شهداء الأقصى وهو يوسف مشارقة.

وفي التاسع عشر من مايو (أيار) من ذات العام، حصلت أول عملية استشهادية لفتاة في جنين، وهي هبة دراغمة من «سرايا القدس» من طوباس، وقد كانت طالبة في جامعة القدس المفتوحة/ فرع طوباس، حيث قامت بتفجير نفسها بالعفولة، وأسفرت عمليتها عن مقتل ثلاثة مستوطنين وجرح العشرات.

وفي أغسطس (آب) من العام نفسه، حصلت تهدئة بموافقة كافة الفصائل الفلسطينية، وقد كان شرط الالتزام بها عدم إقدام الاحتلال على أي اعتداء أو اغتيال أو قصف أو قتل، لكن المحتلين الذين لا يرقبون في المسلمين إلًا ولا ذمة أقدموا على اغتيال الشهيد المجاهد محمد سدر، الذي يتهمه الاحتلال بالمسؤولية عن عملية «زقاق الموت» التي جرت في مدينة الخليل، فقامت قناة الجزيرة بالاتصال بالشيخ بسام كقائد في الجهاد الإسلامي للتعقيب على عملية الاغتيال، فقال:

لم يصلنا من مصادرنا ما يؤكد استشهاد القائد سدر،

فسأله المذيع: إن كان الخبر صحيحًا لا سمح الله، ما ردكم عليه وأنتم ملتزمون بالتهدئة مع الاحتلال؟

فقال الشيخ بسام: إن ثبت ذلك، فإن هذه التهدئة ستُنتزع من الجذور، وستنسف من القواعد.

ومضى في إطلاق عبارات التهديد في تلك المقابلة.

وبعد يومين على هذه المقابلة، اتصل بالشيخ بسام بعض الضباط المسؤولين في الأجهزة الأمنية الفلسطينية، وأبلغوه أن ما أطلقه من تهديدات عبر الجزيرة قد تزامن مع اجتماع بين محمد دحلان الذي كان وزيرًا للداخلية وقتها ورئيس أركان جيش الاحتلال «شاؤول موفاز»، فطلب «موفاز» من دحلان اعتقال الشيخ بسام الذي يهدد بنسف التهدئة، فرد دحلان قائلًا:

أنتم لا تستطيعون الوصول إليه، فكيف لنا أن نصل إليه؟ ثم أنتم من قام باغتيال الشهيد سدر.

وتوالت الاتصالات، وإرسال الرسل من قبل محمد دحلان للشيخ بسام وفيها عرض لاستضافته في مقر وزارة الداخلية الفلسطينية في رام الله بقصد الحفاظ عليه، وقد جاءت هذه العروض من عدة أشخاص وبشكل متلاحق، وكان مبررها أن السلطة قد تتسلم مدن جنين ونابلس وطولكرم وقلقيلية، وأن الاحتلال قد يتذرع بتلك التصريحات التي أطلقها الشيخ بسام لوقف خطة إعادة الانتشار في المدن الأربع المذكورة، فكان رد الشيخ بسام بالرفض، وتذكير ضباط السلطة أنه لا أمان للمحتلين، وأن وعودهم جوفاء كاذبة، فقد يهاجمون المكان الذي أكون فيه، فأقضي شهيدًا، ويقضي معي منكم أيضًا، كما جرى للشهيد القسامي محمود أبو هنود.

بعد تلك التصريحات التي أدلى بها الشيخ بسام لقناة الجزيرة، كثفت قوات الاحتلال المداهمات وعمليات البحث عنه، وأصبحت المداهمات أوسع أمدًا، وأشد قسوة، وأكثر تنكيلًا، فقد أصبحت تداهم عشرات المنازل التي يمكن أن يكون مختبئًا فيها، من بيوت أشقائه وشقيقاته وبناته، وأعمامه وأقربائه، وأصبحت أشد تخريبًا من خلال تفجير الأبواب عمدًا ودون سابق إنذار، وإلقاء القنابل في الآبار، وإطلاق النار داخل البيوت خاصة باتجاه سقوف المطابخ والسدد.

في ليلة الفاتح من أكتوبر (تشرين أول) من العام 2003م، كان الشيخ مختبئًا في مكان ما، ونظرًا لطول فترة المطاردة، وشعوره بالملل، ورغبته في تغيير المكان، تنقل في سيارة من بيت إلى آخر حتى استقر في حارة عزام في المخيم، فدخل بيت (أبو بشار السعدي) وكان منهكًا ومتعبًا، فأحس بوجود طائرات الاستطلاع في سماء المخيم، فلم يكترث للأمر، ولما كانت الليلة مليئة بالقارص والبعوض، صعد إلى سطح البيت قليلًا، ثم عاد إلى مهجعه لينام، وغط في النوم، وفي الساعة الثالثة من فجر ذلك الأربعاء، تلقى اتصالًا من أحد أقربائه من مدينة جنين وهو غسان المطلق السعدي، الذي أبلغه بوجود قوات كبيرة من جيش الاحتلال تتوجه للمخيم من كافة الاتجاهات، فنهض الشيخ وأطل من النافذة بحذر، فشاهد الجنود وهم يحيطون بالمنزل الذي يختبئ فيه من كل جانب، فصعد إلى السطح فورًا، وتمكن من النزول عبر سُلَّمٍ إلى بيت مجاور، وهو بيت (أبو المُهْرَة)، ومن ثمَّ إلى بيت «زيدان الوشاحي» فسار على سطح المنزل فرأوه، وأشهروا نحوه البنادق، وطالبوه بأن يتوقف، فرد الشيخ محاولًا إلهاءهم:

ها أنا قادم إليكم.. أين أنتم؟

وسرعان ما توارى بسرعة البرق، وقد نجح بالتراجع، عندما دخل بيت «زيدان الوشاحي» باحثًا عن مخبأ فيه فلم يجد، فنظر من ثقب الباب، فشاهد سيارة «فولكس كابينا» تكاد تلاصق الحائط الخارجي لمنزل لصيق ببيت الوشاحي، فخرج بحذر قاصدًا الاختباء في تلك السيارة التي يعرفها جيدًا من كثرة اقتنائهم لمثل هذا النوع من السيارات في معمل الطوب الذي يملكونه، وأراد أن يختفي تحت كرسيها الخلفي، لكن أبواب السيارة كانت مغلقة، فمد جسده

تحت السيارة، وقام بإقفال الهاتف النقال الذي كان يملكه، ومازال الجنود والضباط يفتشون المكان، وبعضهم تقدم من السيارة أكثر من مرة، ونظر بداخلها، فاقتربوا منه كثيرًا، حتى إن أرجلهم أصبحت قريبة جدًا من جسده.

بعد قليل أحضروا الحاج المسنّ أبو جمال الرحال، واتخذوه درعًا بشريًا، وقاموا بإرغامه على طرق أبواب البيوت، وإخراج الرجال والنساء والأطفال منها، وأخذوا الرجال بعيدًا، بينما أجلسوا النساء قرب السيارة التي يختبئ تحتها الشيخ، فشعر بنوع من الاطمئنان، لكن الطفل قصيّ الوشاحي شاهد الشيخ بسام تحت السيارة، فأشار إلى أمه بمكان وجوده، فقامت بزجره؛ حتى لا يلتفت لمكانه أحد.

لكن بقاء النسوة حول السيارة لم يستمر سوى خمسة وأربعين دقيقة تقريبًا، فقاموا بنقلهن إلى مكان آخر يقع خلف بيت (أبو مصطفى القنيري).

يضيف الشيخ؛ عندها خِفْتُ من إحضار الكلاب التي كانت في مكان آخر، وقد نهشت أحد الأطفال في بيت «جلال نجم» وفي تلك اللحظات جاؤوا بجنديين وأوقفوهما قبالتي وعلى بعد أمتار قليلة مني، شعرت بأنهم على وشك اعتقالي، أو إطلاق النار عليّ، خاصة وأن أحدهما جلس أرضًا، ورغم ذلك لم يرني، وأنا مستمر في تلاوة الآية القرآنية ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدا فَأَغْشَيْنهمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]، كما كنت أردد الأدعية والاستغفارات بصمت.. بعد قليل أطلق الجنديان النار، تحسستُ جسدي، لكن الرصاصات كانت في الهواء، وعندها تواصل معهما الضباط عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، طالبًا نقلهما من المكان خوفًا من تعرضهما للقتل، ثم انصرفا من المكان بعد دقائق.

لم يتمكن الشيخ من مغادرة مكانه؛ لأن الطيران لم يتوقف، كما أن عددًا من الدبابات قد حضرت وتمركزت على مكان الردم في المخيم، بالإضافة إلى عشرات الجنود المتمركزين في بيوت ذلك الحيّ المحيط بمنزل (أبو بشار السعدي) ومكبرات الصوت لا زالت تنادي عليه لكي يسلم نفسه.

انبلج نور الصباح، وكادت وحدات الجيش المحتل تخرج فاشلة، فتقدم ضابط من الأسفل تجاه مكان السيارة فرآه، وتقدم نحوه، وقال:

من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

فخرج الشيخ من تحت السيارة، بعد أن مكث تحتها أكثر من ثلاث ساعات متواصلة، وقال:

أنا حداد اسمي قاسم علي السعدي، كنت قد حضرت لبيت هنا لعمل شبابيك، وقد تأخرت عندهم بعد العمل بعد أن أخذنا الوقت في لعب النرد، وعندما جاء الجيش أخرجني ووضعني هنا.

أمسك الضابط بالشيخ من قبته، فرفض الشيخ بسام ذلك وقال له لا يجوز لك أن تمسك رجل بسني هكذا، فانصاع وأمسكه من ذراعه وسار معه وحيدًا، فكر الشيخ وقتها في توجيه لكمة له على وجهه ثم الهرب من خلال أحد الأزقة، لكنه أيقن أن انتشار الجيش في كل مكان، فمر بالقرب من النسوة، فبادر الشيخ بسؤالهن وقال:

ألست أنا قاسم علي السعدي الحداد؟

فلم يسمع إجابة، بسبب الخوف المسيطر على المكان.

ثم سار حتى وصل إلى بيت محمد الغريب، فدخله، فوجد رجال الحي محتجزين ومعهم عدد من الجنود، فأعاد الشيخ بسام السؤال مرة ثانية، على الرجال هذه المرة بعد النساء، فلم يرد أحد، الأمر الذي جعل ضابط المخابرات الذي كان موجودًا في نفس المنزل يلتفت لذلك، فتقدم منه بعد عشر دقائق تقريبًا، وقال له:

يكفي نريد أن ننهي.

فقال له الشيخ بسام: أنا بسام السعدي.

فقال الضابط فرحًا: احلف بالله إنك الشيخ؟

ثم جاء الجنود والضباط، واتصل الضابط بقيادة المخابرات، فانسحبت الطائرات من سماء المخيم، وقام ضابط المخابرات بتعبئة نموذج الحالة الاجتماعية للتأكد من هوية الشيخ، وبعد التأكد من شخصه عرف ضابط المخابرات بنفسه للشيخ قائلًا:

أنا الكابتن «فيصل». لقد مرّ علينا الكثير من المطاردين، ولكن أشطر منك وأذكى منك لم نرَ، فهل تذوب كالملح؟

وهَمَّ الجميع بالانسحاب من المكان، فطلب الشيخ من الضابط أن يوعز لجنوده بعدم الإساءة؛ لأنهم صغار السن، فقال «فيصل»: لا تقلق هناك توصية من أعلى المستويات بعدم التعرض لك.

لقد انتقل الشعب الفلسطيني في انتفاضة الأقصى من مرحلة المواجهة الشعبية، إلى المقاومة المسلحة، فبعد أن كسر حاجز الرهبة والخوف في انتفاضة الحجارة؛ تخرج من رحم هذه الانتفاضة شباب لا يهابون الموت بل يسعون للشهادة، وقد راكموا تجاربهم النضالية في مواجهة هذا الاحتلال، وما أن اندلعت الانتفاضة الثانية حتى كان هؤلاء الشبان مستعدين لمواجهة هذا الاحتلال بكل قوة وعزيمة.

امتشقوا سلاحهم وأوجعوا الاحتلال في المستوطنات وعلى الطرق الالتفافية، وفي شوارع المدن الصهيونية الكبرى، فكانت معركة جنين الخالدة، والتي جسدت الوحدة الوطنية بأبهى صورها، وكسرت هيبة الجيش الذي لا يقهر كما اعتقد البعض، وكانت معركة البلدة القديمة في نابلس، ومعركة وادي النصارى، وغيرها من معارك المجد والشرف التي خاضها أحرار فلسطين إلا أن الجري وراء الحلول السلمية ووعود الأمريكان من خارطة طريق وغيرها؛ أضر بمسيرة هذه الانتفاضة والتي حققت بعض الإنجازات المهمة، مثل تفكيك المستوطنات في قطاع غزة ومحافظة جنين، حيث أصبحت غزة شبه محررة من الاحتلال، مما راكم قوة المقاومة وتطورها، والتي أضحت اليوم مصدر قلق كبير للدوائر الصهيونية.

لاشك أن الاجتهاد الخاطئ لوجود سلطة تحت الاحتلال، ونحن في مرحلة تحرير وطني، ألحق أبلغ الضرر بالمشروع الوطني الفلسطيني حيث إننا درسنا معظم ثورات العالم،

والتي استمرت مقاومتها وتصديها للاحتلال بشكل متواصل، دون إبداء أي تنازلات قبل كسر الاحتلال بدون قيد أو شرط فتحارب الثورات العالمية من فيتنام مرورًا بأفغانستان حتى كوبا وغيرها، تشهد على قولنا بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وسنبقى على موعد برنامج وطني يرتكز على المقاومة، ويسعى لكنس الاحتلال، تتوافق عليه معظم الفصائل الفلسطينية الفاعلة، وهذا هو الطريق الأصوب والأقصر، للوصول إلى أهداف الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال.

قيدٌ غاشم وجبهةٌ مرفوعة

تم تقييد الشيخ بيديه إلى الأمام دون عصب عينيه، وزج به في إحدى السيارات العسكرية، وسارت تقطع الطرقات والشوارع، فشاهد عشرات الجيبات العسكرية على طول شارع المخيم من بيت دار أبو حسام السعدي لغاية بيت أبو شفيقة العموري، ثم انعطفت السيارة التي تقله من أمام بيته، فشاهد زوجته وأخويه، فقال في نفسه:

«الله أعلم كم عامًا سيمضي حتى نلتقي يا أم إبراهيم».

ثم توجهت السيارات به نحو معبر الجلمة، فشاهد الدبابات على مفرق الداخلية ومفرق المنطقة الصناعية، وشاهد نحو ثلاثين دبابة وناقلة جند والجيبات تتمركز قرب حاجز الجلمة، ثم توجهوا به نحو معسكر قريب من بلدة صندلة، وهناك سألوه عن بيت «جلال نجم» الذي نهش الكلب طفله أثناء حملة التفتيش والاعتقال، ثم أعادوه إلى معبر الجلمة، ومن ثم حملوه إلى معسكر سالم غربي محافظة جنين عبر مفرق زرعين، ولما وصل، وضع في ساحة المعتقل الصغيرة «الفسحة»، فوجد هناك أسرى من المخيم، فطلبوا منهم عدم التحدث معه، رغم ذلك تم تبادل بعض الحديث بينهم خلسة.

بعد وقت قليل من وصول الشيخ لمعسكر سالم، هبطت في المعسكر طائرة من نوع هيلوكوبتر عسكرية على متنها عدد من الضباط الكبار، جاؤوا من فورهم لمشاهدة الشيخ، فتقدم

أحدهم، ويبدو أنه كان قائد المنطقة الوسطى في جيش الاحتلال، وأراد التقاط صورة تذكارية معه، لكن الشيخ ابتعد عنه ورفض ذلك، فاستهجن الضابط الكبير تصرف الشيخ، وعندما أراد ذلك الضابط إعادة التقاط الصورة، توقفت آلة التصوير عن العمل لخلل ما.

بعد مغادرة الضباط الكبار المكان، أعدّ المعتقلون للشيخ وجبة طعام، فتناول طعامه، ثم طلب من الضابط المناوب وكان درزيًا أن يخلد للنوم بعض الوقت، فذهب، وأحضر له فرشة رقيقة، وبطانيتين الأولى وضعها تحت رأسه، والثانية غطى بها جسده المتعب.

نام ساعتين، واستيقظ بعدها، وأخذ يتحدث مع المعتقلين، فجاءت سيارة النقل الخاصة بالمعتقلين، فزج بها برفقة معتقل آخر اسمه عمر تركمان، وتوجهت بهما فورًا إلى مركز تحقيق الجلمة الواقع غرب مدينة حيفا المعروف باسم «كيشون».

وصلا هناك، فوجد كل طاقم التحقيق الذي يعمل في هذا المركز بانتظاره في ساحة المعتقل، مثل «سغيف» و«راني» و«فكتور» و«إلعاد» والجميع، فكرر «راني» نفس ما قاله «فيصل» من قبل وقال له:

لقد تابعنا الكثير من المطاردين، ولكن أذكى وأدهى منك لم نر قط.

ثم اقتيد الشيخ بسام لغرفة التحقيق التي كان فيها «إلعاد» كان ذلك يوم الأربعاء الأول من شهر أكتوبر (تشرين أول) من العام 2003م، فشرع «إلعاد» بالحديث عن الكذب والصدق وكأنه واعظ شرعي، مستدلًا على ما يقول بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، داعيًا الشيخ بسام للإفصاح عن كل ما قام به من أفعال ونشاطات في حركة الجهاد الإسلامي، فرد الشيخ بسام:

إنّه لا يوجد لي نشاطات تنظيمية، وقد طوردت هربًا من الاعتقال الإداري، وكل ما أقوم به هو عمل اجتماعي وإغاثي.

ثم أنزل إلى قسم الزنازين حتى اليوم التالي، ليكون التحقيق في ذات التهم، والأسئلة تتمحور حول ذات تحقيق اليوم السابق، وكان التحقيق من قبل جميع المحققين بالتناوب، وقد حضر ضابط الاستخبارات المسؤول عن المخيم وجنين المدعو كابتن «جمال».

التحقيق العسكري

عصر يوم السبت الرابع من نفس الشهر، أي بعد ثلاثة أيام على الاعتقال، وعلى غير العادة، شعر الشيخ بسام بضرب شديد على باب زنزانته التي فتحت، فإذا بثمانية من المحققين يقفون في الباب وعلى رأسهم المدعو «سغيف» الذي بادره بالقول:

قوم شوف الكارثة التي حصلت في مطعم مكسيم في حيفا... فتاة فجّرت نفسها في المطعم وقتلت اثنين وعشرين شخصًا، وجرحت سبعين.

وأضاف:

«يا ويلك ويا سواد ليلك من إلي راح يصير».. أتعلم من جاء بنا من بيوتنا؟

فرد الشيخ: لا أعرف.

فقال: رئيس الوزراء شارون شخصيًا اتصل بنا وطلب منا أن نسلخ لحمك عن عظمك... حتى لو مِتْ، لا يهم، المهم أن نعرف القادم علينا، لأنّك صندوق معلومات.

صعدوا به إلى الأعلى ليجد الميجر «راني» المسؤول عن التحقيق، فقال له ما قاله باقي الضباط، وأضاف: إن شارون يقول هذا السعدي تشربونه الشاي والقهوة ؟!... أريدكم أن تجرموا لحمه عن عظمه حتى لو مات.

وقال: نريد منك معلومات عن القادم، من يريد تنفيذ عمليات أخرى؟ وأين توجد المختبرات؟ نرجو أن تختصر الوقت وتتحدث.

قال الشيخ: لا علم لي، ولا أعرف شيئًا.

رد الميجر: وكأنّك لا تصدق ما نقول؟ انهض معنا إلى القنوات التلفزيونية لنريك ما جرى.

اقتادوه إلى صالون صغير فيه شاشة تلفاز، وفتحوا على قناة عبرية تبث برنامج «يومان» فشاهد وتابع كل التفاصيل، وبعد انتهاء البرنامج، سأله «راني»:

ما رأيك؟

رد الشيخ قائلًا: أنا لا أؤيد ضرب المدنيين، وهذا موقفي المبدئي، وليس لأنني معتقل عندكم، يجب أن يكون القتال جنديّا مقابل جنديّ.

فرد الميجر قائلًا: أنت إن لم تر دم اليهود كل ليلة لا تستطيع النوم، أنت ذئب بجلد خاروف.

أعاده لغرفة التحقيق، وشرعوا بالتحقيق معه بشكل متواصل ومكثف طيلة الليل دون السماح له بالنوم أو الاستراحة، حتى جاء اليوم الثاني الأحد، ليحضروا له ورقة الإذن باستخدام التحقيق العسكري الصادرة عن محكمة ما يسمى «العدل العليا» فقالوا له:

نحن نعلم أنّك صاحب مكانة بين أبناء شعبك، ولا نريد الإساءة إليك، حدثنا عن أي معلومة، ونحن لسنا بحاجة للجوء للتحقيق العسكري معك.

رد الشيخ بسام: عيب هذا الكلام... أنا أعمل في الإغاثة فقط، ولا شأن لي بالعمل العسكري.

عندها شرعوا بالتحقيق العسكري القاسي معه على النحو التالي:

وقف ستة من عناصر المخابرات خلفه وهو مقيد اليدين والقدمين، وجلس أمامهم ضابط مسؤول يدعى «أبو حبيب» أجلسوه على كرسي دون خلفية ظهر، وشرعوا بثنيّ جسمه إلى الخلف حتى أصبح جسده كدائرة مكتملة، وسط صراخ من الألم وانقطاع النفس، ثم قام أحدهم برفعه بشكل سريع ورمية للخلف عدة مرات وبشكل متواصل، وعندما كان يشعر «أبو حبيب» أن الشيخ قد اقترب من الموت، كان يشير بأصابعه لهم أن توقفوا، ثم يتقدم المحقق «راني» ويضع إبهامه المتصلب كالخنجر في جوف صرته حتى يكاد أن يفقأها، ثم يضع إبهامه المتصلب من جديد في يسار بطنه ويمينه ووسطه، ويطحن به أحشاءه، وأيضًا يقوم بذلك في جنبيّ رقبته، ثم يعود الباقون لثنيه للخلف مرة أخرى، وسط صراخ الشيخ وغثيانه وبين تلك الحركات أسئلة تكتب على لوح مقابل:

من هم الاستشهاديون والاستشهاديات القادمون؟ أين هي المتفجرات؟ أين المختبرات والمعامل؟

لم يستسلم الشيخ بسام لهذا الواقع المؤلم وشديد الصعوبة، بل كان يصرخ من شدة الألم بملء حنجرته، ورغم أنه مقيد برجلية ويديه للخلف فقد كان يقاوم، وكان ينتفض من بين أيديهم، ويلقي بنفسه على الكرسي تارة، وعلى مقعد مجاور تارة أخرى، حتى إنه تمكن من الإمساك بقدم «إلعاد» وأطبق عليها بالرغم من أنه مقيد للخلف، فشرعوا بمحاولة تخليص القدم منه، فداروا به كل القاعة، وهو يقاوم ضربهم وركلهم مع أنه في غاية الألم والوجع.

استمر التحقيق بهذه القسوة من الظهيرة حتى العصر، بعدها حملوه من قيد يدية ورجليه كما تُحْمَلْ الذبيحة، وأنزلوه إلى الزنزانة الانفرادية، وهناك ألقوه بها وهو يتألم ويستفرغ، وقد وضعوا عليه شرطيًا درزيًا يسأله باستمرار ما إذا كان بحاجة للطعام أو الشراب أو الحمام، وهو لا يستطيع الإجابة، نصف ساعة فقط، بعدها عادوا لاستئناف التحقيق معه من جديد، واستمر التحقيق القاسي حتى الغروب، عندها حضر ضابط مخابرات كبير يبدو أنه مسؤول مراكز التحقيق في كل جهاز الشاباك الصهيوني، وكان طويل القامة ممتلئًا، ذا وجه أبرص، تنتشر في وجهه حبيبات النمش، يقال له «أبو شريف»، عمل في فترة من الفترات مديرًا لمخابرات نابلس، فتجمعوا حوله، ثم توجه للشيخ بسام، وقال:

اسمع يا شيخ! كل من يأتي عندنا يعترف، وهناك قرار من رئيس الحكومة بموتك. أنت مسؤول الضفة الغربية، رمضان شلّح في الخارج وأنت في الداخل. أربع حروب مع الجيوش العربية لم تكن مثل ما يحدث الآن. لا أحد يستطيع من مواطنينا أن يدخل سوبر ماركت، أو يركب الحافلة، أو يذهب لمطعم... قمت بتجميع عناصر الجهاد في المخيم... واستأجرت لهم المنازل... لقد حولت المخيم لجنوب لبنان... ما الذي يحدث؟ وجّه كلمة لهؤلاء حتى يتوقفوا.

فرد الشيخ: أنا معتقل وليس لي علاقة بهذه المجموعات.

فقال «أبو شريف»: تقصد المطاردين؟

رد الشيخ قائلًا: اذهب واسألهم.

قال «أبو شريف»: أنزلوه حتى يستحم.

رد الشيخ: لست بحاجة للاستحمام.

فقال «أبو شريف»: استحم نريد أن نتحدث.

قال الشيخ: لا أستطيع الاستحمام.

فقال «أبو شريف»: إذًا ليستحمّ هنا في حمام المخابرات وزودوه بالملابس.

استحمّ الشيخ وهو جالس، ولمّا خرج عرض عليه تناول الطعام، فرفض، فاستغربوا من رفضه، فقال:

لا رغبة لي في الطعام بعد الإهانات والتعذيب الذي تلقيته منكم.

بقي التحقيق متواصلًا حتى اليوم الثاني عندما أحضر له المدعو «فكتور» نسخة من جريدة الحياة الجديدة الفلسطينية، وفي أحد أبرز عناوينها على الصفحة الأولى عنوان يفيد بتهديد «سرايا القدس» لدولة الاحتلال في حال تعرضت حياة الشيخ بسام للخطر، وكأنهم علموا بما يتعرض له، فقال له ضابط المخابرات «فكتور»: أترى، إنهم يهددوننا إذا ما تعرضت حياتك للخطر، وأنت تقول ليس لي علاقة بهم.

فجأة توقف التحقيق العسكري القاسي بعد هذا التهديد، والذي استمر حتى يوم الاثنين دون أن يسمح للشيخ أن ينام، بعدها كان يُذهب به إلى الزنزانة الانفرادية لعدة ساعات ثم يعاد التحقيق معه وهو مشبوح على كرسي صغير دون ظهر، من ساعات الصباح وحتى منتصف الليل، يتناوب ضباط المخابرات في التحقيق معه ليلًا ونهارًا، ولمدة استمرت واحدًا وخمسين يومًا بشكل مكثف، وأربعة وعشرين يومًا بشكل متقطع، حتى خفّ التحقيق معه بعد اعتقال الشبان المسؤولين عن عملية مطعم مكسيم في حيفا وهما المجاهدان أمجد العبيدي وسامي جرادات.

وخلال هذه الفترة، وأثناء يوم من أيام التحقيق تلك، قابله المحقق المدعو «أبو منير» فقال له:

ستحكَمْ بالسجن المؤبد، رد الشيخ لا.

فقال: عشرون عامًا.

رد الشيخ: لا.

فقال: خمسة عشر عامًا.

رد الشيخ: لا.

فقال: عشر سنوات.

رد الشيخ: لا.

قال: سبع سنوات.

رد الشيخ: لا.

فقال المحقق: لماذا؟

فقال الشيخ: لأن صفقة التبادل مع حزب الله قادمة، وقد أخرج من هنا، من أمامك.

فقال «أبو منير»: أقسم لو أننا أجبرنا على الاصطفاف ضابطًا خلف ضابط، للشهادة عليك أمام المحكمة، ما تركناك تفلت من الاعتقال الطويل، على الأقل سبع سنوات.

كل ما جرى ويجري منك، وتريد أن يطلق سراحك؟! حتى لو أفرج عنك، فستلحق بك طائرة الـ «F16» وتقصفك مع أولادك.

رد الشيخ: هذا كلامك مثل كلام العجائز في الأزقة، ولا قيمة له.

عندها استشاط «أبو منير» غضبًا، فنهض وأمسك الشيخ من أذنيه ورجهما، وشرع بالصراخ بأعلى صوته، وقال له:

أقسم إنّك لن تغادر السجن قبل أن تمضي سبع سنوات على الأقل.

أعيد إلى الزنزانة، ليمضي ثمانية وعشرين يومًا في الحبس الانفرادي، لكنه كان يتحدث مع من هم في الزنازين المجاورة، يرفع معنوياتهم، ويتعرف عليهم، ويشد من أزرهم، وفي تلك الفترة

أحضروا عددًا من المعتقلات الفتيات منهنّ منال سباعنة، وفاطمة الحاج محمد من نابلس، وآية كميل من قباطية، ورابعة هي شقيقة هبة دراغمة، وخامسة هي صابرين أبو عمارة، وكان الشيخ يتحدث إليهنّ، ويرفع معنوياتهن.

بعد انقضاء أيام العزل، واعتقال الشبان الذين كان لهم علاقة بعملية «مطعم مكسيم» في حيفا، قامت المخابرات بإدخال هؤلاء الشبان إلى زنزانة الشيخ بسام لأيام بقصد التنصت على ما سيكون بينهم من حديث، فقد أدخلوا عليه المجاهدين سامي جرادات وأمجد العبيدي و(أبو موزة) السائق الذي نقل الاستشهادية هنادي جرادات من حاجز «برطعة» إلى المطعم في حيفا، ومرّ بها على حاجزين دون أن يقوم بتفتيشها أحد، وحدثه كيف طلبت هنادي منه أن يتوجه بها لمطعم معتبر لكي تتناول الطعام، وكيف طلبت منه أن يسبقها إلى السيارة حتى تلحق به، وما أن جلس في السيارة حتى سمع دوي الانفجار الضخم الصادر من داخل المطعم، وشاهد تطاير الزجاج والكراسي، وشاهد الجثث والمصابين، وكيف كان يرى الجريح يسير والدم يخرج من فمه وأذنيه، ثم يقع على الأرض بعد خطوات من السير المتأرجح، ثم فر السائق من المكان من هول ما رأى، لكن جهاز المخابرات تتبعه من خلال صور الكاميرات المثبتة في المنطقة واعتقلوه.

تحدث الشيخ بسام أيضًا عن حالة أخرى صادفته في الاعتقال أثناء وجوده في مرحلة التحقيق، وهو شاب من قلقيلية اسمه سائد الفايد، ينتمي لكتائب شهداء الأقصى حيث كان يملك جرافة يقوم برفع الحواجز الترابية والحجرية التي تضعها قوات الاحتلال على الطرق ومفارقها لإغلاقها أمام المواطنين الفلسطينيين، وأصبح مطاردًا بعد أن قامت دبابة بفتح رشاشها الثقيل على جرافته وهو فيها، فهرب، وعند اعتقاله أحضره المحققون إلى الزنزانة التي يتواجد فيها الشيخ وهو مصاب بكسور في يديه ورجليه، فحدثه كيف ألقى جنود الاحتلال به من على سطح المنزل الذي كان ينام عليه، من الطابق الثاني إلى الأرض، وكيف قاموا برفع يده المكسورة إلى أعلى بعد ربطها في مدفعية الدبابة ورفعها للأعلى، حتى ابتعد عظم يده المكسور عن بعضه البعض.

هذا الشاب ذو تجربة سابقة في الاعتقال، وأثناء التحقيق، صرخ في وجهه المحقق «سغيف» بعد أن قرّب وجهه من وجهه بقصد إخافته وإرعابه، فرد سائد قائلًا:

«ابعد رأسك عن رأسي وإلا ضربتك برأسي على أنفك وأسلت منك الدم».

ويضيف الشيخ أنه بالرغم من أنني لا أحب التدخين، فقد وجدت فيه صديقًا مؤنسًا انسجمت معه، بعد سبعة وعشرين يومًا من العزل حتى إنني أصبحت أساعده في صنع الفتيلة التي تستخدم للإبقاء على وجود فتيلة النار بقصد اللجوء إليها عندما كان يرغب في إشعال سيجارة.

كما أعتقل في نفس الفترة وأحضر إلى أقبية التحقيق الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية في الداخل المحتل، وقد تواصل معه الشيخ بسام بوساطة المحامي، فأرسل له السلامات والتحايا وعاد له المحامي من الشيخ صلاح بمثلها، كما قام الشيخ بالتواصل مع الخارج عن طريق المحامي بشأن ستة شبان معتقلين من حركة « فتح»، وقام بتوكيل محام لهم.

أمضى الشيخ بسام مائة وستة أيام في أقبية التحقيق في سجن الجلمة قبل أن ينقل إلى سجن مجدو، وقد قدمت بحقّه لائحة اتهام استمدت من اعتراف مجاهد قال فيها إن الشيخ بسام فتح له خطًا عسكريًا مع الخارج، وجلب له المال لشراء السلاح، وشراءَ سلاح لمقاوم آخر، وترؤسه لمؤسسة جمعية الإحسان الخيرية، وفتح خطًا لمطارد ثالث.

هذه المحطة من التحقيق الأقسى الذي تعرض له الشيخ بسام وتجاوزه بثبات وقدرة فائقة على الصمود، والذي نادرًا ما ينجو منه أحد دون اعتراف، أضافت هذه المحطة للشيخ بسام تجربة غنية جدًا وناجحة جدًا، بل متفوقة في درب الجهاد، فالتحقيق العسكري الذي يعتبر ذروة الممارسات القاسية والعنيفة جدًا والخاصة جدًا التي تمارسها أجهزة المخابرات الصهيونية ضد بعض المعتقلين، ويمكن أن نقول إنها وسيلة استثنائية، تمكن الشيخ بما فيه من إيمان وقوة وصبر وتحمل وصمود أن يجتاز امتحانها بعلامات عالية، دون أن ينال منه عدوه أي تراجع أو يأخذ منه أي اعتراف.

خاصة ونحن هنا في هذه المحطة نتحدث عن أشياء كثيرة استثنائية جرت حول هذا التحقيق؛ الأولى أن الأمر فيه هو من أكبر وأعلى قمة في دولة الاحتلال وهو رئيس وزرائه السفاح «أرئيل شارون»، والثاني أن الأمر جاء يوم السبت «المقدس» لدى دولة الاحتلال، بمعنى أن أمر التحقيق الخاص بالشيخ جاء على أكبر المعتقدات الدينية التي كسرت حرمة السبت، الأمر

الثالث هو عدد المحققين المشاركين في هذا الحدث، والذين تشكلوا من طاقم تعطلت أعمالهم وتفرغوا للتحقيق مع الشيخ بسام بإشراف أعلى الرتب عندهم وعلى رأسهم مسؤول مراكز التحقيق المدعو «أبو شريف».

والاستثناء الرابع هو توجيهات «شارون» للمحققين باستخدام التحقيق العسكري القاسي حتى لو وصل الأمر إلى الموت، وهذا بحد ذاته مغامرة أشبه بأمر اغتيال، إن جاز التعبير، فمثل قرارات كهذه تحتاج لاجتماع وقرار من ما يسمى المجلس الوزاري المصغر، «الكابينيت».

انتصر الشيخ في هذه المحطة الاستثنائية بكل ما فيها، ونجا من براثنها بقوة عالية واقتدار فريد، وقدّم للأجيال الفلسطينية نموذجًا يُحتذى في الصمود والتحمل والنجاح، إضافة لما مرّ معه من تجارب قاسية، صقلت حياته وتجربته، وعززت مكانته القيادية وعمقتها، ليكون بحق ممن يحملون شهادة القيادي باقتدار وجدارة.

السلاسل الطويلة

نقل الشيخ بسام لسجن مجدو، ودخل بعد الإجراءات الروتينية الطويلة قسم «المعبار» في السجن المعروف لدى الأسرى باسم «القطار» فوجد هناك غرفتين لأسرى الجهاد الإسلامي، تضمان أربعة وعشرين أسيرًا، فاكتشف أنهم لا يملكون إلا جهاز اتصال واحد فقط، وهو ما يدفع أسرى الحركة للذهاب إلى أسرى «حماس» و«فتح» من أجل إجراء الاتصالات مع الأهل، فقام الشيخ بشراء ثلاثة أجهزة جديدة، من أسير اسمه صادق العبيدي، فأصبح لديهم أربعة أجهزة، اثنان للإرسال، واثنان للاستقبال، وأصدر توجيهاته بزيادة خمسين شيكلًا لصرفيات اثنين من الأسرى الخاطبين، كما سمع بوجود أسير من الأردن ضمن أسرى «الجهاد»، فقرر منحه مائة شيكل إضافية للتواصل مع أهله.

وعندما حصل خلاف بين اثنين من أسرى «فتح» و«حماس» في قسم من الأقسام، قام الشيخ بسام برفقة عدد من كبار أسرى الحركتين بالتوجه لذلك القسم لحل الإشكال، وفعلًا

نجح في ذلك، كما قام بالتواصل مع الخارج من أجل تزويد المعتقل بمائة وعشرين تنكة من زيت الزيتون، ومئات الأغطية الشتوية إلا أنه لم يتمكن من تسلمها لأنه كان في سجن آخر عندما أُحضرت، فقد أصدر جهاز «الشاباك» أمرًا بقمع الشيخ وترحيله لسجن آخر، بعد أسبوع من وجوده في سجن مجدو، لكن كل فعاليات المعتقل، ومن كافة الفصائل رفضوا قرار القمع، وقرروا مواجهة الموقف، وهددوا بحرق المعتقل إن قُمِعَ الشيخ، وبقي الموقف الرافض للترحيل أسبوعًا كاملًا، مع إصرار جهاز «الشاباك» على نقل الشيخ لسجن آخر، وفي النهاية رأى الشيخ أن يجنب إخوته المعتقلين مواجهة حتمية ستحصل بسببه، فوافق على الانتقال طواعية، ونقل من فوره إلى عزل سجن «هداريم» بوساطة حافلة كبيرة، كان فيها وحده بحراسة عدد من الجنود.

عندما وصل هناك، أودع العزل الانفرادي لمدة ثلاثة أيام بسبب رفضه الانتقال، ثم أدخل إلى أحد أقسام السجن، إلى غرفة أسرى من «فتح»، فيها الأسيران أمير ذوقان وأيمن بدر، فبدأت وجبات وحفلات العزائم تنهال على الغرفة التي نزل فيها الشيخ، فمكث فيها عدة أيام، قبل أن ينقل لغرفة رقم (10) ويعيش مع كل من الحاج علي الصفوري وسعيد الطوباسي، وقد أتاح له الوجود بين أسرى مخيمه ومن يعرف من الأسرى من قبل أن يستعيد معهم الذكريات، ويستمع منهم ما جرى معهم في الكثير من المحطات، فحدثهم عن البدايات، وعن الفصول التي جاءت من بعد سواء في المطاردات المتلاحقة، أو في المعارك والمواجهات، ففي نوادر المطاردات حدثهم عن بعض المواقف التي مرت به في المطاردة الأولى، فقال:

عندما كنت عائدًا إلى بيتي الكائن قرب مكتب مدير خدمات الوكالة، والمؤلف من طابقين، طابق أرضي يسكن فيه زوج شقيقتي عيد، وأنا أسكن في الطابق الثاني وفيه شُرفة تطل على الشارع، وكانت الساعة العاشرة صباحًا؛ جاءت سيارة عسكرية صهيونية ووقفت مقابل البيت، وأنا ألاعب أطفالي الصغار فنظر ضابط الدورية لي بطرف عينه، وقال للجنود:

هذا هو، دعونا ننتظر حتى يطمئن، ونهاجمه، ونلقي القبض عليه.

أدركت أنهم يقصدونني، فبدأت بمداعبة الأطفال، ثم تركتهم وتظاهرت أني غير مرتبك، ودخلت للطابق الأول الذي كان في نهايته من الخلف باب وشباك مفتوحان دائمًا لانسحابي وقت

الحاجة، أو دخولي للبيت وقتما أشاء، وأغلقت باب البيت على نفسي بإحكام، وركضت وخرجت من الشباك الخلفي، واختفيت بين عشرات النسوة اللواتي كنَّ يحتشدن في مكتب خدمات الوكالة من أجل تسلم الحصص التموينية، ثم ركضت إلى خارج المكتب ومنه إلى الحواري المجاورة وأنا أسمع زوجتي تصرخ وتقول لي:

اهرب يا شيخ بسام، الجيش يقتحم المنزل!

في حين أغارت وحدات الجيش على بيتي وبيت خالي وبيت أهلي، بقصد اعتقالي.

دخل الجيش منزلي، وقالوا لأم إبراهيم:

أين هو؟ لقد كان هنا قبل ثوانٍ، هل بلعته الأرض؟

قالت: لا أعرف.

الموقف الثاني من مواقف المطاردة الأولى، كان موقفًا مؤثرًا، فقد كنت في تلك الليلة نائمًا على سطح بيت المرحوم «أبو بسام الشافع السعدي» فاستيقظت على صوت أم بسام، وهي تقول لي:

انهض؛ الجيش يُطوّق البيت والحارة!

نظرت من أعلى المنزل على الحارة، فشاهدت قوات كبيرة من الجيش تحاصر البيت فعلًا، وكان لدى تلك العائلة كلب من نوع «ولف» ألماني يطلق عواء طويلًا يشبه عواء الذئب عندما يشتم رائحة الجنود والبارود، فزحفت، وقمت بمد لوح خشبي من مكاني لبيت ابن تلك العائلة المجاورة، ومنه نزلت في حظيرة أغنام، ومنها إلى حاكورة فيها شجرة تين وأشجار أخرى، فسرت على يدي وقدمي بحذر شديد حتى لا أخرج صوتًا، وأنا أدوس أوراق الشجر الجاف تحت يدي وقدمي، ومنها توجهت زحفًا إلى بيت أبو علي المطاحن، ومن ثم إلى شرفة بيت الشيخ مصطفى الحلاق، حتى وصلت إلى حاكورة بيت رجل من بيت المطاحن، كان قد فك لي حديد الشباك المثبت في الغرفة الرئيسة في البيت ليسهل عليّ الانسحاب وقتما أشاء، وفي أي وقت مهما كانت الظروف.

ويتابع الشيخ قائلًا: جلست بهدوء في حاكورة البيت تحت شجرة التين الكبيرة والكثيفة، حتى توقف عواء الكلب، فأدركت أنهم قد انسحبوا، فذهبت بحذر إلى بيت أحد الجيران وأكملت نومي تلك الليلة، وقد تكرر هذا الأمر مرتين، إلى أن جاءت وحدة من حرس الحدود نهارًا إلى ذلك البيت، فأطلقت النار على الكلب بقصد قتله، فأصيب بجراح بالغة جعلته في حالة احتضار لمدة يومين، حاولت وأهل البيت إنقاذ حياته، فأحضرنا له طبيبًا بيطريًا، لكن الطبيب رأى أن حالته ميؤوس منها، وأنه _إن عاش_ سيعيش مشلولًا، فلابد من إعطائه إبرة الرحمة؛ حتى يستريح.

شعرت أن خسارة هذا الكلب كانت بسببي، فعرضت على أهل البيت شراء كلب بديل، مهما كان ثمنه، لكنهم لم يتواصلوا معي لإتمام ذلك العرض.

موقف ثالث: كان بعد أربعة أشهر من الغياب التام عن البيت، حيث كان منع التجول على المخيم ساري المفعول، عدت إلى بيتي متسللًا من الخلف عبر مكتب الوكالة، دخلت، وأخذت ألاعب أطفالي، وخصوصًا طفلتي ضحى، ولأني منهك من السهر، شعرت بالنعاس، فنمت، فرأيت في منامي أن جنديين من جنود الاحتلال يلاحقانني حتى أعلى منطقة المخيم وصولًا لمنطقة تسمى «النبي سبع»، وأنهما أمسكا بسترتي التي أرتديها، لكنني خلعتها عني، وتمكنت من الإفلات منهما، عندها استيقظت وإذا بزوجتي تقول لي:

أفق، الجيش يطرقون الباب، لقد خرج عيد إلى الشارع، فرأوه ولحقوا به، وهم يطرقون الباب الآن.

شعرت أني وقعت في الاعتقال فعلًا، وما أن وقفت لأحضر نفسي للقادم، حتى كان الجيش قد دخل البيت، سألني الضابط:

ما اسمك؟

قلت: بسام السعدي.

قالوا لي: أين ذهب الذي هرب قبل قليل إلى هذا البيت؟

أدركت لحظتها أنهم يقصدون زوج أختي عيد، خاصة وأني طويل القامة، وعيد قصير القامة، فقلت:

لا أعرف، لعله خاف منكم لأنه خرج في منع التجوال.

نزلوا إلى الطابق الأسفل ثم عادوا، فقال الضابط لي:

إذن أنت الذي هرب؟

عندها تدخلت زوجتي أم إبراهيم بذكاء بعدما أحست أنهم سيعتقلونني، وقالت:

لماذا لا تقول لهم أن عيد هو الذي هرب؟

فقلت: أنا لا أعرف.

الضابط كتب اسم عيد على علبة الدخان، ونزل مرة أخرى إلى الطابق الأول، وسأل شقيقتي عن اسم زوجها، فقالت: عيد.

فأيقن أن من هرب هو عيد، فعاد إلى بيتي، وسألني:

لماذا هرب منا؟

رددت: لا أعرف، مع أنه يعمل بتصريح رسمي في أحد المطاعم في تل أبيب، ويغيب أسابيع عن البيت، وقد عاد أمس في إجازة.

اقتنع الضابط، والجنود، وغادروا البيت.

خفت من عودتهم فغادرت أنا أيضًا، وذهبت للاختباء في بيت أحد أقاربي، فجاء إلي عيد، وقال لي:

أصبح اسمي عندهم؟

قلت له وأنا أبتسم: لا تقلق، إذا ألقوا القبض عليك قل لهم هذا الشيخ بسام الذي

تبحثون عنه، هو الذي أبلغكم عني لكي يفلت منكم.

فعلًا، بعد أربعة أيام دخلت قوات الجيش، وقامت بجمع هويات كل من تواجد في ساحة المخيم، وكان من بينهم عيد، فشعروا أنهم قد ألقوا القبض على مطارد، قالوا له:

لماذا هربت منا قبل أيام؟

فقال: لا، لست أنا، من أخبركم ضحك عليكم، إنه فعل ذلك؛ ليتمكن من الإفلات، أنا أعمل في مطعم في تل أبيب، وأحمل تصريح عمل رسميًا، وأذهب إلى هناك باستمرار، فشعروا أنهم خدعوا للمرة الثانية من قبلي لأنني كنت من أكبر المطلوبين، واستطعت الإفلات من بين أيديهم، فقاموا بإجراء الاتصالات، واقتحام منزلي من جديد، والاعتداء على كل من فيه، لغيظهم وشعورهم بأنهم خدعوا من قبلي كوني المطلوب لهم منذ مدة.

كان أمير أسرى «الجهاد» في هداريم أبو حسن عليوة، كما وجد من أسرى «الجهاد» هناك كل من: وائل فنونة، وعبد الرحمن شهاب، وثابت المرداوي، والحاج علي الصفوري، وسعيد الطوباسي.

أمضى الشيخ في هداريم أيامًا من أجمل ما يكون، وقد نسج علاقات قوية مع الجميع، وجاء إلى القسم بعدها الأسير اللبناني الشهيد سمير القنطار وبعدها الأسير مروان البرغوثي، والأسير يحيى السنوار، والأسير الشيخ جمال أبو الهيجاء، والأسير جمال حويل، والأسير بسام أبو عكر، والأسير سامح شوبكي، والأسير أيمن طبيش، والأسير خالد الزواوي، والأسير عبد الخالق النتشة (أبو جبير)، والأسير كمال أبو نعيم، وقد كان هؤلاء الأسرى الطلائعيون في فصائلهم يجتمعون أحيانًا صباحًا من الساعة العاشرة ولغاية الساعة الثانية عشرة في جلسة هي أشبه بصالون سياسي، يتم خلاله مناقشة الأوضاع السياسية والوطنية.

كان الشيخ من المهتمين كثيرًا بقراءة الكتب، شأنه شأن الكثير من الأسرى هناك، فقد كان يدخل للأسير مروان البرغوثي صندوق من الكتب باستمرار، بالإضافة لما يأتيه من الكتب، يتلقفها الشيخ وثابت والزواوي وغيرهم، ويقومون بقراءتها قبل الأسير البرغوثي أحيانًا، وكان الشيخ يقرأ أحيانًا اثنتيّ عشر ساعة في اليوم، وأقله خمس ساعات يوميًا.

وفي الجانب الاجتماعي، كان كل من يدخل للقسم كقادم جديد، يلقى الاحترام والتقدير، ويتلقى دعوة لتناول الغداء أو الإفطار على شرفه من قبل أسرى «الجهاد» بمبادرة من الشيخ السعدي، يساعده في هذا التوجه سعيد الطوباسي والحاج علي الصفوري ومجدي الصوص.

كما كان له حضور بالغ حتى في حل الإشكاليات بين أسرى التنظيمات الأخرى، فقد حصل إشكال بين أسيرين من «فتح» لم يتمكن أحد من إصلاح ذات بينهما إلا الشيخ بسام الذي توجه نحوهما وأمسك كل منهما بيده وأدخلهما الغرفة، وقد فض الخلاف بينهما.

في شهر أبريل (نيسان) من العام 2004م، استبدل مدير سجن «هداريم» بمدير آخر اسمه «طافش»، فشرع في اتخاذ خطوات تضييق على الأسرى وحياتهم اليومية، منها أن يتلقوا الطعام عبر الفتحة الصغيرة للأبواب، فرفض الأسرى في القسم هذا التصرف وكل ما ينوي فعله، وأعلنوا الإضراب المفتوح عن الطعام لمدة ثلاثة عشر يومًا، وقد قمعت القيادات في القسم وبقي آخرون، فأكمل الشيخ قيادة الإضراب في القسم حتى أعادوا الوضع إلى ما كان عليه.

جاء الثالث عشر من يوليو (تموز) من نفس العام، وهو اليوم الذي اغتيل فيه القائد الواعي المثقف الشهيد نعمان طحاينة (أبو الحسين)، فبكاه الشيخ بكاء لم يبكِ مثله أولادَه وأمَّه وابنَ أخيه، فهذا (أبو الحسين)، كان له فضل حتى على المؤسسين في الحركة، وهو متميز بثقافته العالية والفريدة، وأخلاقه، ووعيه، ووحدويته، وحضوره، كما زاد حزن الشيخ عندما سمع خبر اعتقال كل من محمد فارس جرادات وفوزي السعدي، فشعر أن شباب التنظيم الذين يمكن الاعتماد عليهم في جنين قد اعتقلوا، ومن سبقهم مثل الشيخ شريف طحاينة.

في شهر أغسطس (آب) من نفس العام، جرى إضراب ثان عن الطعام دام ثمانية عشر يومًا، فقامت سلطات السجن بقمع قادة الإضراب من كل الفصائل منهم الأسيران القائدان أبو جهاد اغبارية وياسر داود، وقدما على الشيخ وهمسا في أذنه من أجل مواصلة قيادة الإضراب بسرية، فكان الشيخ على قدر التوصية وتحمل الأمانة، فقد كان يرفع المعنويات، ويكتب التعميمات، ويمررها، ويوجه أسرى «الجهاد» الموجودين في القسم، وقد كان في غرفة فيها ثلاثة هو رابعهم، منهم الأسير محمد الغوادرة، وأبو حديد من بلدة سالم قرب نابلس، وآخر من الخليل من أسرى

فتح، فكان يسرد عليهم القصص والروايات والعِبَرْ والنكت، ويرسم الابتسامات على وجوههم، ويقوم بتزويدهم بالملح والماء، ويتمشى في الغرفة، ومن القصص والمواقف التي سردها على مسامعهم ليشحذ هممهم، ويرفع معنوياتهم وهم ممددون على الأسرّة ما جرى معه خلال المطاردة الأولى من بعض المواقف، فقال:

منَّ الله عليّ من الهدوء والتحكم في ردة الفعل، ما ساعدني كثيرًا ومرارًا في الإفلات من الاعتقال أكثر من مرة، بل ارتقت تلك المواقف لدرجة جعلت قوات الاحتلال مدعاة للسخرية والتندر بفعل تلك المواقف والمقالب التي كانوا يتلقونها من خلال إفلاتي منهم، حتى الاعتقال لم يكن هو أيضًا بذكاء أو مهارة الاحتلال ومخابراته، وقد صادق على ذلك جهاز مخابرات الاحتلال بنفسه لحظة مداهمة بيتي، فقد امتنعت عن الهرب بمحض إرادتي، وأشرت لضابط مخابرات المنطقة الذي كان على رأس الحملة وقتها إلى الباب الخلفي الذي كان مشرعًا وجاهزًا لكي أعبر منه، ومن هذه المواقف والحوادث نذكر الآتي:

الموقف الأول: ذهبت إلى بيت ابنة عمٍّ لي قادمة من الأردن، فأبلغتني أنها ترغب بالعودة لبيتها بعد أن استكملت زيارتها، وأنها تعاني من منع التجول الذي يحول دون حصولها على بطاقة هوية جديدة، فقررت التوجه نهارًا إلى بيت أبو رائد القوصيني الذي كان موظفًا في مكتب الهويات لتعجيل مهمة استصدار هوية جديدة بالسرعة الممكنة، سرت في أزقة المخيم قاصدًا بيت (أبو رائد)، وعندما وصلت قلب حارة الحواشين، وأردت الانعطاف من خلف بيت علي الحلوة؛ اصطدمت بضابط من جيش الاحتلال كان يقود سرية من الجنود عند حافة ذلك المنزل وجها لوجه حتى إن جسمي وجسمه ارتطما ببعضهما البعض، فرجع الضابط وجنوده للخلف خطوات، وفررتُ أنا من المكان.

الموقف الثاني: في يوم من أيام التصعيد المشهودة في المخيم؛ كنت في منزل صديقي فتحي أبو عيطة، الواقع في حارة السكة، أقصى شمال غرب المخيم، فاقتحم الجيش المحتل بيوت الحارة، ومنها بيت صديقي الذي كنت فيه، فصعدت أنا وشقيق صديقي واسمه هايل أبو عيطة إلى سدة المطبخ، وتواريت جيدًا على ظهر السدة مستخدمًا حاجزًا هو عبارة عن صندوق مذياع كبير

وقديم وفارغ، فيه ثقب أتاح لي مراقبة ما يجري، وخلفه كانت طاولتان استلقى عليهما هايل بكل جسده إلا قدميه، كانتا بارزتين بشكل واضح من جهة المطبخ، دخل الجنود البيت، ودخلوا المطبخ، وقاموا بالتفتيش، ولم يلتفتوا لقدميْ هايل مع أنهم حدقوا ودققوا جيدًا تجاه السدة، وكنت وقتها أقرأ فواتح سورة ياسين، وأكررها باستمرار، فأعمى الله بصيرتهم، ولم يتمكنوا من اعتقالي، ولا اعتقال شقيق صاحب البيت.

الموقف الثالث: ذات مواجهة، وعندما كنت أشرف وأشارك وأوجه المنتفضين في الحارة الغربية من المخيم، وبينما كنت أُلقي الحجارة وسط طلقات الرصاص التي كان يطلقها الجنود المقتحمين للمخيم من كل الجهات؛ تفاجأت بهجوم الجنود علي بشكل مباشر، فاستدرت حول حاوية نظافة وفررت شرقًا، فشعرت بتقدم فرقة خاصة من الجيش من جهة طلعة الحجة عيشة، فتزحلقت وكادوا يعتقلونني، لكن شابًا من المنتفضين الفارّين وهو نضال أبو ناعسة، رفعني بسرعة، وفرّ بي إلى «جورة الذهب» ومنها لحارة «السمران» ومنها صعودًا إلى حارة «خبيزه»، فدخلت بيت (أبو إياد العزمي)، واختفيت هناك لمدة ثلاث ساعات متواصلة، وفرق الجيش المحتل لا زالت تبحث عني وعن المنتفضين حتى هدأت الأحوال، وحل الظلام، فانسحبت إلى مكان آخر، وللمفارقة بعد أشهر أصيب نضال أبو ناعسة وكان عمرة ستة عشر عامًا بالرصاص، وكنت قريبًا منه، فحملته على كتفي حتى وصلت به حارات أعلى المخيم لتأمين نقله للمشفى لعلاجه.

الموقف الرابع: كنت مرّة في بيت شقيقي غسان حيث لجأت إليه مساء يوم من أيام المطاردة، وخرجت منه لأعود إليه أمام المارة برفقة أختي وزوجها عيد الذي اشتقت إليه. كان في بيت غسان غرفة على ظهر سطح المنزل، فنمت فيها، لكني استيقظت على شقيقتي وهي توقظني، وتقول لي إن الجيش طوّق البيت، وهو يطرق الباب في ظل سقوط المطر الغزير والبرد القارس، فنزلت بهدوء حتى رأيت شقيقي غسان الذي تأخر في فتح الباب، فقام غسان بإخفائي في مخبأ محكم التمويه في نفس البيت، وعندما دخل الجيش برفقة ضابطيّ مخابرات أحدهما كان مسؤولًا سابقًا عن المخيم يدعى الكابتن «أسد» والثاني الكابتن «أودي»، ففتشا المنزل غرفة غرفة، ولم يعثرا على أحد، وسألا غسان عني فقالا:

الشيخ بسام دخل البيت ولم يخرج منه؟

رد غسان قائلًا: نعم، دخل لكنه خرج.

لم يقتنعا بما قاله غسان، وعند مغادرتهما أمر الكابتن «أسد» الكابتن «أودي» باعتقال غسان، ليقضي في الأسر أربعة أشهر، وبعد مغادرة الجيش لبيت غسان بساعة، قامت شقيقتي بفتح المخبأ لخروجي، وأبلغوني أن غسان قد تم اعتقاله، فقلت لهم وأنا أبتسم:

اصنعوا لنا إبريقًا من الشايّ، وأحضروا معه قطع «الكرشلة». حتى أضفي على الجوّ نوعًا من المرح.

الموقف الخامس: والذي سبق الاعتقال كان عندما اختبأت في بيت عمر أبو عميرة الواقع في أقصى جنوب شرق المخيم بعد مداهمة المنطقة هناك، وكان بيت أبو عميرة ملاصقًا لبيت والده، والذي يرتبط بباب سرّي، فقام جنود الاحتلال بتفتيش كامل لبيوت الحيّ، وأنا أقرأ نفس الآيات السابقة (فواتح سورة ياسين) وعندما أراد أحد الجنود طرق باب البيت الذي أتواجد فيه، أوقفه الضابط، وأمره بالانسحاب.

الموقف السادس: عندما قام المجاهد نضال زلوم بتاريخ 03/ 05/ 1989م بطعن عدد من المستوطنين في القدس أدى إلى مقتل اثنين وإصابة ثلاثة، رفعت هذه العملية المعنويات عاليًا، فقمت أنا وخمسة من الإخوة بارتداء الأقنعة ليلًا وخرجنا لكتابة الشعارات المؤيدة للعملية على جدران بيوت المخيم وحوانيته، رغم حظر التجوال المشدد، فلاحقنا جنود الاحتلال بوابل من النار، لكننا عزمنا على إكمال مهمة الكتابة مهما كانت المخاطر ومهما كانت الملاحقات، وقد عبرنا المخيم من منطقة الساحة إلى منطقة مسجد عبد الله عزام، ونحن نركض ونخط العبارات، وعندما وصلنا قريبًا من بيت (أبو زياد العامر) في أقصى جنوب المخيم، اصطدمت بلوح من الصبار، وآذاني في خاصرتي لأشهر طويلة، ثم انعطفنا للحارة الغربية، ودخلنا إلى منزل المرحوم سعادة أبو الهيجاء حيث لم نتمكن من العودة لبيوتنا، فبتنا ليلتنا في ذلك البيت بسبب منع التجول.

وكنت كلما أردت التنقل في المخيم أثناء منع التجول يسير أمامي الشبل أيمن السعدي، ويسير خلفي شقيقه الشبل مجاهد السعدي، بعد أن أحضرت لكل منهما دراجة هوائية، فكان الأول إذا شعر بوجود جيش الاحتلال، تراجع للخلف، فأعرف أن الجيش أمامي، وإذا تقدم من كان بالخلف، أدركت أن الجيش قادم من الخلف، كما كنت أوصي أحدهما بالتظاهر أن جنزير دراجته قد تعطل عندما يصل قرب دوريات «حرس الحدود» الذين كان غالبيتهم من الدروز الذين كانوا يتحدثون باللغة العربية أحيانًا حتى يتمكن من معرفه وجهتهم إن أمكن.

وعن مشاعر المطارد خاصة في فصل الشتاء قال الشيخ لزملائه الأسرى المضربين عن الطعام:

الأيام الماطرة والباردة قد تكون عادية لباقي الناس، لكن الأمر عند المطارد مختلف حيث تكون المشاعر مختلطة ممزوجة بين الألم والمتعة، وأكثر ما كان يزعجني عندما كانت الكلاب تنبح بقوة وبشكل متواصل، فلم يكن يغمض لي جفن خشية الاقتحام المفاجئ لقوات الاحتلال، فأظل يقظًا حتى انبلاج الصباح، أو حتى تصمت الكلاب؛ لأن ذلك الصمت غالبًا ما يكون مؤشرًا على مغادرة قوات الاحتلال.

الدقائق واللحظات لا تمر في ليل المطارد هكذا كباقي البشر، بل تكون قاسية ومنتظرة ومحتسبة وقلقة رغم أن الخوف رحل من حياتي مبكرًا بفعل التكرار والممارسة، وما بقي هو التحفز الدائم والمتواصل لمشاعري وأحاسيسي على مدار الساعة، ليلًا ونهارًا، صبحًا ومساء، صيفًا وشتاء.

قال أحد الأسرى المضربين، وهو يستمتع لسماع تلك المواقف والقصص:

والله لولاك يا شيخ ما صبرنا وصمدنا في الإضراب، إنّ لحضورك طاقة في رفع المعنويات.

تواصل الإضراب بالرغم من قمع قادته من كل الفصائل مثل سمير القنطار، ويحيى السنوار، وروحي مشتهى، وأبو جهاد إغبارية، وعندما عادوا إلى القسم، ومن بينهم قيادات أسرى «الجهاد»، ونظموا اجتماعًا في ساحة القسم، وعرضوا اتخاذ خطوات بعد أن شعروا بأن الإضراب ممكن أن يضعف ويتوقف إثر موقف بعض الأسرى في بعض السجون، فطلبوا المشورة من باقي الأسرى، فتحدث الشيخ عن موقفه قائلًا:

أنا لا أريد أن أزايد عليكم، وأنتم أصحاب تجربة كبيرة عمرها عشرات السنين، وبحضرتكم يخجل الإنسان أن يتكلم، ولكن اسمحوا لي في ملاحظة؛ يقول «أرئيل شارون» في مذكراته، (كنا ننتصر عندما تتوقف الجيوش العربية عن حربنا بعد أن نكون على وشك الهزيمة، فتتحول هزيمتنا إلى نصر...).

دعونا نصبر للأسبوع القادم؛ فقد ننتصر!

أيّد هذا الموقف جمال حويل وزكريا النجيب (أبو عبد الله)، لكن في النهاية حُلَّ الإضراب دون تحقيق الأهداف التي كانوا يتمنون تحقيقها لأسباب خارجة عن إرادة الأسرى، ومنها ضعف التنسيق مع بعض السجون.

وفي تاريخ الثامن والعشرين من فبراير (شباط) من العام 2007م، أقدمت الوحدات الخاصة الصهيونية على تنفيذ عملية اغتيال مروعة بحق ثلاثة شبان من مخيم جنين من سرايا القدس الجناح العسكري للجهاد الإسلامي وهم؛ الشهيد أشرف محمود نافع السعدي والشهيد محمد أحمد أبو ناعسة والشهيد علاء الجبالي، وكان لهذا الحادث الأثر الكبير في نفس الشيخ بسام الذي كان قد انتقل من سجن هداريم إلى سجن عسقلان.

صندوق 2006

في الفترة التي سبقت الإعداد لانتخابات المجلس التشريعي في العام 2006م، كان في سجن هداريم، وفي ذات القسم الذي كان فيه الشيخ بسام تسعة من كبار هيئة قيادة أسرى «حماس» في كل السجون من أصل خمسة عشر عضوا، منهم: يحيى السنوار وعبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى وعلي العامودي وعبد الحكيم حنني وروحي مشتهى وغيرهم، وقد جرت نقاشات حول هذا التحول تجاه الدخول في الانتخابات في ظل أوسلو، فحركة «حماس» حركة مقاومة، وهي بهذا تريد الانتقال بنفسها من حركة مقاومة إلى حركة حكم ومقاومة، وكان هذا الأمر غير المسبوق مستغربًا، ويشوبه التخوف من فشل التجربة، فقد كانت القيادة الحمساوية للأسرى

تناقش باقي الأسرى من المثقفين والمتنورين من باقي الفصائل، ومنهم الشيخ بسام الذي عَبّرَ لهم عن رأيه بهذا الخصوص قائلًا:

ستنجحون في الانتخابات لسببين:

أولهما؛ المقاومة، وثانيهما؛ الخدمات التي قدمتموها للشعب.

لكن هذه سلطة تحت الاحتلال، لا يمكن للاحتلال أن يسمح لأحد أن يعلوَ بسقفه أعلى من سقف أوسلو.

فسألوه: ماذا تتوقع؟

أجاب: إذا كان في المجلس التشريعي صورتان لعضوين أسيرين على كراسي المجلس، فأتوقع أن يصبح المجلس التشريعي كمتحف «اللوفر» في باريس، معظمه صور؛ لأن الوزير سيعتقل، والنائب سيكون مطاردًا، ولن يسمحوا لكم بالنجاح، وستحاصرون، وتحاربون، وسيعملون على إفشالكم، ولا أدري كيف يمكن حمل الحكومة ومسؤولياتها في يد والمقاومة باليد الأخرى في آن واحد؟!

وأثناء اختطاف مجموعة قريبة من تنظيم «القاعدة» في غزة لصحفي أجنبي، جاءت قناة «فكس نيوز» وطلبت من الشيخ بسام أن يوجه كلمة للخاطفين حتى لا يقوموا بتعريض حياته للخطر، فقال لضابط أمن السجن:

نحن الجهاد الإسلامي ليس لنا علاقة من قريب أو بعيد بتنظيم القاعدة.

فرد الضابط: نعم أعرف، ولكن يعتبرونكم الأقرب.

شاور الشيخ بسام ممثلي الفصائل فشجعوه على إجراء المقابلة من منطلق إبراز الدور الإنساني للأسرى ضمن الرد على تشويهات الجانب المعادي، وهو الذي يروّج دائمًا أنّ الأسرى إرهابيّون، ففعل.

وفي الثلاثين من أغسطس (آب) من العام 2006م، ارتقى الشهيد القائد حسام جرادات، إثر اغتيال وسط المخيم بعد مطاردة طويلة حافلة بالجهاد، فحزن الشيخ عليه كثيرًا، لكنه بقي متيقنًا أن قوافل القادة والمبدعين لن تتوقف حتى يتحقق حلم النصر والتحرير.

وثيقة الأسرى

قبل أن يحصل الانقسام في عام 2007م، جرت مناوشات في قطاع غزة بين أنصار «فتح» و«حماس»، وكان ذلك مقلقًا لكل فلسطيني وطني غيور، ففكر الشيخ ذات ليلة بمبادرة تخرج من قادة الأسرى للجم هذه الحالة ومنع تفاقمها، فاقترح على عبد الناصر عيسى، وهو من قادة أسرى «حماس» بإصدار بيان يرفض هذه الحالة، ويؤكد ضرورة الوحدة، ورص الصفوف، والابتعاد عن خطر التشرذم، فوافقه عيسى الرأيّ، وتحدثا مع عبد الرحيم ملوح والبرغوثي فاتفق أربعتهم وأصدروا بيانًا أرسلوه إلى الخارج وكان يعبر عن رأي الأسرى من الفصائل الأربعة.

وقتها قال الأسير القائد مروان البرغوثي إنه يفكر في إصدار وثيقة باسم الأسرى عرفت لاحقًا بـ «وثيقة الأسرى» قام بصياغة بنودها من ناحية مبدئية، وقد شكل أسرى «الجهاد» لجنة لدراسة الوثيقة، ومراجعتها قبل التوقيع عليها، وكانت اللجنة مكونة من الشيخ بسام، وثابت المرداوي، وبسام أبو عكر، ووائل فنونة، وعبد الرحمن شهاب، وخالد الزواوي كمستشار يحمل الماجستير في العلوم السياسية. وكذلك فعلت «حماس» فقد شكلت لجنة مكونة من عبد الخالق النتشة وروحي مشتهى وعبد الناصر عيسى، والعامودي، ومن «فتح» مروان البرغوثي ومعه منصور شريم وجهاد غبن.

وكانت الوثيقة مكونة من ثمانية عشر بندًا، وقد تأخر التوقيع عليها لمدة ثلاثة عشر يومًا، وكان التأخير بسبب موقف «الجهاد» الذي تطلب المناقشة المتعمّقة، والموافقة التي تتلاءم مع منهجهم وطريقتهم وأدبياتهم في الصراع، فكان لابد من مراجعة الوثيقة عدة مرات، والتوقف عند كل كلمة فيها، فمثلًا كان هناك بند بخصوص القرارات الدولية، فرفض أسرى «الجهاد»

هـذا البنـد بصيغتـه المكتوبـة فأشـار علينـا الأخ الـزواوي أن نضيـف كلمـة «المنصفـة» وراء كل مصطلح «القـرارات الدوليـة»، لتفسـيرها حسـبما نريـد.

كـما اعترضنـا عـلى بنـد دمـج الأجنحـة العسـكرية للفصائـل بالأجهـزة الأمنيـة، وقـال الشـيخ للبرغوثـي:

هـل تـرى أن هـذه الأجهـزة كفيلـة بتحريـر البـلاد مـن المحتـل؟ الـدول العربيـة التـي تملـك أسـلحة أكـبر وأوسـع، لا تقاتـل، وقـد صدئـت أسـلحتها في المخـازن، بالإضافـة إلى أن السـلطة الفلسـطينية مقيـدة باتفاقيـات.

وقـد ألغـي هـذا البنـد، بالإضافـة لـورود بنـد يشـير إلى حـصر المقاومـة في الضفـة؛ الأمـر الـذي رفضتـه لجنـة أسرى «الجهـاد» وفي مقدمهـم «الـزواوي»، وطلـب بتغيـير البنـد مـن حـصر إلى تركيـز، وهـذا التغيـير لا يُلغـي العمـل في الداخـل المحتـل عنـد الـضرورة.

وبعـد تعديـل تلـك البنـود، وقـع الشـيخ بسـام باسـم أسرى حركـة «الجهـاد» هـذه الوثيقـة، التـي اسـتخدمت في الخـارج مـن قبـل القيـادة الفلسـطينية لغـير مـا كُتِبَـتْ لـه، فقـد كُتِبَـتْ مـن أجـل إيقـاف الاقتتـال والتناحـر بـين الفصيلـين الكبيريـن «فتـح» و«حمـاس»، وتكويـن ملتقـى جامـع بـين فصائـل العمـل الوطنـي والإسـلامي، لكـن الاسـتخدام غـير الجيـد من قبـل بعض القيـادات أظهـر وكأن أسرى «الجهـاد» يعترفـون بالقـرارات الدوليـة التـي تعـترف بوجـود الكيـان الصهيـوني، وهـذا منـاف لأبسـط أدبيـات حركـة الجهـاد الإسـلامي في فلسـطين والـذي لا يمكـن أن يكـون مقبـولًا عنـد أي عنـصر في الحركـة.

قيـادة حركـة الجهـاد الإسـلامي في الخـارج والداخـل لم يَـرُقْ لهـا توقيـع أسرى الحركـة عـلى هـذه الوثيقـة، خاصـة بعـد تحويـر هدفهـا، فحصلـت موجـة انتقـادات واسـعة لهـا، كـما أن الحركـة لم تقـم بإرسـال أي مـن المحامـين أو غـير المحامـين للاسـتفسار عـن الموقـف، والوقـوف عـلى مـا حصـل، وأمام ذلـك التجـاذب في المواقـف نظـم الجنـاح العسـكري للحركـة (سرايـا القـدس) في مخيـم جنـين مؤتمـرًا صحفيًـا أكـد عـلى دعـم موقـف الأسرى الذيـن وقعـوا الوثيقـة، لكـن هـذا الأمـر لم يـرق للشـيخ بسـام

الذي رأى فيه ما يمكن أن يزعج القيادة في دمشق، فهو لا يتخيل أن يقف يومًا موقفًا يزعج فيه قيادته التي ينتمي إليها، ويجلّها ويحترمها ويقدر رأيها ونهجها، وقال لمن هم حوله:

لو أمرني الدكتور القائد «رمضان عبد الله شلّح» أن ألزم زنزانتي لشهر ولا أخرج منها لامتثلت دون أن أبحث عن السبب، فنحن أهل الالتزام والانضباط.

بعد فترة من الزمن، تحدث مع القيادي في «حماس» عبد الخالق النتشة، وأصدرا بيانًا يعلنان فيه الانسحاب من الوثيقة؛ لأنها سيقت لغير هدفها الحقيقي.

بعد ذلك أرسل الدكتور القائد رمضان عبد الله شلّح الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي رسالة مكونة من ثلاث صفحات، كانت رسالة رائعة وقوية وشاملة، جرى تعميمها على كل أسرى «الجهاد» في سجن هداريم وباقي السجون، وقد ردّ عليها الشيخ بسام برسالة جوابية تحمل آيات الانتماء والولاء، والقدرة والشجاعة على التراجع عند أي اجتهاد خاطئ.

مكث الشيخ سبعة وثلاثين شهرًا في سجن «هداريم»، عمل خلالها على ترسيخ عادات اجتماعية جميلة منها تكريم كل وافد جديد مهما كان، ومن أي فصيل كان، كما عمل خلال وجوده في القسم على نقل الأسير القائد عبد الرحيم ملوح الذي التقاه أثناء زيارة الأهل؛ من القسم الذي كان فيه، إلى القسم الذي هو فيه؛ لأن ذلك القسم الذي كان فيه ملوح فيه أسرى صغار السن، وكون ملوح رجلًا كبيرًا في العمر والمكانة، يتوجب أن يكون في قسم أسرى كبار، ومن جميع الفصائل، فدخل الشيخ على سمير القنطار ومروان البرغوثي، وطلب منهم ذلك، وبعد التنسيق مع الإدارة بهذا الشأن، نقل ملوح للقسم الجديد.

وكان الشيخ يحترم القائد ملّوح كثيرًا، ويستمع إليه دائمًا للاستفادة من تجربته الطويلة والعميقة خاصة أنه قائد مخضرم عايش الشهيد القائد ياسر عرفات، والقيادة الأولى للثورة الفلسطينية، حتى عبّر ملوح للشيخ ذات يوم قائلًا إنه غير نادم على هذا الاعتقال وسنواته السبع؛ لأنه تعرف على الشيخ بسام، كما كان الشيخ يجلّ كثيرًا القائد الأسير أحمد سعدات، الذي دخل القسم في اليوم الثاني من رمضان، فأعد الشيخ عزومة إفطار على شرفه بحضور قادة الفصائل.

وكان سعدات قد التقى بغسان السعدي شقيق الشيخ بسام في رحلة البوسطة، فحدث (أبو غسان) الشيخ بسام عن الاحترام الذي تلقاه منه، وأن أبو الراغب كأنه مختار بلد، وهو لا يعرف أنه شقيق الشيخ بسام، فأبلغه الشيخ أنه شقيقه وهو معتقل إداري، وسرد له كيف تعرض شقيقه غسان للاعتقال مرتين بسببه، الأولى بعد الاتصال الذي جاءه من الحج رمضان مسؤول الحرس الثوري في لبنان بمناسبة العيد، والثاني عندما دُهِم منزله وكان الشيخ مختبئًا فيه، وفي كلتا الحالتين أمضى أربعة أشهر اعتقالًا إداريًا، فضلًا عن سنيّ اعتقاله التي أمضاها في السجون.

ويذكر الشيخ أيضًا، كيف تعطلت المروحة الخاصة به ذات ليلة، ولم يهنأ بالنوم، وفي صباح اليوم التالي تفاجأ بيحيى السنوار وهو يحمل مروحة جاء بها من إحدى غرف «حماس»، وقدمها للشيخ كهدية احترامًا وتقديرًا لقدره ومكانته ومواقفه الوحدوية، وعلاقاته الطيبة مع الجميع.

كان تعامل الشيخ يهدف لأن يكون أسرى «الجهاد» عابرين للفصائلية، ومجسدين للوحدة لكون الأسرى هم طلائع الشعب الفلسطيني المجاهد.

إلى سجن عسقلان

بعد أن أمضى سبعة وثلاثين شهرًا في سجن «هداريم»؛ نقل الشيخ بسام إلى سجن عسقلان، فحصل الانقسام بعد أشهر، فكان قرار إدارة السجون فصل أسرى حركة «فتح» عن أسرى حركة «حماس» مع بقاء أسرى «الجهاد» مع الطرفين، مع ذلك رفض كبار الأسرى من «فتح» في قسم 3 من سجن عسقلان مغادرة الغرفة التي كانوا فيها عندما علموا بقرب مجيء الشيخ بسام حتى يلتقوا به ويعيشوا معه لمدة أسبوع على الأقل، وكان من نزلاء تلك الغرفة الأسير نزار التميمي، وفيصل أبو الرب، وأبو عوض ضمرة، وعبد الحليم البلبيسي، والشهيد كمال أبو وعر وغيرهم، وقد عبّروا عن رغبتهم في العيش مع الشيخ بسام من كثرة ما سمعوا عنه، ويضيف الشيخ أنهم رحبوا به كثيرا وسُرّوا بمجيئه.

وكان للشهيد كمال أبو وعر، خصوصية عند الشيخ حيث وجد فيه شابًا خلوقًا ملتزمًا

دمثًا وحدويًّا، مثال الشاب المناضل الصابر المحتسب، وهو أشبه ما يكون في صفاته وسجاياه بسعيد الطوباسي.

كما تعرَّف هناك على كل من الأسرى فخري البرغوثي ونجله و(أبو الناجي) و(أبو إبراهيم) من دير بلوط و(العَرُوُقي) من الجبهة الشعبية، من أسرى غزة.

وأثناء وجوده في «عسقلان» وقعت خلافات بين الأسيرات حول التمثيل الاعتقالي لهن في سجن تلموند؛ فقام الشيخ بسام بصياغة وثيقة اعتقالية تنظم العلاقة بينهنَّ ومن كل الفصائل، ووقع على الوثيقة كل من: ناصر أبو حميد عن أسرى» فتح «، وأمين سر التشريعي الدكتور محمد الرمحي وعبد الحكيم حنيني من أسرى «حماس»، ومن الجبهة الشعبية «العَرُوُقي» ومن «الجهاد» الشيخ بسام، وأمير أسرى «الجهاد» في «عسقلان» جمعة التايه.

وذكر الشيخ في وثيقته أسماء قادة الأسيرات بالاسم، وكان منهنّ عطاف عليان، وقاهرة السعدي، ولينا الجربوني ممثلة المعتقل، وتغريد السعدي، وأحلام التميمي، وعندما وصلتهنّ الوثيقة، أقررنها، وعملنَ بها.

بعد عام ونصف، أي في الخامس عشر من يوليو (تموز) من العام 2008م؛ كان اليوم الأخير المفترض للشيخ في مدة اعتقاله، وكان يجب أن يكون قد أنهى مدة حكمه البالغة خمس سنوات، لكن الشيخ لم يكن متيقنًا من الإفراج عنه، وفي ليلة ذلك اليوم، جاءه تأكيد من قبل ضابط أمن السجن بأنه سيغادر السجن غدًا، وصباح يوم الإفراج المحدد جاءه تأكيد آخر، فقام بتهيئة نفسه لذلك، وقام الأسرى بالقدوم إليه وتوديعه، وجاء ضابط استخبارات السجن، ودخل الغرفة التي يوجد فيها الشيخ دون استئذان، وأبلغه أن لا جديد يمنع خروجه اليوم، وقال مازحًا:

إن شاء الله يعم السلام، وآتي لزيارتك في جنين.

فرد الشيخ ساخرًا منه: إذا قدمت لجنين فإنّك ستكون سببًا في تحرّر نصف الأسرى!

لم يتوقع الأسرى المتواجدون عبارة الشيخ، أما الضابط فلم يستوعب ما سمع، أو لعله استوعب ولم يرد، بل اكتفى بالنظر الصامت الطويل.

في ساعات المساء الأولى جاءت ورقة التحويل للاعتقال الإداري التي لم يستطع ضابط الأمن تسليمها للشيخ مباشرة، بل سلّمها لأمير «الجهاد» في القسم جمعة التايه الذي قال لضابط الأمن:

الشيخ بسام لا يهمه تمديد الاعتقال، ولا التحويل للإداري.

عندما بلغ الشيخ ذلك، قام بتغيير ملابسه، وارتدى «البيجاما» من جديد، وحمل كتابًا وأخذ يقرأ، وفي اليوم التالي خرج للفسحة مبكرًا، وشرع في ممارسة الرياضة، الأمر الذي استغربه بعض الأسرى بشدّة.

وبعد أيام، وأثناء ساعات المساء حضرت سيارة نقل، واقتادت الشيخ إلى «معسكر سالم» بعد أن مرّ في أكثر من محطة منها «الرملة» حيث بات ليلة فيها، و«سجن مجدو»، و«معسكر سالم»، وقد شعر بتعمّد عزله عن الأسرى الباقين في البوسطة، وعدم السماح له بالاحتكاك بهم، سواء كانوا في السجون التي مر بها، أو حتى المنقولين، وكانت عملية التنقل هذه لاستجوابه حول اعتراف من شاب كان قد قدم له مساعدة بمبلغ مائتي شيكل، فأيقن الشيخ أنهم تذرعوا بذلك الاعتراف، من أجل التحويل للاعتقال الإداري حتى يستوفي السبع سنوات كما كان قد هدده بها ضابط المخابرات المدعو «أبو منير».

وخلال وجوده في سجن عسقلان، حصلت أحداث مؤسفة بين بعض عناصر الجهاد وحماس في قطاع غزة، تبادل فيها الطرفان إطلاق النار، فلم يرق له ذلك، بل شعر بالامتعاض، وكتب رسالة أرسلها لقيادات التنظيم في قطاع غزة، يعبر فيها عن انزعاجه من تلك الأحداث، وقد حث الجميع على حل الخلافات بالحوار الأخوي، وعدم اللجوء إلى استخدام السلاح إطلاقًا، مستحضرًا تجربة المجاهدين الأفغان، عندما اقتتلوا على بوابة كابول، وما لحق بهم من تمزق وفرقة وضياع، لا زالوا يدفعون ثمنه إلى الآن، وتضمنت الرسالة أيضًا الثقة في حل مثل هذه الإشكاليات لوجود القيادة الواعية والحكيمة للجهاد الإسلامي في قطاع غزة، كذلك القيادة الواعية والحكيمة والواعية عند قيادة حماس هناك.

لم تبقِ إدارة السجون على الشيخ في سجن عسقلان، ولم تنقله كأسير إداري إلى سجن النقب كما هو معتاد، بل نقلته إلى سجن «ريمون» الصحراوي كحالة فريدة غير مسبوقة أن يكون في

هـذا السـجن معتقـل إداري، وقـد مكـث في «ريمـون» سـبعة أشـهر، كانـت مـن أفضـل مـا يكـون، فقـد تعـرف الشـيخ عـلى الأسـير (أبـو السـعود) الـذي كان مسـؤولًا عـن موجـة التصفيـات، التـي جـرت لمسـتوطنين في نابلـس وجنـين وطولكـرم في عـام 1986م، وهـو مـن أسرى الجبهـة الشـعبية لتحريـر فلسـطين، وأيضًـا التقـى بالشـيخ نايـف الرجـوب، الـذي كان رفيقـه في الإبعـاد لمـرج الزهـور، كـما تعّـرف عـلى عـدد مـن قـادة «فتـح» و«حمـاس».

وأثنـاء وجـوده في سـجن ريمـون، في نهايـة عـام 2008م وبدايـة العـام 2009م، أبلـغ الشـيخ بنبـأ اعتقـال زوجتـه (أُم إبراهيـم) للمـرة الثانيـة، فاقتيـد الشـيخ بسـام إلى تحقيـق الجلمـة لمـدة ثمانيـة أيام، وقـد أدخلـوه إلى غرفـة التحقيـق التـي كانـت فيهـا زوجتـه بعـد أن تـم اسـتدعاؤها مـن سـجن تلمونـد، فقـال لـه المحقـق:

إن زوجتك أحضرت على حسابها مبلغ خمسة آلاف دولار.

فقـال الشـيخ: طبيعـي، ولا خطـر في ذلـك، إنهـا جـزء مـن راتبـي المتراكـم عـلى جمعيـة الإحسـان التـي أعمـل فيهـا، لقـد تراكـم لي مبلـغ خـلال اعتقـالي، ومـا الخمسـة آلاف إلا جـزء مـن حقـي، ثـم إن ألـف وألفـيّ دولار لا تعمـل جهـازًا عسـكريًا، ولا تشـتري قطعـة سـلاح أو حتـى جـزءًا منهـا.

سأله المحقق: كم يبلغ ثمن قطعة السلاح الآن؟

فرد الشيخ: سبعين أو ثمانين ألف شيكل.

فقال المحقق: من أين لك هذه المعرفة؟

فرد الشيخ: كلما حضر شاب جديد للسجن أسأله.

وقـد تزامـن ذلـك التحقيـق مـع العـدوان عـلى قطـاع غـزة في نهايـة عـام 2008م وبدايـة عـام 2009م، فسـأل المحقـق الشـيخ:

ما رأيك بما فعلناه في غزة؟

فرد الشيخ: هذا يثير حفيظة الأمّة العربية والإسلامية ضدكم من المغرب لأندونيسيا. أتحسبون أنّكم قادرون أنتم وجيشكم وشعبكم على قتل كل العرب والمسلمين؟ والله لو اصطفوا واحدًا تلو الآخر أمامكم مكبلين لقتلهم ما أنهيتم هذه الأمة، لا أنتم ولا شعبكم.

فقال المحقق: والله إنّ السنوات الست لم تؤثر فيك.

فأصدر المحقق أمرًا بإعادة الشيخ إلى الزنزانة ومن ثم إلى السجن الذي جاء منه، وأثناء تحرك الشيخ بمرافقة ضابط التحقيق، التفت إلى الخلف، وقال:

اسمع! هذه المرأة (يقصد زوجته) أُصيبت بالجلطة أثناء إنجابها لابني يحيى في عام 1996م، وإن ضغطتم عليها فقد تصاب بشيء، وأنتم تتحملون المسؤولية عن ذلك.

فقال المحقق: ماذا تريد أن تفعل بنا؟

رد الشيخ: أقول لكم أنتم تتحملون المسؤولية.

فقال المحقق: سننقلها غدًا إلى سجن تلموند.

وفعلًا تم نقلها إلى السجن في اليوم التالي، وعاد الشيخ بسام لسجن ريمون.

كثبان النقب

مكث الشيخ سبعة أشهر في سجن «ريمون» ناضل خلالها مع الفصائل الأخرى، للمطالبة بنقله لسجن النقب، وفعلًا كان له ما أراد، فنقل إلى سجن النقب، وقد استقبل بشكل رائع، وكان مسموحًا له التنقل بين الأقسام، وأثناء زيارته لقسم فيه قيادة أسرى «الجهاد» في النقب، اتصل بهم الأخ (أبو حسن) مدير مؤسسة مهجة القدس، فقال:

هل الشيخ بسام عندكم؟

قالوا: نعم.

فقال: افتحوا مُكَبّرْ الصوت في الجهاز النقال ليسمع الجميع.

ففعلوا، فقال:

«يرسل لكم الدكتور القائد التحيات، ويقول لكم الشيخ ليس مرجعيتكم في سجن النقب فقط، بل هو مرجع لأسرى الجهاد الإسلامي في كل السجون». وكان هذا قبل تشكيل الهيئة القيادية لأسرى الجهاد الإسلامي.

كما جرى توفير جهاز اتصال خاص للشيخ، تم شراؤه له بمبلغ اثنين وأربعين ألف شيكل، حتى يكون التواصل مباشرًا معه، لكن الشيخ جعله في الخدمة العامة.

قام الشيخ خلال وجوده في النقب بإعادة ترتيب الحالة التنظيمية، وتصحيح ما علق فيها من بعض الممارسات الخاطئة، مثل استغلال البعض لمواقعهم والاتجار بالهواتف النقالة، فقضى على هذه الظاهرة قضاء تامًا، وحرّمها ومنعها حتى في التعامل مع الفصائل الأخرى، ومن أراد أن يشتري جهازًا للضرورة يكون بطلب من التنظيم ولحاجة التنظيم، ومن أراد أن يبيع فليبع بمثل ما اشتراه، فالكسب ممنوع، حتى من الفصائل الأخرى، وقد حوكم من قام بمثل هذه الممارسات بعد أن تم حلّ التنظيم.

وتم برعاية الشيخ توحيد قلاع معتقل النقب الثلاث، تحت قيادة أمير ونائب وسبعة عشر عضوَ هيئة قيادية (مجلس شورى) ووضعت لائحة داخلية بذلك، حتى إنه ذات يوم جاء ضابط الأمن إلى قسم «الجهاد» لنقل أسيرين مجاهدين، فرفض الشيخ بسام النقل إلا بعد تنفيذ عقاب كان قد اتخذ بحقهما؛ لأنهما خالفا لائحة تنظيم علاقة الأسرى ببعضهم وبالآخرين.

فقال ضابط الأمن: هل «الجهاد» يعاقب عناصره؟

فرد الشيخ: ألم تحاكموا «موشيه كتساف» الذي كان رئيسًا لكم؟

فرد الضابط: نعم.

فقال الشيخ: ونحن أيضًا نعاقب من أجل توفير أعلى درجات الانضباط.

كما قام الشيخ بترتيب إيصال مخصصات الأسرى في كل المناطق بعد توقف دام عدة سنوات.

وعندما كان ينتقل شبان مجاهدون من الأقسام الأخرى لقسم مجاور في فترة التفتيش، بشكل مؤقت، أشار الشيخ إلى أن يقوم كل الإخوة بالاستعداد لاستقبالهم واستضافتهم وصنع الإفطار والوجبات لهم، وأن لا يبقى أي من نزلاء القسم المستقبل من المجاهدين نائمًا، أو مضطجعًا على سريره، فأصبح هذا السلوك هو السائد في التعامل، وأصبح نموذجًا حيًا لباقي أسرى الفصائل الأخرى في بعض الأقسام.

وعندما كان أسرى الجهاد يطلبون خيمة أو غرفة، أو أي أمر آخر من الإخوة من أسرى حماس أو غيرهم؛ يجري الشيخ بسام اتصالاته مع قيادات أسرى «حماس» في المعتقل، مثل خالد الحاج، وصالح العاروري، وقد حُلَتْ كل الإشكاليات العالقة بسهولة ويسر لما كان له من احترام وتقدير عند كل الفصائل وقياداتها، الأمر الذي أثار دهشة قادة الأسرى من كوادر «الجهاد»، وتمنوا لو كان الشيخ السعدي بينهم منذ وقت بعيد.

حتى إن بعض قيادات «فتح» و«حماس» التي كانت تأتي لزيارة القسم كانت تمر أولًا على الشيخ بسام قبل أن تذهب إلى أبناء تنظيماتهم، مثل حسن يوسف، وحسام بدران، وصالح العاروري، وخالد الحاج، وغيرهم، وهذا دليل على عمق العلاقة والمحبة بينهم.

ويسهب الشيخ في الحديث عن تلك الفترة المزدهرة بين أسرى «الجهاد» وباقي أسرى الفصائل، فيقول:

إنّ قيادات أسرى «حماس» ومنهم صالح العاروري، وخالد الحاج، وحسام بدران أرسلوا في طلبه لزيارتهم في قسم (6) وتناول طعام الغداء، بشرط أن يصطحب معه أربعة من كبار أسرى «الجهاد»، فذهب برفقته فواز خليف، وعاطف كامل، وأبو أحمد جرادات، ومحمد عابدة، فوجد كل أسرى القسم المذكور، وعددهم مائة وعشرون أسيرًا، منهم عشرون أسيرًا من «الجهاد» يقفون في استقبال الشيخ ومن معه، وعند صلاة العصر، وقف الأسير أبو ربيع الزيود، وألقى كلمة ترحيبية جميلة، فأوعز الشيخ لأبي أحمد جرادات للرد على هذه الكلمة الطيبة، ثم توجه القادمون لخيمة «الجهاد» وعقدوا جلسة تعارفية تثقيفية لأسراهم هناك.

أعدّ الأسرى المجاهدون، للشيخ «قاووشًا» خاصًا، لاستقبال الضيوف مكونًا من خيمة صغيرة داخل الخيمة الكبيرة، وفيه مقاعد خشبية مغطاة بالإسفنج المغلف بالقماش، بالرغم من أن مثل ذلك ممنوع من قبل الإدارة، ولا يوجد مثله إلا لممثل وموجه أسرى «فتح» الأسير القائد فهد شرايعة، وعندما كانت الإدارة تدخل للتفتيش تسأل لمن هذا؟

فيُقال لهم: هذا للشيخ.

فيردون: لا مشكلة.

بعد أشهر جاء قرار بنقل الشيخ وأبو أحمد جرادات إلى سجن آخر، فكان الرفض من قبل الاستخبارات في السجن، وكان مبرر الاستخبارات كون الشيخ يشكل عنصر توازن بين عناصر أسرى «الجهاد»، وباقي الفصائل، خاصة وأن أسرى «الجهاد» قد وصل عددهم نحو ثلاثمائة وخمسين أسيرًا.

وبعد أشهر تكرر الطلب من قبل جهاز «الشاباك»، فعاد ضابط الاستخبارات لموقفه الرافض مرة أخرى، وبعد ضغط من جهاز «الشاباك»، توصلوا إلى حل وسط، بحيث ينقل على أساسه الشيخ لقسم الغرف مع أبو أحمد جرادات، فجرى ذلك، وهناك التقى بخالد جرادات، وأحمد أبو حصيرة، من أقدم أسرى «الجهاد الإسلامي» الذي أمضى نحو ثلاثين عامًا في الأسر، وكان قد التقى قبلها مع المرحوم عزام شويكي شقيق الشهيد ذياب شويكي الذي أمضى في السجون والمعتقلات نحو سبعة عشر عامًا، وقد طلب منه الشيخ إعطاء موعظة يومية للأسرى بعد صلاة المغرب طيلة الفترة التي قضياها معًا، وكذلك مع المحامي عمار زيود والكثير من قادة الحركة الأسيرة.

وقبل الإفراج عنه بعشرين يومًا، نُقل الشيخ بسام إلى معسكر سالم لمقابلة ضابط استخبارات يدعى «شالوم» وهناك سأل الضابط:

هل هذه المقابلة تعني أني مقبل على الإفراج؟

فرد «شالوم»: أنا ضابط مخابرات جديد، وأريد أن أتعرف عليك، لو كان الأمر بيدي ما تركتك ترى الشمس والإسفلت، ولأبقيتك في الاعتقال.

فقال الشيخ: لماذا؟

فرد «شالوم»: هناك لجنة تقرر، وماذا ستفعل إذا خرجت؟

فقال الشيخ: أريد أن أخرج لتدريس أولادي، منذ فترة طويلة لم أرهم.

فقال: ستمل من الجلوس في البيت، وستخرج، وستلتقي بالشبان في الشوارع وفي كل مكان، وبمجرد ابتسامتك لهم، ووضع يدك على رقبة أحدهم، أو لمس رأسه، أو التربيت على كتفه، هذا بحد ذاته إشعار بالمباركة، حتى لو لم تكلمهم، فهم يفهمون منك هذه الحركات، نحن نعرف أثرك الكبير على الشبان وغير الشبان، وهذا نستنتجه من خلال الاستطلاعات التي نجريها.

بتاريخ العاشر من مارس (آذار) من عام 2011م، أطلق سراح الشيخ بسام بعد اعتقال دام سبع سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام في الاعتقال الرسمي والإداري، وقد التقته قناة «فلسطين اليوم» الذي كان الشيخ وإخوانه من بين أوائل المطالبين بإنشائها، وأجرت معه مقابلة بث مباشر قرب الظاهرية، وأفرج عن الأسير محمد العموري في ذات اليوم ومن نفس السجن وهو من سكان مخيم جنين، كما كان في استقباله عدد من الأسرى المحررين والشخصيات والفعاليات على رأسهم عامر المحتسب ورافع مضية وأحمد العويوي، وقام المرحوم عزام الشويكي بإقامة حفل غداء على شرفه، ثم توجه للمخيم عائدًا فوجد الجماهير بانتظاره قرب منتزه جنات، وكان في استقباله لفيف من قيادات الحركة وكوادرها على رأسهم نواب من «حماس» و«فتح» من بينهم خالد سعيد (أبو همام) وخالد سليمان، وإبراهيم دحبور، وجمال حويل، وشامي الشامي، وجمال الشاتي، وعدنان الهندي، وعطا أبو ارميلة، ورئيس البلدية السابق حاتم جرار، وعلي الشاتي رئيس البلدية، ومدير المخيم عبد الرزاق أبو الهيجاء، وشخصيات من الفصائل، ووجوه المدينة، وفعاليات المخيم رغم هطول المطر الذي لم يتوقف حتى انتصاف الليل، ثم وصل المخيم، فألقى كلمة بالحشود.

خمسة وخمسون يومًا قضاها الشيخ بسام بعد خروجه من الاعتقال، لم يقم خلالها إلا بأمرين، الأول:

حضوره مهرجان تخليد ذكرى معركة مخيم جنين الذي نظمته الفصائل ومنها «الجهاد» في المخيم، وقيامه بزيارة بيوت الأسرى والشهداء، ومنهم الحاج علي الصفوري والشهيد محمود طوالبة.

والثاني احتجاجه على قيام أجهزة السلطة باعتقال كبار رموز الحركة طارق قعدان، وخالد جرادات، فأرسل لإخوة في السلطة وأبلغهم أن هذا الوضع لن نسمح به، وقال:

أنا لا أهدد، ودائمًا أتمنى أن يكون كل الفلسطينيين على صحن واحد.

ذهب وفد يمثل ثلاثة عشر فصيلًا منهم: عبد الحليم عز الدين عن «الجهاد» إلى المحافظ المرحوم قدورة موسى، وأبلغوه بالاحتجاج، وأن «الجهاد» سيلجأ لتسيير مسيرات احتجاجية، فقامت أجهزة السلطة بإطلاق سراح الموقوفين، الذين زاروا الشيخ بسام قبل التوجه إلى بيوتهم.

بعد أيام، فوجئ الشيخ باقتحام جيش الاحتلال بقيادة ضابط المخابرات المدعو «شالوم» لبيته بعد تطويقه، فاستيقظ الشيخ فوجد «شالوم» في وجهه، نفخ «شالوم» نفسه أمام الشيخ، وقال:

الجيش والحكومة منذ خمسة وخمسين يومًا لم يناموا! تنظم احتفالًا وأعلامًا! شو القصة؟ ما في مجال تبقى خارج السجن؟

حاول ضابط الوحدة الخاصة تعصيب عينيه فرفض، فحصل جدال بينه وبين الضابط، فسمع الجدال «شالوم» فقال: ماذا يجري؟

فرد الضابط: إنه يرفض العصبة.

فقال «شالوم»: لا تعصبوه.

وعندما دخلوا حي الزهراء متوجهين نحو تجمع السيارات العسكرية المتوقفة في نهاية الحيّ من الجهة الشمالية قرب شارع حيفا، طلب «شالوم» من الشيخ أن يهرول معهم حتى لا يقوم أحد بإطلاق النار عليهم من الخلف، أي من جهة المخيم، فرفض الشيخ نكاية به، وقال:

هذا لا أفعله؛ لأنه لا يليق بي أن أركض معكم، وأنا بهذا السن وبتلك المكانة.

فقال الضابط: هل يوجد سلاح في المخيم؟

رد الشيخ قائلًا: كثير.

فساروا كما كان يسير الشيخ حتى وصلوا إلى تجمع السيارات العسكرية، وحينها قاموا بعصب عينيه، وانطلقت السيارات إلى معسكر «سالم».

بعد وصوله وهو مقيد اليدين ومعصوب العينين، سأل الشيخ من كان هناك قائلًا:

هل سيطول بي المقام هنا؟

فرد الضابط: لا، ربع ساعة وتأتي السيارة.

بعد ربع ساعة جاءت سيارة ونقلته إلى سجن مجدو.

كان الشيخ يرتدي معطفًا كلما ارتخى عن كتفيه بفعل القيود رفعه له من كان بجانبه، وعندما وصل إلى سجن مجدو، وأزيحت العصبة عن عينيه، أدرك أن من كان يرفع له المعطف هي مجندة صهيونية!

بعد الإجراءات المعتادة، اصطحبه ضابط درزي من ضباط السجن إلى أحد الأقسام، وخلال المسير كان المعطف يرتخي من على كتفيّ الشيخ، فطلب من الضابط رفعه فرفض الضابط في البداية، فهدد الشيخ بعدم المسير إذا لم يرفع له المعطف، فانصاع الضابط.

دخل الشيخ بسام (معبار) معتقل مجدو، فوجد المرحوم وصفي قبها وطارق قعدان، ثم أحضروا خالد الحاج، فأدرك أن هذه الحملة من الاعتقال نتيجة لتحرك الفصائل لإنهاء الانقسام،

فعرض الشيخ اقتراحًا بعد دخوله للأقسام، تقدم به لقيادات الأسرى هناك يقضي بعدم السكوت على الاعتقال الإداري، وتشكيل لجنة للإداري يناط بها تنفيذ فعاليات مقاومة ورافضة لهذا الاعتقال، كمقاطعة المحاكم، والشروع بإضرابات جماعية وفردية عن الطعام، فوافقوا وكلفوه برئاسة تلك اللجنة.

وخلال وجوده في معتقل مجدو التقى بالشيخ المرحوم يوسف العارف (أبو مالك) الذي سبق أن تلقى على يديه دورة متقدمة في قواعد اللغة العربية، وفي إعراب أجزاء من القرآن الكريم، في سجن هداريم.

وبعد خمسة أشهر، نُقل بشكل مفاجئ إلى معتقل «عوفر»، ليكتشف أن المجاهدين هناك هم من قاموا بطلب حضوره إليهم بعد أن ظن أن الانتقال هو عملية قمع من قبل إدارة السجون.

ينتصرون بأمعائهم

وصل الشيخ بسام إلى معتقل عوفر، وهناك وفور وصوله عمد إلى تعميق العلاقات بين كافة أسرى الفصائل، وتمتينها على قاعدة وحدة الحركة الأسيرة، واعتبار أسرى حركة «الجهاد الإسلامي» أكثر من تنظيم بحد ذاته، بل عابرًا للفصائلية على قاعدة أن أقوى سلاح للفلسطيني هو الوحدة، كما قام بتشكيل «لجنة الأسرى الإداريين» من قادة أسرى «الجهاد» منهم عامر المحتسب، وأحمد العويوي، ورافع مضية، وباقي الفصائل، وأخرج جوالًا خاصًا من مخبئه لمهمة متابعة إضراب الأسير القائد خضر عدنان، لمؤازرته ومواكبة معركته الأولى، وغير المسبوقة في حياة الاعتقال الإداري على مدى تاريخ الحركة الفلسطينية الأسيرة.

قام الشيخ خلال وجوده في معتقل عوفر، بالتواصل مع المرحوم صائب عريقات أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وياسر عبد ربه رئيس هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطيني، وكذلك مع المحامين، وعلى رأسهم المحامي جواد بولس، وجميل الخطيب، وكل من وزير الأسرى آنذاك عيسى قراقع، ورئيس نادي الأسير الفلسطيني قدورة فارس، بشأن إضراب الشيخ خضر عدنان.

ولما بلغ الأسير عدنان اثنين وثلاثين يومًا من الإضراب، بدأت حملة التضامن معه في كل أرجاء الوطن ومؤسساته، وحضر لمعتقل «عوفر» ضابط من ضباط استخبارات السجون يدعى «جابي» وأراد مقابلة الشيخ لهذا الغرض، فطلب منه أن يذهب إلى الأسير المضرب خضر عدنان لكي يقنعه بإنهاء إضرابه، فرفض الشيخ بسام ذلك، وقال للضابط:

أذهب فقط من أجل الاستماع لمطالبه، لماذا تعتقلونه؟ هذا الأسير عنيد، ولن ينهي إضرابه قبل تحقيق مطالبه، هل غاب عن ذهنك إضراب عناصر الجيش الجمهوري الإيرلندي الثمانية الذين أضربوا عن الطعام حتى الموت؟

اتصل الشيخ بسام بزوجة الشيخ خضر عدنان، وأبلغها أن تقول له في الزيارة التي كانت مقررة له في اليوم التالي أن لا يعتبر أن وصول أي قائد في الأسرى إليه لممارسة ضغط عليه لوقف إضرابه، بل على العكس من ذلك ليبقى صامدًا حتى تحقيق مطالبه، ونحن معه حتى النهاية؛ لأنها معركة إن خسرها خسرها الجميع للأبد، وإن ظفر بها وانتصر ستكون نموذجًا يقتدي به من أراد.

ثم أجرى اتصالا بالدكتور «صائب عريقات» الذي سُرَّ بهذا الاتصال، فقال له الشيخ:

دكتور صائب، وضع الأسير خضر في خطر شديد، وحياته مهددة، وأتمنى منك أن تجري اتصالاتك من موقعك مع الجانب المصري، ومع الجانب الأردني وعلى أعلى مستوى، من أجل العمل العاجل والسريع لإنقاذ حياته من خلال قيام مصر بالتدخل لأخذه عندها لأيام ثم إعادته لوطنه حرًا بوساطة وكفالة مصرية أو أردنية من خلال إيجاد تدخل من الملك عبد الله بن الحسين شخصيًا.

رد عريقات: ليس من السهل عليّ التواصل مع الملك عبد الله شخصيًا.

فقال الشيخ: عبر الرئيس أبو مازن.

فوعده عريقات بالتحرك العاجل والسريع بهذا الاتجاه.

ثم جاء مسؤول الاستخبارات «بيتون» وعرض على الشيخ بسام القيام بزيارة خضر عدنان الذي كان في مشفى صفد، فقال الشيخ:

مستعد للذهاب، ليس من قبيل الطلب منه وقف الإضراب، لكن من منطلق الاستماع لمطالبه.

فوافق رجل الاستخبارات على ذلك، فدخل الشيخ للقسم، وبدل ملابسه، وأجرى اتصالين مع كل من عيسى قراقع، وقدورة فارس، ووضعهم في صورة ما جرى، وأنه ذاهب لزيارة خضر عدنان.

صعد الشيخ السيارة التابعة «للشاباص»، وكان برفقتهم سيارة ثالثة للحراسة، وبعد نحو ساعتين ونصف، وصلوا جميعا مشفى صفد، حيث كان الأسير خضر عدنان هناك، فجلسوا في صالة الانتظار، حتى حضر طارق قعدان الذي أتيَ به من سجن مجدو، فقال قعدان للشيخ بسام:

أنا أخشى عليه من أن يقضي شهيدًا بعد هذه المدة الطويلة من الإضراب،

فرد الشيخ بسام: هذه معركة عض أصابع يجب أن ينتصر بها مهما كان الثمن.

ثم صعدوا برفقة ضابط الاستخبارات، وبعض الجنود وعناصر «الشاباص» إلى غرفة خضر عدنان، فوجدوه يصلي وهو جالس على كرسيه المتحرّك.

أنهى الصلاة وسلّم، فتفاجأ بوجود الشيخ وقعدان، فوقف، واحتضنهما بحرارة وترحاب، ثم جلس معهما ليتكلم، فخرج ضابط الاستخبارات ومن معه من الغرفة.

قال الشيخ بسام لخضر عدنان: جئنا لنستمع إليك.

فقال خضر عدنان: مستمر حتى آخر لحظة.

قال الشيخ: وإذا ما وافقوا على عدم تمديدك، أي تخرج بعد خمسين يومًا؟

رد قائلًا: ما ترونه مناسبًا.

بعد ربع ساعة عاد «بيتون» وقال: ما هي النتيجة؟

رد الشيخ قائلًا: لا يريد.

أخرجوا قعدان من جهة، وأنزلوا الشيخ بسام برفقة الشرطة والجنود ووجود «بيتون» من جهة المصعد الكهربائي، فقال الشيخ بسام لـ«بيتون»:

اسمع بيتون!

فقال: نعم.

قال: كم عاش رجال الجيش الجمهوري الإيرلندي؟

رد « بيتون»: ستة وستين يومًا.

فقال الشيخ: دخل خضر يومه الخامس والستين، والمسؤولية في رقبتك أنت.

قال «بيتون»: محكمته الخميس، ماذا بوسعي أن أفعل؟

قال الشيخ: قدم محكمته ليوم غد الاثنين، وإلا فحياته في خطر، وإن جرى عليه أي مكروه _لا سمح الله_ سينفجر الوضع في السجون، ولن تعود أنت ولا من هم مثلك ولا الجنود ولا عناصر «الشاباص» إلى بيوتكم، وسيمتد الغضب إلى الضفة، وستحدث حرب مع غزة، وسفاراتكم في الخارج ستقع تحت ضغط الغاضبين المتضامنين. كل الأمر بيدك، عليك التعجيل في المحكمة.

عاد الشيخ إلى سجن عوفر، فسمع بالأخبار عبر إذاعة صوت «إسرائيل» أن محكمة الشيخ خضر ستجري غدًا، وأن هناك بوادر حسن نية فيما يخصّه.

في اليوم التالي اتصل المحامي جميل الخطيب بالشيخ وأخبره بقرار عدم التمديد للشيخ خضر، فاتصل الشيخ بزوجة الشيخ خضر عدنان وأخبرها ففرحت، وكان بجانبها جعفر عز الدين، فهرع إلى مكبرات مساجد عرابة، وأذاع الخبر الذي ينتظره الجميع منذ ستة وستين يومًا.

وقام بتحرير مفاوضاته مع «بيتون» بشأن إضراب الشيخ خضر عدنان، وكتبها في وثيقة، وقام بإرسال نسخ منها إلى الدكتور القائد المرحوم رمضان عبد الله شلّح، ومحمد الهندي وأبو حسن مدير مؤسسة «مهجة القدس» وجميل عليان ونافذ عزام، وإبراهيم النجار وخالد البطش وداود شهاب وغيرهم من الإخوة، وقد نشرت في وسائل الإعلام.

بعد ذلك بفترة أضربت عن الطعام الأخت المجاهدة المعتقلة الإدارية هناء الشلبي، فجاء «آفي روئيف» الذي كان مدير شرطة القدس، ثم أصبح مسؤول استخبارات السجون، فطلب مقابلة الشيخ، فخرج له، فقال:

نريد أن نتحدث عن الأسيرة «هناء الشلبي».

فقال الشيخ: قبل أن نتحدث، عندنا تقليد في الحركة، وهو أن يكون الأمير معنا في كل مسألة.

فقال «روئيف»: يقال إنّ شلّح في الخارج وأنت في الداخل.

فرد الشيخ: ولو، مهما كان، فنحن نحترم التراتبية التنظيمية.

فانصاع للأمر، وحضر أبو عمير المحتسب أمير أسرى «الجهاد» فدار الحديث أمامه.

فقال الضابط: ما رأيك أن يفرج عن تلك المعتقلة إلى رام الله أو غزة؟

فرد الشيخ: إلى بيتها فقط، ماذا فعلت هي حتى تبعد إلى رام الله أو غزة؟ هل قصفت العفولة؟

إن الموافقة على مثل هذا الطلب من قبلي سيلحق بي الخزي، ولن أستطيع العودة إلى بيتي في جنين، فقط تعود إلى بيتها في برقين.

فقال له «روئيف»: هل بإمكانك أن تذهب لزيارتها.

فقال الشيخ: ممكن أن أذهب للاستماع لها، لكن أن أقنعها بوقف الإضراب دون أن تحقق مطالبها، فهذا مستحيل.

في نهاية الأمر، وبعد اثنين وأربعين يومًا؛ تفاجأ الشيخ بنبأ إبعاد المعتقلة «هناء» إلى قطاع غزة.

لم تنته موجة الاحتجاجات المطلبية المُعَبّرْ عنها بالإضرابات المفتوحة عن الطعام، سواء الفردية منها أو الجماعية، ففي شهر مايو (أيار) من العام 2012م، نُظّمَ إضراب مفتوح عن الطعام من قبل معتقلي «حماس» و«الجهاد « والشعبية وقسم من أسرى فتح، وبالرغم من أن معتقل «عوفر» يعتبر معبرًا للأسرى، فقد تمكن الشيخ من إقناع أسرى «فتح»، ومنهم قيادات في لجنتهم المركزية بالمشاركة في الإضراب، وقال قادة أسرى «فتح» إنهم سيشاركون من أجل الشيخ بسام حتى وصل عدد المضربين في المعتقل مائة وعشرين أسيرًا بشكل جماعي؛ إضافة لستة أسرى مضربون قبل ذلك بأسابيع.

وبعد ثمانية وعشرين يومًا من الإضراب، جاء وقت إيقافه، وأراد الأسرى الستة إيقاف إضرابهم أيضًا، عندها طالبت الهيئات القيادية للأسرى بحضور الشيخ بسام وعدد من قيادات الأسرى، من أجل تحقيق أكبر قدر من مطالب الأسرى، فقام ضابط الاستخبارات «بيتون» بالاتصال من سجن الرملة باستخبارات سجن عوفر، وطلب حضور الشيخ بسام إلى سجن الرملة للتفاوض، وكان هذا الطلب بضغط من الهيئة القيادية لأسرى الجهاد الإسلامي.

فأصر الشيخ بسام على حضور المحامي جواد بولس كمستشار للأسرى، فوافقت إدارة السجون بعد تردد، فنُقل الشيخ إلى سجن الرملة، وهناك أرادوا أن يضعوه في غرفة الانتظار، فرفض بشدة، فاتصل الضابط المناوب في الاستقبال بـ«بيتون» فعاد إلى المكان، وأبلغه الضابط رفض الشيخ بسام دخول غرفة الانتظار، فرد «بيتون»: لا تدخله غرفة الانتظار، وأبقه هنا في الممرّ على هذا المقعد، وضع عليه حارسًا. ففعل.

جاء جمعة التايه عن الهيئة القيادية العليا لأسرى «الجهاد»، وعن «حماس»، جمال الهور، فطلب جمعة التايه ورفاقه حضور القائد أحمد سعدات، فحضر، فتباحثوا كيف سيتفاوضون مع الأربعين مضربًا بشكل جماعي، والستة الإداريين، فانتقلوا إلى صالة في الطابق الثاني، فطلب جمعة التايه من الضباط «روئيف وبيتون وحاتم» ومدير سجن الرملة ترك المكان حتى يتسنى لهم الحديث مع الأسرى، ففعلوا وبعد أقل من ساعة، تم إقناع المضربين الجماعيين، ومن ثمّ خمسة

من الستة الإداريين بوقف إضرابهم بعد قطع تعهدات بعدم التمديد لهم، وبقي أسير سادس وهو محمود السرسك مُصِرًا على طلبه بتخفيض مدة اعتقاله الإداري، ثم عاد الضباط الأربعة، وشرع الأسرى الخمسة بالاتصال مع ذويهم.

انتصف الليل، فطلب الشيخ وإخوانه جمعة التايه وجمال الهور المبيت مع الأسرى الخمسة، ومنهم جعفر عز الدين، وبلال ذياب، فجُهّزتْ لهم غرفة، وباتت اللجنة معهم، وقام ضابط القسم شخصيًا بإحضار الحساء الساخن، واللبن الرائب لهم.

في اليوم التالي عاد كلٌّ إلى مكان اعتقاله، وعاد الشيخ بسام إلى معتقل «عوفر» بسيارة «الجي إم سي» التي أتت به ليعود بها كما طلب، فقام بالاتصال بعيسى قراقع وقدورة فارس، وأطلعهم على ما جرى.

في يوم من أيام معتقل «عوفر»، حصل إشكال بين شباب من أسرى «الجهاد « وشباب من أسرى «فتح»، أدى إلى استنفار الإدارة التي هددت باقتحام القسم، فقام الشيخ بإدخال شباب فتح ثم الجهاد للغرف، ثم جاءت قيادات أسرى «فتح» إلى القسم، وحلوا في ضيافة الشيخ بسام، وقالوا:

نحن خجلون منك، لقد أتينا إليك لنرى ما الذي تريده؛ لأن ما حدث مؤسف أن يجري وأنت موجود.

فقال الشيخ: سنصلح بين الإخوة ونصدر تعميمًا مشتركًا، ثم نخرج للساحة ونُصافح بعضنا بعضًا، ويلقي الشيخ بسام أبو عكر كلمة بالجميع، فكان ذلك، وأنهي الخلاف، وبعد أيام قام أمير حركة الجهاد في القسم بنقل الأسيرين المجاهدين اللذين تسببا في الإشكال إلى قسم آخر، وجاء أحد قادة «فتح» يقول: إن الإدارة تعيب علينا الخلاف بحضور الشيخ بسام، وتقول: والله إننا نخجل منه ونحن أعداؤه.

وعندما اقترب موعد الإفراج عن الشيخ بسام، بادر أسرى «فتح» بتنظيم احتفال وداعي له، دعوا أسرى «الجهاد» للمشاركة فيه، فكان احتفالًا مميزًا شارك فيه الجميع.

وعندما أطلق سراح الشيخ بعد واحد وعشرين شهرًا من الاعتقال الإداري بتاريخ الرابع من شهر فبراير (شباط) من سنة 2013م. كان في استقباله عند باب المعتقل الأسرى المحررون: سعيد نخلة، وثائر حلاحلة وبلال ذياب وعدد من أقاربه وأصحابه، ثم توجه موكب الشيخ نحو خيمة التضامن مع الأسيرين الإداريين المضربين عن الطعام جعفر عز الدين وطارق قعدان في عرابة، ثم قام بزيارة منزل الأسير الحاج علي الصفوري، والشهيد القائد محمود طوالبة، ومنزل الأسير القائد جمال أبو الهيجا، والأسير القائد محمد الصباغ، ثم ألقى الشيخ كلمة من على منصة احتفالية أعدت له، وألقى أيضًا قدورة فارس رئيس نادي الأسير كلمة أخرى، كذلك عطا أبو ارميلة أمين سر «فتح» / إقليم جنين والأسير المحرر رمزي فياض والأسير المحرر خضر عدنان.

من تاريخ الرابع من شهر فبراير (شباط) من عام 2013م، إلى العشرين من أغسطس (آب) من نفس العام، أي لمدة ستة أشهر ونصف؛ لم تداهم قوات الاحتلال بيت الشيخ بسام، فقد قضى نصفها مستقرًا في منزله، وأمضى الباقي حذرًا يبيت في أماكن أخرى خشية اعتقال مفاجئ، كما حصل في المرة الفائتة؛ إذ اعتقلوه بدون سبب.

حتى كانت تلك الليلة الدامية في العشرين من شهر أغسطس (آب) من العام المذكور، حيث كان الشيخ ينام برفقة ابنه «يحيى» على سطح المنزل الذي يجاور العائلة، فاستيقظ الشيخ بسام على تنبيه ابنه «يحيى» له وهو يقول:

يا أبي، استيقظ! الجيش يحطّمون الباب.

التفت الشيخ حوله فرأى شباكًا صغيرًا، أشبه بطاقة في بيت الجيران الملاصق للبيت الذي هو فيه، فأسرع ودسّ رأسه في تلك النافذة الصغيرة، ورمى بنفسه داخل ذلك البيت، وحاول الخروج من بيت الجيران، لكنه لم يستطع، عندها كان الجيش قد اقتحم المنزل، وشرع بالتفتيش، والتحقيق مع نجله «يحيى» وسؤاله عن والده، وهو يسمع كل ما يدور، عندها جرت اشتباكات مسلحة، وبالأكواع والحجارة بين شبان المخيم وقوات الجيش المحتل تواصلت لساعات، وقوات الاحتلال لا زالت في البيت المداهم، وفي البيوت المجاورة، تبحث عن الشيخ، لكنها لم تدخل البيت الذي كان مختبئًا فيه، وقد أسفرت الاشتباكات التي كانت دائرة على امتداد شوارع المخيم، إلى استشهاد الشاب مجد لحلوح وإصابة الشاب كريم أبو صبيح بجراح خطرة ارتقى على إثرها شهيدًا بعد أيام، وإصابة نحو ثلاثين شابًا ومقاومًا بجراح متفاوتة.

وقد أحضروا شقيقه غسان من بيته، واقتادوه إلى بيت الشيخ، وقال له ضابط المخابرات الجديد المدعو «حيفر»: لماذا فعل الشيخ هكذا؟ نحن كنا نريد زيارته فقط، سمعت فيه عندما كنت مسؤولًا عن قلقيلية، ورغبت في رؤيته فقط.

ثم تركوا غسان وانسحبوا بعد عدة ساعات.

يقول الشيخ إنه بعد انسحابهم، أحصى عدد السيارات العسكرية التي انسحبت من مقابل البيت، فكانت خمسًا وخمسين سيارة عسكرية، وفيها نحو مائتيّ جندي، وهي جزء من القوات التي حضرت للمكان.

في اليوم الثاني، وعندما كان الشيخ برفقة شقيقه غسان، رنّ جوال غسان، فإذا به ضابط المخابرات «حيفر»، فقال: أعطني الشيخ بسام.

رد غسان: غير موجود، وأغلق غسان الجهاز.

ثم عاد بعد قليل، وكرر الطلب، فأشار الشيخ بسام لشقيقه أن يعطيه الهاتف النقال، ففعل غسان، فقال «حيفر» للشيخ: لا نريد منك شيئًا، كنا نريد زيارتك فقط.

فرد الشيخ: إذا كانت تلك زيارة وأحضرتم مائتي جندي، واستشهد شابان، وجرح نحو ثلاثين، فكيف لو لم تكن زيارة؟

فقال للشيخ: هل بالإمكان أن تأتي عندنا؟

رد الشيخ: لا.

فقال «حيفر»: الحكومة والمخابرات يريدانك، وهناك قرار أن تأتي.

فقال الشيخ محاولًا فحص نواياه: هل تتعهد لي بعدم الاعتقال؟

فرد «حيفر»: لا أستطيع أن أتعهد لك بذلك، هناك لجنة هي من تقرر.

فقال له الشيخ ساخرًا: سلّم على اللجنة.

فقال «حيفر»: ماذا يعني؟

قال الشيخ: باي باي... من الآن لعدة سنوات لن تراني.

قال «حيفر»: دعنا نتحدث.

فأقفل الجهاز في وجهه.

الكاظمين الغيظ

في تلك الفترة وما قبلها وما بعدها؛ حدثت عدة احتكاكات مع الأجهزة الأمنية الفلسطينية، تصرف فيها الشيخ بسام بحكمة ومسؤولية عالية، على قاعدة حرمة الدم الفلسطيني، مستلهمًا ذلك من تعليمات الدكتور المؤسس فتحي الشقاقي والدكتور المرحوم رمضان شلّح، وكل كوادر الحركة وقياداتها، وأدبياتها، التي تتلاءم مع الفطرة.

وفي يوم من الأيام، كان ابن أحد أشقاء الشيخ يقود دراجة نارية من نوع «فسبا»، وعندما أراد العودة بها من جنين إلى المخيم، اعترضته وحدة من الشرطة الفلسطينية على باب المخيم، فحصل احتكاك بين ذلك الشاب وأفراد الشرطة، أدى إلى تدخل شبان من المخيم، فحصلت مواجهة دفعت بالشيخ بسام وشقيقه غسان إلى سرعة التدخل من أجل الفصل بين الجانبين، وحماية أفراد الشرطة من الحجارة التي انهالت عليهم من بعض شبان المخيم. وفعلًا، نجح الشيخ وشقيقه وبعض الشبان في الفصل بين الجهتين، وتمكنت الشرطة من مصادرة الدراجة النارية، والعودة إلى مقرها.

لكن في اليوم التالي، فوجئ الشيخ بإحضار الشرطة طلبات استدعاء لسبعة شبان من المخيم على خلفية تلك الأحداث، منهم اثنان كانا ممن حميا الشرطة من الحجارة، فلم يذهب أي منهم لتسليم نفسه، فأخذت السلطة تتقدم بقوات كبيرة لأطراف المخيم؛ الأمر الذي كاد يؤدي لاحتكاك بينهم وبين شبان المخيم، فرأى الشيخ أن يتحدث مع أشقائه من أجل أن يقوم الشبان السبعة بتسليم أنفسهم منعًا لاستمرار الاحتكاك على خلفية أمر لا يستحق، فأرسل المحافظ اللواء طلال دويكات للشيخ لكي يلتقي به، وكان المحافظ قد زاره مهنئًا بالإفراج عنه في آخر اعتقال، فذهب الشيخ، وطلب منه المحافظ أن ينهي موقف الشبان السبعة الرافضين تسليم أنفسهم للأجهزة الأمنية، فرد الشيخ: سأرسلهم لك، ولكن أرجو أن يكونوا في رعايتكم.

بعد ذلك جاء الشيخ اتصال من قائد منطقة جنين العقيد الركن؛ أبو بسام الأعرج فقال له: شيخ الأجهزة الأمنية تريد شقيقك غسان (أبو الراغب).

فقال الشيخ: أبو الراغب كان يحل الإشكال، ولم يقم بأي شيء ليكون مطلوبًا بسببه.

فقال العقيد: لا، ليس من أجل الإشكال الذي جرى، إنّما يقال إنه يملك مسدسًا.

فرد الشيخ: الشبان الذين تورطوا في الإشكال بسبب «الفسبا»، سلمناهم لكم، أما الادعاء أن شقيقي يملك مسدسًا، فهذا بمثابة «كسر رقاب» شقيقي وجه عائلة ووجيه بلد، ومن لا يملك مسدسًا هذه الأيام؟!

فقال العقيد: ما رأيك أن تأتي أنت وإياه عندي وتشربا القهوة، ونحلّ الإشكال؟

فقال الشيخ: هذه صعبة، هذا الأمر إن جرى فسيصبح بمثابة تكسير رؤوس، واعتقال سياسي.

ولفت الشيخ نظر العقيد: أنصحكم بعدم إرسال قوات لاعتقال شقيقي غسان أو مداهمة بيته؛ لأنّكم بذلك ستعيدون المخيم إلى المربع صفر، وقد تُحوّلون المخيم إلى مربع أمني، وهذا ما لا نريده لنا ولا لكم.

فقال العقيد: أنا مقتنع بحديثك، ولن أرسل أي قوة من الأمن الوطني لمثل هذه المهمة، لكن طلب الاستدعاء سيظل قائمًا.

بعد فترة من تلك المكالمة، حاولت قوة تابعة لأحد الأجهزة الأمنية الفلسطينية مكونة من سبع سيارات اعتقال شقيقه غسان (أبو الراغب) فحصل احتكاك آخر بين شبان من المخيم وتلك القوة، فسارع الشيخ لمنع الاحتكاك المرفوض، فانسحبت تلك القوة من المكان.

وفي تاريخ السابع عشر من سبتمبر (أيلول) من نفس العام، اغتالت قوات الاحتلال الشهيد إسلام الطوباسي وهو من سرايا القدس الجناح العسكري للجهاد الإسلامي، فجرت له مسيرة كبيرة حاشدة أرادت أن تمر من أمام المقاطعة، فاعترضتها قوات الشرطة الفلسطينية، فحصل احتكاك أسهم الشيخ وعدد من كوادر الجهاد وممثلو الفصائل بالحدّ من تفاقمه، وسيّروا المسيرة في اتجاه آخر بعيدًا عن الشرطة الفلسطينية.

ورغم ذلك أُحْضِرَتْ إلى جنين قوة كبيرة من القوات الفلسطينية، داهمت بيت الشيخ بسام وبيت الأسير القائد في حماس جمال أبو الهيجا، وبعض البيوت الأخرى، وقالت في بيانها الخاص بالمداهمة إنها تبحث عن مخدرات وسيارات مسروقة؛ الأمر الذي بعث على الاستياء، وانتقدته تنظيمات وشخصيات وفعاليات ووسائل الإعلام القريبة من المقاومة من قنوات وصحف ووكالات أنباء، فكيف لقائدين يشكلان رمزين بارزين من رموز قوى المقاومة وهما الشيخ بسام السعدي، والأسير الشيخ جمال أبو الهيجاء أن يُلمز بهما من خلال ذلك البيان وكأنهما «خارجان عن القانون»، وكان ذلك أمرًا مثيرًا للاستهجان والسخرية، لكن الشيخ فوّت تلك الحادثة حتى لا تتطور، وينجم عنها ما لا يحمد عقباه، فالدم الفلسطيني محرم، وكان على الجميع تجاوز هذا الحدث.

وفي تاريخ 19/ 12/ 2013م، استشهد المقاوم نافع جميل السعدي وهو من «سرايا القدس» الجناح العسكري للجهاد الإسلامي، ومن أبناء عمومة الشيخ بسام في عملية اغتيال من قبل الوحدات الخاصة الصهيونية، وقد جرى له تشييع مهيب في المخيم والمدينة.

بعد أيام، حصل شجار مؤسف في المخيم، نجم عنه مقتل شخص، فدخلت قوات الأمن الوطني للسيطرة على الموقف، ومنع تدهور الأحداث وتوسّعها، عندها سعت شخصيات وفعاليات من أجل المساهمة في تهدئة النفوس، وكان من أولئك الساعين لهذا الفعل، محمود السعدي خال أولاد الشيخ وابن عمه، وكانت أجهزة الأمن الفلسطينية تعتبره مطلوبًا، فهاجمته في وسط المخيم بالرغم من الحالة السائدة، وأصابته بالرصاص في قدمه، فثارت ثائرة أنجال الشيخ وبعض شباب المخيم إثر هذا الحادث، وهاجموا تلك القوة، فأطلقت النار عليهم، وأصابت نجليّ الشيخ، يحيى الذي أصيب برصاصة في الصدر قرب القلب، وفتحي أصيب بشظية في الصدر، كما أصيب رجل مسنّ وامرأة بجراح، وكان الشيخ حينها مختفيًا، فعلم بالأمر، فسأل:

كيف هي الإصابات؟

فقالوا له: الحمد لله، الإصابات ليست خطرة.

فحمد الله كثيرًا، وقام ليلًا بزيارة نجليْه في مشفى الرازي اللذين كانا بحراسة من قبل قوة مشتركة من أجهزة الأمن الفلسطينية، واطمأن عليهما، فشكا له قائد تلك الوحدة وهو الرائد علاونة، تعرّضه ووحدته للشتم من قبل بعض شبان المخيم، فاستنكر الشيخ ذلك، وطالب الجميع بعدم اللجوء إلى أي استفزازات، وقال: «هؤلاء عناصر الشرطة هم إخواننا، ونحن أهل، وممنوع على أي كان أن يسيء لهم» وعلى إثر ذلك الحادث حضر وزير الداخلية، واستنفرت الوحدات خوفًا من ردة الفعل، لكن بعض ضباط الأجهزة الأمنية الذين يعرفون خصال الشيخ بسام، قالوا:

«لا يمكن للشيخ أن يلجأ إلى ردة فعل يمكن أن تفاقم الأمر، أو أن تضر بالسلم الأهلي، فهو من الحريصين دائمًا على حرمة الدم الفلسطيني قولًا وفعلًا»، وهو ما حدث.

وفي تاريخ 22/ 03/ 2014م، استشهد حمزة أبو الهيجاء من كتائب عز الدين القسام، ونجل الأسير جمال أبو الهيجا بعد حصار البيت الذي كان موجودًا فيه، وحصول معركة قوية استمرت لساعات انضم لها عشرات المسلحين المقاومين في المخيم، وقد استشهد معه كل من محمد أبو زينة من سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد الإسلامي، ويزن جبارين من كتائب شهداء الأقصى الجناح العسكري لحركة فتح، وأصيب نحو سبعة عشر شابًا بجراح متفاوتة، فكانوا شهداء الوحدة الوطنية؛ فثلاثتهم ينتمون للفصائل الثلاث الأكبر في المخيم وفلسطين، وقد شُيعوا في جنازة مهيبة، كما نُظّمَ حفل تأبين لهم في ساحة المخيم الرئيسة قرب بيت الشهيد حمزة أبو الهيجاء، وألقى الشيخ بسام كلمة قوية في الاحتفال.

في الثاني عشر من يونيو (حزيران) من نفس العام، قامت مجموعة من كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة حماس بخطف ثلاثة مستوطنين في جنوب الضفة، وقد عثر عليهم مقتولين بتاريخ الثلاثين من يونيو (حزيران) من ذلك العام بعد حملات تفتيش واسعة، لتبدأ قوات الاحتلال الصهيوني بعد أيام عدوانها الأطول على قطاع غزة، والذي استمر اثنين وخمسين يومًا من القصف الجوي والبري والبحري والتوغل في أطراف قطاع غزة بشكل وحشيّ وشرس، بالمقابل لاقت قوات الاحتلال التي حاولت التوغل في أطراف القطاع مقاومة شجاعة وعنيفة

وصلبة من فصائل المقاومة هناك، بالإضافة إلى القصف المستمر لمستوطنات ومدن الاحتلال على مساحات واسعة، بالإضافة إلى العمليات النوعية التي نفذتها قوى المقاومة خلف خطوط العدو في تلك المعركة.

قام الشيخ في بداية الأحداث تلك بالانتقال من مكان اختبائه في المخيم إلى مكان آخر في قرية قريبة تحسبًا من حملة اعتقالات، ومكث في مخبئه الجديد ثمانية عشر يومًا، يقرأ الكتب، ويتابع الأخبار، ولا يقترب من «النت» ووسائل التواصل الاجتماعي قطعيًا، وكان إذا أراد أن يخرج إلى مكان ما، يتخفى بطريقة لا يمكن لأحد أن يلتفت إليه، أو يثير ريبة أحد، وكان يتخفى في الظلام الدامس، ويتسلح بالسرية العالية، فهو يدرك أن المطاردة تحتاج إلى الصبر، ومنع تسرب الملل واليأس إلى نفس المطارد، ويعالج وقته الطويل بالمطالعة والعبادة والمتابعة الحذرة واليقظة.

قيد في مِعْصَمِ الحرة

قبل أن يفرج عن الشيخ بسام من اعتقاله الأخير من سجن عوفر بثلاثة أشهر، اعتقلت زوجته (أم إبراهيم)، وصدر بحقها حكمٌ بالسجن الفعلي لمدة سنتين، ولما خرج من السجن، وجد أن زوج ابنته أشرف الجدع معتقلٌ أيضا، فقام بإحضار ابنته إلى بيته؛ لتدير شؤون البيت في غياب والدتها المعتقلة، وكان الشيخ المطارد والمختبئ بعيدًا عن البيت يتواصل مع بيته بوساطة الرسائل عبر أناس يثق بهم، وعبر وسائط متعددة، بمعنى حمل الرسائل يكون من شخص لشخص، كمحطات البريد، فلم تكن الرسائل بشكل مباشر، تحسبًا من المتابعة، وقد خرجت زوجته من السجن وهو مطارد، ولم يتمكن من رؤيتها لعدة أيام بسبب ملاحظته لطائرة استطلاع رافقت خروجها من السجن، وكانت تتنقل في سماء المنطقة الضيقة المقابلة لبيت الشيخ بسام، فامتنع عن التحرك، وتوقع مداهمة في الأيام والليالي القادمة، وفعلًا بعد يومين، جرت مداهمة واسعة لعشرات من بيوت المخيم ومنها بيته، وعلى امتداد الحارات، حتى بيوت في حيّ الجابريات لأقرباء الشيخ وأصدقائه، فلم يعثروا عليه، وكان ضابط الاستخبارات «شالوم» يقف في الساحة الرئيسية للمخيم، ويسأل بعض المارة قائلًا:

هل رأيت الشيخ بسام؟

وبعد أيام التقى بزوجته بطريقته الخاصة، في وقت داهموا البيت ولم يجدوها، لكنهم لم يلتفتوا لغيابها.

صدى القدس

بقي الشيخ مطاردًا حتى اندلاع انتفاضة القدس بالعام 2015م، والتي تمثلت بالهجمات الفردية بوساطة السكاكين وعمليات الدهس، واستخدام السلاح الناري أحيانًا، فرأى الشيخ أن هذه الحالة تلزمه أن يكون له دور، فنظم من خلال قناة فلسطين اليوم الفضائية، مجموعة من الفيديوهات المصورة، وبثّ كلمات حماسية من أجل الحث على تصعيد الانتفاضة، وكان كلما بُث له شريط، تحصل بعد يوم أو يومين مداهمة للبحث عنه، لكنه لم يتوقف عن بث تلك الكلمات.

ومن فرط ملاحقتهم للشيخ، كانوا يراقبون كل سيدة أو امرأة تقف وتصافح زوجته (أم إبراهيم)، ويعتقدون أنها ربما تكون مرسالًا بينه وبين زوجته، وذات يوم قامت امرأة من أقاربه المتزوجة من شاب من عائلة أبو الهيجاء بشراء أحذية لأطفالها من محل نجل الشيخ في المخيم، وهناك التقت بـ (أم إبراهيم)، ووقفت معها بعض الوقت، وهذه المرأة تسكن في بيتها الكائن في أعلى حيّ الهدف المجاور للمخيم من الناحية الغربية، وكان الشيخ قد تردد عدة مرات على تلك المنطقة، فحصلت مداهمة شديدة لذلك الحيّ، فظن الشيخ الذي كان في مكان يبعد عن بيت تلك السيدة نحو ثلاثمائة متر، ظن أن المداهمة تستهدفه، فخرج من المكان على الفور، بعد أن ربط بين وقفة زوجته وتلك السيدة، فحصلت اشتباكات عنيفة بين مئات الشبان وقوات الجيش المحتل، ونشر خبر على إحدى الفضائيات مفاده أن الشيخ بسام قد استشهد، وبقي الخبر على الفضائيات ربع ساعة قبل أن يزال، عندها اشتعلت المواجهة في المخيم، وامتدت المظاهرات لمدينة نابلس، وجرت مسيرة غضب في مخيم الدهيشة، وبدأت نذر التحرك في كافة المناطق لولا نفي الخبر والتأكد من سلامة الشيخ خاصة من قبل ذويه الذين اتصلوا به واطمأنوا أنه بخير، وأن المستهدف لم يكن هو، بل شابًا مطاردًا من كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة

حماس شكت مخابرات الاحتلال أنه كان في بيت مجدي أبو الهيجا، فدهمت البيت، واعتقل هذا المجاهد بعد فترة قصيرة.

وعندما أفرجت سلطات الاحتلال عن الأسيرين مصطفى القنيري ومحمود أبو جلدة بعد أربعة عشر عامًا من الاعتقال، وصادف يوم الإفراج عنهما ذكرى اندلاع معركة مخيم جنين الرابعة عشرة، تحوّل الاستقبال لحفل إحياء للذكرى أيضًا، وقام الشيخ بسام بإلقاء كلمة هنأ فيها المفرج عنهم، خاصة وأنهم من أسرى معركة المخيم، وتزامن ذلك مع عرض عسكري تلقائي قام به مقاتلو سرايا القدس في المخيم وهم يحملون صورتي الشهيد المؤسس فتحي الشقاقي والمرحوم القائد المجاهد رمضان عبد الله شلّح، وفي اليوم الثاني من ذلك الاحتفال جرت مداهمة بعض البيوت التي تخص الشيخ ومنها بيته، فلم يعثروا عليه.

القيد الثامن

بعد خمسة وخمسين شهرًا من المطاردة الرابعة، وفي تاريخ التاسع عشر من شهر مارس (آذار) من العام 2018م، ذهب الشيخ لبيت شقيقته في حيّ الجابريات الواقع أعلى المخيم بعدما علم أنها مريضة ليعودها، وكان ذلك عند الغروب، فمكث نحو أربعين دقيقة، صلى خلالها المغرب في غرفة الضيوف الواقعة على جانب البيت، فإذا بباب البيت الرئيسي يُخْلَعْ بقوة من قبل وحدات خاصة من المستعربين، فخرجت شقيقته إليهم، واشتبكت معهم لكي تمنعهم من الدخول خوفًا من قيامهم باغتيال شقيقها، فدفعوها، فوقعت على الأرض، ولم يتحمل الشيخ ذلك، فخرج عليهم وصرخ بهم قائلًا:

لماذا تفعلون ذلك؟

فبهتوا، وهم ينظرون إليه.

ألم ترَ ما فعلت؟

سأله أحدهم: من أنت؟ ألست الشيخ بسام؟

فقال الشيخ: أنا غسان أخوه، نحن نشبه بعضنا بعضا.

فذهب الضابط إلى السيارة وأحضر صورة للشيخ بسام، فقال له:

هذه صورتك، أنت الشيخ بسام.

فقال الشيخ: قلت لك أنا غسان، ونحن نشبه بعضنا بعضا.

فقال الضابط: أعطني هويتك.

فرد الشيخ: هويتي في البيت.

فقال الضابط: سنذهب لإحضارها.

فقال الشيخ: نذهب، لا مانع.

ذهب الضابط مرة أخرى إلى السيارة وعاد للشيخ قائلًا: إلى متى يا شيخ؟ أنت الشيخ بسام.

فرد الشيخ: من تكون أنت؟

رد الضابط: أنا ضابط المخابرات الجديد، واسمي كابتن «عزيز».

فسأله الشيخ: كم مر من الوقت على تسلمك مهامك ضابطا لمدينة جنين والمخيم؟

فرد «عزيز»: منذ ستة أشهر.

فقال الشيخ: غريب، لم يمر اسمك عليّ.

فسأله «عزيز» مستغربًا: ضروري؟

فقال الشيخ: نعم من الضروري أن يحضر اسمك عندي حتى أعرف كيف تفكر وتخطط.

سأله «عزيز»: فمن تكون أنت؟

فقال الشيخ: أنا الشيخ بسام السعدي.

فقال «عزيز»: احلف بالله.

فقال الشيخ: نعم أنا الشيخ بسام.

فقال «عزيز»: أنت مطارد منذ نحو خمس سنوات، من يعتني بك ويرعاك كل هذه المدة؟

رد الشيخ: الذين أسسوا دولة «إسرائيل» من «بن غوريون» و«غولدا مائير و«شامير» و«رابين» و«ديان» كانوا مطاردين للإنجليز لأنهم كانوا في عصابات «الأرغون» و«شتيرن»

و«الهاجانا»، من كان ينفق عليهم؟

فرد «عزيز»: جماعتهم.

فقال الشيخ: وأنا كذلك جماعتي، هل تظن أني مقطوع من شجرة.

ضحك «عزيز» وسأله: من أين درست عنهم؟

فقال الشيخ: من مذكراتهم، مذكرات «شارون» و«بن غوريون» و«غولدا مائير» و«رابين» و«بيرس» و«ديان» و«شامير» و«بيغن» و«بنيامين نتنياهو» وقد درست عن الصهيونية من عدة مصادر.

فقال «عزيز»: من هو الأعقل فيهم برأيك؟

فرد الشيخ: بيرس، قادتكم الآن مجانين، سيأخذونكم للهاوية؛ لأنه ليس لكم قدرة على العالم الإسلامي.

لقد جاء الصليبيون الأوروبيون بقضهم وقضيضهم، وانهزموا، والتتار هُزموا، وكل الحملات الاستعمارية التي جاءت للمنطقة والعالم الإسلامي هزمت وأذلت، هل تعتقدون أنكم ستبقون؟ هل تعتقدون أنّكم ستكونون استثناءً لسنّة التاريخ؟

فقال «عزيز»: «بيرس» ماذا تقول عنه؟

فقال الشيخ: بيريس كان يعمل مديرًا عامًا في وزارة الخارجية الصهيونية التي كانت بقيادة «غولدا مائير»، عندما كان «بن غوريون» رئيسًا لوزراء الكيان الصهيوني، وكان «بن غوريون» و«غولدا مائير» متنافرين، فكان «بن غوريون» يرسل «بيرس» لبعض المهام الدبلوماسية الخاصة دون علم وزيرة خارجيته، وكانت تعلم من مصادر أخرى، فتغضب، فكرهت «بيرس» كثيرًا، وقد عبرت عن كرهها له، عندما سئلت عن رأيها فيه، فقالت «ليس للرب مكان في قلبه»، لقناعتها بلؤمه وخبثه.

انتهى الحوار، وشرعت القوات المقتحمة وما جاء من قوات إضافية بالتحرك، ودع الشيخ شقيقته وبناتها وزوج شقيقته عيد، وقبل أن يخرج من الباب قال لضابط المخابرات:

هل تحفظ الدرس؟

فقال «عزيز»: ما هو الدرس؟

فقال الشيخ: لا تعصيب، ولا تقييد.

رد «عزيز»: ونحن لا نريد تعصيبك أو تقييدك.

ثم صعد السيارة العسكرية، وسارت به برفقة باقي السيارات، وبمشاركة قوات أمريكية، تحت وابل من الحجارة حتى وصلت لمستوطنة دوتان، فمضى من الوقت ثلاث ساعات حتى دخل سجن مجدو، وأُدخل الساعة الثانية والنصف ليلًا إلى قسم (6) التابع لحركة «فتح» والخاص بأسرى بلدة عزون، وهناك دخل إحدى الغرف، فوجدهم نيامًا إلا رجلًا واحدًا من بلدة طمون، جهز له منامًا، فنام الشيخ حتى الصباح.

في صباح اليوم التالي استيقظ ليجد أن موجه القسم وموجه أسرى «فتح» فيه، كان من ضمن الأسرى الذين كلّف لهم الشيخ محاميًا ليتابع قضيتهم في عام 2003م أثناء التحقيق معه في معتقل الجلمة، فرحب ذلك الشاب بالشيخ أجمل ترحيب، وأحضر له حقيبة ملابس كاملة، وقال له:

لك فضلٌ سابق علي؛ ففي عز اعتقالي، وأثناء وجودي في التحقيق، أوكلت لي محاميًا، وهذا ما لا أنساه ما حييت.

مكث الشيخ في هذا القسم عدة أيام، حتى فرغ له مكان في غرف أسرى الجهاد في قسم (2)، فانتقل إلى هناك، وكان هذا القسم مشتركًا بين أسرى «فتح» و«الجهاد»، فمكث فيه ثلاثة أشهر، ونظرًا لوجود عدد من الأسرى المدخنين، والقسم مغلق بالأسوار العالية التي تجعله أشبه بالبئر أو القلعة؛ كان الشيخ يشعر بالضيق أحيانًا من التدخين، فطلب نقله إلى قسم تكون فيه غرف أسرى «الجهاد» مع أسرى «حماس»؛ لأن التدخين هناك يكون أقل بكثير، فنقل، وأمضى فيه عشرين شهرًا حتى أفرج عنه.

وقد عاد يومًا لزيارة قسم (6) الذي دخله أول مرة في هذا الاعتقال برفقة أمير أسرى «الجهاد» محمد كراجة، ففوجئ باصطفاف المائة والعشرين أسيرًا لاستقباله؛ الأمر الذي أثار

استغراب كراجة الذي كان أميرًا للجهاد منذ سنوات، وكان يتنقل باستمرار بين الأقسام، فلم يشاهد مثل هذه الحفاوة.

وذات يوم، وفي ساعات النهار وقت القيلولة، استيقظ الشيخ بسام على الأسرى وهم يوقظونه، ويقولون له: إن اثني عشر عنصرًا من المخابرات ومعهم «عزيز» قد حضروا للقسم ويريدونك.

بدل الشيخ ملابسه، ونزل لغرفة «الكنتينا»، فوجدهم مجتمعين مع محمد كراجة أمير أسرى الجهاد في سجن «مجدو» وعبد الباسط الحاج، وممثلي الفصائل، وقالوا له إنهم قادمون لرؤيتك، فمال «عزيز» على الشيخ بسام، وقال له:

كيف وأنا أستطيع إلقاء القبض عليك بعد خمس سنوات؟

فرد الشيخ: كيف وأنا انتظرك لتلقي القبض عليّ؟ ألم تكسب رتبة على هذا الإنجاز؟

فرد «عزيز»: نعم.

عاد «عزيز» وسأل الشيخ: من عندك في القسم من المعتقلين من المخيم؟

فأجاب الشيخ: أبو صالح أبو زينة، ولماذا أتيتم به وهو رجل كبير ووجه من وجوه المخيم ويعاني من أمراض عدة وهناك خطر حقيقي على حياته؟ إن جرى له شيء في المعتقل لا يعلم إلا الله ما الذي سيحدث، سكت «عزيز» قليلًا، وقال: خلص لن نمدد له توقيفه الإداري، وسنفرج عنه بعد انتهاء حكمه الإداري البالغ أربعة أشهر.

وفعلًا تم الإفراج عن المجاهد أبو صالح أبو زينة الذي تعرض للاعتقال مرات عديدة في سجون الاحتلال والتي كان أطولها ثمانية وثلاثين شهرًا، بُعَيْد معركة مخيم جنين.

وبعد خمسة وأربعين دقيقة من النقاش عن حال السجون والأحوال السياسية، غادروا القسم.

أمضى الشيخ بسام كامل حكمه في سجن مجدو، ولم يطلب الانتقال منه لسببين:

الأول: كان يعاني من دسك في ظهره، ولم يكن يرغب في الانتقال إلى سجن آخر يبعده عن

النزول إلى المحكمة في معسكر سالم، كون معسكر سالم قريبًا من سجن مجدو.

الثاني: كان معظم أسرى الجهاد في سجن مجدو من صغار السن، فلم يحبذ الشيخ تركهم، بل آثر البقاء معهم، لتوعيتهم والإشراف عليهم وترتيب أمورهم مع الهيئة القيادية لهم، فكان يعطي الجلسات لهم من كتاب «فقه السنة» كما كان يشاركهم الجلسات التوعوية والتثقيفية خاصة عن فكر الحركة والأمور السياسية والوطنية، وكان يناقشهم فيها ويستحث طاقاتهم على حب الاستزادة من المعرفة والإبداع على طريق ترسيخ مبدأ الوعي الذي يأتي بعد الإيمان ويكون معبرًا للثورة، لتكتمل بذلك الركائز الثلاث التي يقف عليها فكر الجهاد الإسلامي.

مع ذلك لم تتوقف طلبات الأسرى من السجون الأخرى بضرورة حضور الشيخ لطرفهم حتى يلتقوا به، ويلتقي بهم، لكنه وبالرغم من شغفه بالوصول إليهم إلا أن السببين المبينين أعلاه حالًا دون ذلك.

وفي مرة لاحقة، قام ضابط المخابرات المدعو «عزيز» بإحضار الشيخ إلى معسكر سالم لمقابلته، وأبلغه فيها أن ابنه «صهيب»، مطارد، وهو يحمل سلاحًا، وهناك تخوف من أن يفعل شيئًا، كما فعل الشهيد أحمد جرار.

فرد الشيخ قائلًا: دعك من هذا القول، فكل الشبان يحملون السلاح، وكل البيوت فيها سلاح.

فقال «عزيز»: ممكن الوحدات الخاصة أن تهاجمه وقد يخسر حياته أثناء عملية اعتقاله.

فرد الشيخ: اسمع، لديّ ولدان شهيدان، ولا داعي لإسماعي مثل هذا الكلام.

فقال «عزيز»: إذًا تكلم معه من هنا حتى يسلم نفسه.

فرفض الشيخ وقال: لن أفعل وأنا عندك، فقال عزيز: هل تعدني أن تتحدث معه.

فقال الشيخ: لا أستطيع رؤيته، ولا التواصل معه.

وبعد عدة أيام وأثناء عودة نجله صهيب صباحًا إلى البيت، وجد الوحدات الصهيونية الخاصة قد كمنت له قرب البيت، واعتقلوه.

في وجه السجان

في يوم من أيام الاعتقال؛ فوجئ جميع الأسرى في القسم الذي ينزل فيه الشيخ بمداهمة القسم من قبل وحدة القمع والتفتيش التي تعرف باسم وحدة «اليماز» حيث دخلوا القسم بشكل همجي، وشرعوا بمداهمة غرف الأسرى، وتفتيش أغراضهم، وتفتيشهم شخصيًا، فتقدموا من الشيخ بسام من أجل إجباره على خلع ملابسه فرفض، وأصر على عدم قبوله بذلك لمكانته وسنّه، وقال لهم:

لم أرضخ لبنادق وكواتم الوحدات الخاصة، وكنت أسير وفق ما أريد.

واصلوا الحديث معه من أجل تفتيشه، وهو يرفض لأكثر من ربع ساعة، فأخرجوه إلى الساحة حيث يقف أسرى القسم من معتقلي «حماس» و«الجهاد» في حالة استعداد وترقب، فأي تهجم على الشيخ أو دفعه أو ضربه، سيشعل القسم والأقسام الأخرى، فنظر الشيخ إلى الأسرى وقادتهم، فقرأ في عيونهم طلبًا يوحي بأن يخلصهم من هذا الموقف، خاصة أن أسرى «حماس»، وأمير أسرى «الجهاد» محمد كراجة، معهم جهازيْ هاتف نقال، وقد تؤدي أي مواجهة تجري إلى العثور عليهما ومصادرتهما، فسأل الشيخ بسام إخوانه الأسرى عن الأمر، فكان ردهم يؤكد شعوره، فتنازل عن جانب شكلي، وبحضور ضابط واحد، فكان له ذلك، فدخل الغرفة برفقة ضابط من الوحدة المقتحمة، وضابط استخبارات السجن، وجرى التفتيش على شرط الشيخ.

وفي يوم آخر، وبعد أن أخرج أسرى «الجهاد» حقائبهم إلى الساحة احتجاجًا على التضييق عليهم ومنع نقلهم لسجون أخرى، ومنع أميرهم العام محمد كراجة (أبو أسعد) من التنقل بين الأقسام، دخلت وحدة القمع، وقامت بإخراج كافة الأسرى إلى الساحة، وطلبت منهم أن تكون وجوههم باتجاه الحائط، فاستجاب الأسرى إلا الشيخ بسام فقد رفض وبشدة، وعندما حاول ضابط تلك الوحدة ممارسة الضغط على الشيخ بسام برفع الصوت من أجل ذلك، لاحظ أحد الضباط استنفار وتهيؤ ابنه يحيى الذي كان مسجونًا معه، فسأل الضابط الثاني:

من يكون هذا؟

فرد الثاني: هذا ابنه.

فقال الأول للجنود الذين يحاولون إجبار الشيخ على الوقوف ووجهه للحائط: اتركوه!

وقد أرسى الشيخ وأسرى الجهاد خلال هذه المرحلة من الاعتقال أروع العلاقات مع باقي الأسرى من «فتح» و«حماس»، فلم تشهد السنتان اللتان أمضاهما الشيخ أي خلاف بين كافة أسرى الجهاد وأي من أسرى الفصائل الأخرى.

الحرية

قبل موعد الإفراج بأربعة أيام، جاء السجان ليبلغ الشيخ أن قرار إفراجه هو اليوم، تفاجأ الشيخ، وظن أن خطأ ما قد وقع في حسابات الإدارة، لكنه امتثل، وودع الأسرى وخرج، فوجد عددًا من الأسرى الذين حان موعد إفراجهم في ذلك اليوم، وكان مدير السجن الدرزي صبري أبو شحادة وضابط الأمن وضابط العدد متواجدين في غرفة انتظار إجراءات الإفراج، فأمر مدير السجن بإحضار كرسي للشيخ، وبعد نصف ساعة من الفحص، تبين أن موعد الإفراج عن الشيخ ليس اليوم، بل بعد أربعة أيام، فكان صعبًا على أي من الضباط الثلاثة إبلاغه بالخطأ الذي وقع إلا بعد نصف ساعة من اكتشافه خجلًا منه، لكن الشيخ استوعب الأمر خاصة وأنه كان يعتقد بوجود خطأ في الحسابات، وعاد ليقضي الأيام الأربعة المتبقية، وليفرج عنه بتاريخ التاسع من فبراير (شباط) من العام 2020م، بعد اعتقال دام سنتين.

وقد استقبل بحفاوة وحضور من كل وجوه وقادة التنظيمات والفعاليات، كما كان يجري بعد كل اعتقال، وذلك بأثر تراكم العلاقات والاحترام والتقدير الذي زرعه الشيخ في قلوب من احتك به، وعرفه وسمع عنه من قادة وقيادات وكوادر وعناصر وجماهير المخيم والمحافظة، وغيرها من الأماكن خاصة من كان يتواصل معهم في السجون وخارج السجون.

ثلاثون شهرًا من الحرية

كان الإفراج عني من الاعتقال السابق بتاريخ 09/ 02/ 2020م بعد أن مكثت في السجن عامين في أعقاب مطاردة طويلة استمرت خمسة وخمسين شهرًا، وقضيت بعد الإفراج حرًا طليقًا ما يقارب عامين ونصفًا، ولم أكن أتوقع أن أبقى كل هذه الفترة القياسية خارج السجن فقد كانت هذه الفترة حافلة بأحداث كبيرة حيث اندلعت فيها معركة سيف القدس التي جاءت ردًا على استفزازات واقتحامات المستوطنين وقوات الاحتلال المتكررة للمسجد الأقصى، وذلك في شهر رمضان المبارك من عام 2021م، وبعدها ببضعة أشهر، وبتاريخ 06/ 09/ 2021م نجح ستة أسرى في التحرر من سجن جلبوع من خلال نفق حفروه تحت الأرض، وقد استغرق حفره بضعة أشهر رغم الإجراءات الأمنية المشددة، وقد أذهلت هذه العملية الأجهزة الأمنية الصهيونية، والكثير من المراقبين والخبراء الأمنيين على مستوى العالم، وذلك لشدة تحصين ذلك السجن المسمى بالخزنة.

هذه الأحداث المتتالية، أشعلت الشارع الفلسطيني، بالإضافة لتشكيل نواة صلبة للمقاومين من سرايا القدس في مخيم جنين قبل هذه الأحداث ببضعة أشهر، أي من بداية عام 2021م حيث أخذت هذه المجموعة بالتصدي لقوات الاحتلال كلما دخلت المدينة أو المخيم أو القرى المجاورة، وقد تحوّلت هذه النواة إلى كتيبة منظمة أطلق عليها الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، المجاهد/ زياد النخالة (أبو طارق) «كتيبة جنين»، تيمنًا بالاسم الذي أطلقه على الأسرى الذين نجحوا بالتحرر من النفق وهم القادة: (محمود العارضة وزكريا الزبيدي ومحمد العارضة ويعقوب قادري وأيهم كممجي ومناضل انفيعات). هذه الكتيبة ازدادت قوة وتنظيمًا وتوسعًا وخبرة مع الوقت من خلال مواجهاتها المستمرة مع قوات الاحتلال، وقدمت وما زالت تقدم الشهداء والجرحى والأسرى مع مقاتلين من فتح وحماس، وقد تُوِّجت هذه المواجهات بعمليات رعد خازم، وضياء حمارشة، والأغوار والداخل المحتل.

أذكر أنه اتصل بي ضابط المخابرات الصهيوني المدعو (ورّد) المسؤول عن مخيم جنين والمناطق المجاورة له، وذلك بعد أن ظهر تسعة من المقاومين في مؤتمر صحفي قبل عملية النفق ببضعة شهور حيث تكلم الناطق باسمهم عن ضرورة تصعيد المقاومة، وقد علمت بعد فترة طويلة أن المتحدث كان الشهيد جميل العموري، فقال لي المدعو (ورد):

– «شيخ ضب جماعتك الذين ظهروا في هذا المؤتمر في نادي المخيم».

فقلت له: لا علاقة لي بهؤلاء الشبّان، وهم تحركوا على ما يبدو بقرارٍ منهم، ثم إنه كل يوم هناك عروض للمسلحين بالعشرات، وهذه عادة طبيعية في المخيم.

فقال: أنا أتحدث معك عن هؤلاء التسعة، ولا أسأل عن الباقين.

مساء الاقتحام

كل هذه الأحداث الاستثنائية تتوالى، وأنا أمارس حياتي بشكل شبه طبيعي حتى مساء يوم الأربعاء بعد صلاة العشاء في 01/ 08/ 2022م تفاجأت وأنا خارج من الباب الخلفي للبيت المطل على ساحة كبيرة تبلغ مساحتها دونمين ونصفًا يستخدمها أخي أحمد (أبو علاء) لبيع حديد البناء؛ بقوة كبيرة من القوات الخاصة الصهيونية تحاصر المنزل والمنطقة، كنت أسير بشكل طبيعي في تلك الساحة، فنادى عليّ جنديان كانا مختبئين في ركنٍ من الساحة في الظلام الدامس، توجهت نحوهما، فسألاني عن اسمي، فخشيت أن أذكر لهما اسمي في تلك اللحظة؛ لأنهما كانا وحدهما معي، وقد يطلقان عليَّ النار، ويتهمانني بالفرار منهما، فقلت لهما إن اسمي غسان السعدي وهو اسم شقيقي (أبو الراغب)، قال لي أحدهما وكان يهوديًا، اذهب وأحضر الهوية، مشيت خطوات باتجاه بيت أخي المجاور للساحة إلّا أن الجندي الثاني وكان درزيًا عرفته من لهجته، نادى عليّ وقال لي ارجع، في هذه اللحظات دارت اشتباكات عنيفة بين المقاومين والجنود الذين جاءتهم نجدات كبيرة ملأت شارع الزهراء المار من أمام بيتنا. كنت أرى أنا والجنديان الشبان الذين هبّوا لمقاومة الجنود إلّا أن الجنديين من شدة الخوف الذي ظهر على تصرفاتهما امتنعا عن إطلاق الرصاص على المقاومين خوفًا من انكشاف موقعهما، وتعرضهما

للهجوم حيث كانا يختبئان خلف البراميل المليئة بالإسمنت المسلح والتي كانت بمثابة دعائم لأعمدة «البركس» الذي يغطي الساحة، فقلت لهما:

الموضوع خطير، انسحبا أفضل لكما، إذا انكشف مكانكما ستطلق علينا النار، وقد نُقتل جميعًا، فزاد في إرباكهما هذا الكلام حيث كان يبدو عليهما التوتر الشديد، بعد لحظات أصرّا على اصطحابي معهما، فذهبنا إلى الجهة المقابلة من الساحة حيث اختبآ في زقاق يقع بين جدار المكتب والحائط المحيط بالساحة، وبعد لحظات أرادا أن يأخذاني معهما إلى البيت، فتمنّعت، وقلت لهما إن المكان مكشوف، وأي تحرك لنا قد يعرضنا للخطر، ولاسيما أنّ المرور بالساحة سيكون مواجهًا للشارع المقابل، فشعرت بضربة قوية بعقب البندقية على مؤخرة رأسي من الجندي الذي كان واقفًا خلفي، ورأيت الدماء تتدفق من رأسي بغزارة على الأرض مكوِّنةً بقعة صغيرة حيث كان هذا الزقاق مُضاءً بفعل النور الآتي من بيت أخي المجاور، وبعدها تعرضت لضربتين من أعقاب البنادق على مقدمة الرأس والجبهة الأمامية، فشعرت بدوار شديد، ووقعت على الأرض، وكلما أردت النهوض شعرت بدوران الأرض من حولي، فقاما بإطلاق الكلب الذي كان معهما، فهاجمني بوحشية، وأطبق فكيه على مقدمة يدي اليسرى، وغرز أنيابه في يدي حتى وصلت العظم. حاولت فتح فمه بقوة لتخليص يدي من النهش العميق، وما نتج عنه من نزف مستمر بالإضافة للنزيف المتواصل من ثلاثة أماكن في رأسي، بعدها اشتدت الاشتباكات، ولكن الجنديين اللذين كانا عندي لم يرهما أحد من المقاومين انسحبا هاربين من المكان، وتركاني وحدي، ثم عادا بعد لحظات، وكأنهما أُمرا بذلك، فقاما بسحبي على الأرض، ومن فوق رُبَطْ الحديد الملقاة في المكان، فتمزّقت ملابسي، وفقدت فردة حذائي حيث دخل بها أحد القضبان، واستمرا بسحبي بنفس الطريقة الهمجية على درج البيت صعودًا حتى الطابق الثاني، فأدخلاني إلى غرفة الضيوف، وبقيت مسجًى على الأرض والدماء تنزف من رأسي ويدي بغزارة، وكلما فتحت عيني، دارت بي الأرض.

أحضرا ابنتي عطاف، وقالا لها:

– من هذا؟!

فقالت: هذا عمي غسان.

وقد علمت بعد أيام أنهما اعتديا على زوجتي وابنتي بالضرب المبرح حيث نقلت زوجتي (أم إبراهيم) إثر ذلك لمشفى ابن سينا التخصصي في جنين.

لم يحضرا حمّالة لحملي إلى السيارة العسكرية، بل قاما بسحبي على شاحط الدرج بطريقة عنيفة وسريعة كأنهما لم يستطيعا إحضار الحمالة بفعل عنف الاشتباكات التي تصاعدت وتيرتها في الطريق إلى معسكر الاعتقال في «دوتان»، وقاما بتصوير وجهي، وأرسلا الصورة إلى ضابط المنطقة للتعرف عليّ، فأحسست أن المعاملة اختلفت بعدها، وعندما وصلنا «دوتان»، نهضت بصعوبة وأنا ما زلت أشعر بالدوار الشديد المصحوب بالصداع القويّ مع استمرار النزيف، تقدم مني ضابط المخابرات المدعو «ورد» وقال لي:

– يا شيخ لمَ فعلت هذا؟ غيّرت اسمك حتى لا يعرفك الجنود، فحصل لك ما حصل.

قلت له: هذان الجنديان صغيران، كانا وحدهما، ولا يجوز أن أُعرِّف على نفسي في هذه الحالة قبل مجيء ضابط المخابرات أو قائد الجيش حتى لا أتعرض للخطر.

تظليل وتخوف من تداعيات الجريمة

اصطحبوني بعدها إلى عيادة المعسكر، وقدموا لي بعض الإسعافات الأولية، فقال لهم الطبيب: هذا الرجل يحتاج لمشفى! أحضر لي ضابط المخابرات بلوزة بيضاء اللون بدلًا من القميص الذي أرتديه والذي كان يعصر دمًا، وحذاءً رياضيًا لكي أنتعله، وكان هذا الإجراء الخادع حتى لا أظهر أمام عدسات الإعلام بتلك الصورة.

حاول أحد الجنود وكان درزيًا بعد ذهاب ضابط المخابرات أن يتكلم معي بطريقة استفزازية، فرددت عليه بالمثل، فغادر المكان ولم يرجع، بعدها قاموا بنقلي إلى مشفى العفولة دون أن يعصبوا عيني، حيث كان رأسي ملفوفًا بشاشة بيضاء لإيقاف النزيف، قبل الوصول بلحظات، قال الضابط للجنود باللغة العبرية: هناك استنفار وحالة طوارئ على حدود غزة بسبب اعتقال

السعدي، بعدها دخلنا المشفى فقاموا بعلاج جراحي المختلفة، وتصويري صورة طبقية، ثم نزعوا لفة الشاش البيضاء التي عصبوا بها رأسي، وقالوا لي: حرك يديك إلى الأعلى! ظننت أنهم يريدون فحص أعضاء جسدي إلّا أنه تبيّن فيما بعد أنهم يريدون التقاط صورة لي، وإرسالها إلى وسائل الإعلام بسبب تهديدات الحركة، والخشية من تدحرج الأحداث.

بعد ثلاث ساعات أو أكثر أعادوني إلى معسكر سالم حيث مكثت في الزنزانة من قُبيل الفجر إلى شروق الشمس، أخرجوني بعدها أنا وصهري أشرف الجدع الذي كان في زنزانة مجاورة، ثم قاموا بعصبِ أعيننا وإجلاسنا على كراسي في ساحة المعسكر تحت ظل «الزينكو» الحار، فظننت أننا لن نمكث إلّا للحظات مثل المرات السابقة، ثم ننقل إلى سجن مجدو كالعادة إلّا أننا بقينا في ذلك المكان إلى مساء ذلك اليوم. كانت العَصبة تنزل عن عيني وأرى أمامي وحولي طوال الوقت دون أن يتدخلوا في ذلك، ولو أنني كنت أعلم أنني سأبقى في ذلك المكان طول تلك الفترة، لما قضيت كعادتي في المرات السابقة.

عند المساء أحضروا لي سيارة «جي إم سي»، وقاموا بنقلي إلى سجن عوفر، فكأنّهم لا يريدون أن أكون قريبًا من أسرى جنين والشمال كعادتهم، فقد قضيت معظم سجناتي في الاعتقالات السابقة في سجون الجنوب، فكانوا يفصلونني دائمًا عن أسرى الشمال عندما أصل بئر السبع أو معبار الرملة إذا كنت ذاهبًا للمحكمة في سالم أو لمقابلة المخابرات بحيث يعيدونني في نفس اليوم ولو بسيارة خاصة إلى سجون الجنوب.

هذه السيارة التي نُقلت بها من معسكر سالم إلى سجن عوفر يوجد في داخلها زنزانة صغيرة لا يستطيع الأسير الوقوف فيها أو حتى الاضطجاع، فيها كرسيٌّ من حديد، وكانت هذه الرحلة قطعة من المعاناة الشديدة بسبب ما ألمّ بي من ألمٍ شديد على إثر الضربات التي تعرضت لها أثناء الاعتقال، وما نتج عنها من جروحٍ مختلفة، وكذلك معاناتي من الدسك الذي ازداد في التحقيق العسكري الذي تعرضت له في عام 2003م، واستمرت الرحلة أربع ساعاتٍ أو أكثر؛ لأننا توقفنا في أكثر من سجن على الطريق، أمّا صهري أشرف الجدع فقد نقلوه إلى معتقل حوَّارة.

معتقل عوفر مرة أخرى

دخلنا سجن عوفر إلى قسم (14) وهو بمثابة «معبار» للأسرى قبل دخولهم للأقسام، فوجدت احترامًا كبيرًا من الأسرى هناك حيث تسابقت أكثر من غرفة لاستضافتي، فدخلت إحدى الغرف ومكثت فيها يومين، فلم يُقصّر الشباب في خدمتي، فزودوني بالملابس وكل اللوازم، وعملوا على توفير كل سبل الراحة لي حتى إنهم بدؤوا التدخين على النوافذ حتى لا يضايقوني مع أنّي اعترضت على ذلك، والأسرى في الغرفة كانوا من حركة «فتح» حتى إنَّ موجه «فتح» في القسم المعروف بـ (الدلاش) قدم لي ساعته الشخصية.

عرفت هناك أن الاستنفار على حدود غزة، ومنع التجوال في مستوطنات غلاف غزة ما زال مستمرًا، هذا الأمر رفع من معنوياتي أكثر؛ لأنني ازددت يقينًا أن خلف هذا الشعب قيادة مقاومة لا تقبل الضيّم، وهي على قدر المسؤولية مع قلقي الشديد على أهلنا في قطاع غزة الحبيب الذين قدموا وما زالوا الواجب، وشكّلوا أيقونة في الجهاد والمقاومة لشعبهم وأمتهم وكل أحرار العالم.

هذا العدد الكبير من الشهداء والجرحى وعلى رأسهم القادة الكبار تيسير الجعبري وخالد منصور وزياد المدلل وغيرهم من المجاهدين والأطفال والنساء والذين نترحم على أرواحهم الطاهرة، ونُطيّر التحية المفعمة بكل المشاعر النبيلة لذويهم ولعموم أهلنا في قطاع غزة العزيز على قلوبنا، كما نترحم على روح الشهيد الفتى المقاوم ضرار صالح الكفيرني ابن أشبال سرايا القدس وكتيبة جنين وابن مخيمنا الصامد مخيم جنين الذي ارتقى وهو يقاوم ويتصدى لقوات الاحتلال أثناء اعتقالي، ولم يكن يبعد عني وأنا في حالة التنكيل بي من قِبَلْ جنود الاحتلال إلا عدة أمتار، فهمَّ بإلقاء عبوة محلية الصنع على تلك القوات المقتحمة، فنالته رصاصة قناص صهيوني فارتقى شهيدًا مع أنه وحيد والديّه.

كما نبرق بالتحية لأميننا العام زياد النخالة (أبو طارق) ولكل قادة المقاومة من الفصائل الذين كان عنوان معركتهم توحيد الساحات، وهذا أمرٌ مهم على المدى البعيد.

ملف من المقابلات

حضرت وسائل إعلام كثيرة في كل جلسة تقريبًا، تعدت بعض الأحيان أربع عشرة قناة وأكثر، لنقل مجريات المحكمة؛ لأن حدث الاعتقال وما رافقه من أحداث أصبح رأيًا عامًا، كنت أخرج إلى المحكمة وأوضع في زنزانة منفردة حتى في البوسطة التي تنقلني للمحكمة أكون معزولًا لوحدي وما زلت على هذا الحال، ولا يسمحون لي بزيارة الأقسام، وعندما يصطحبونني إلى المحكمة يحذرونني بقوة من التكلم مع وسائل الإعلام إلّا أنني أبيت وتحدثت رغمًا عنهم، فكانوا عندما أبدأ الحديث يخرجون وسائل الإعلام بسرعة من المكان، ولكن معاملتهم معي كانت مختلفة بحيث لا يحاولون الإساءة، وكأنّ قرارًا صدر من أعلى المستويات بذلك بسبب ما حدث معي أثناء الاعتقال، وتطور الأحداث بعدها.

خلال استجوابي والتحقيق معي؛ تيقنت أنهم يريدون اعتقالي لإبعادي عن الميدان ولا يرغبون بتحويلي إلى الحكم الإداري حتى لا أشكّل لهم أزمة في حالة إضرابي عن الطعام، فقد جمعوا مقابلاتي مع الفضائيات على مدى العامين والنصف التي قضيتها طليقًا، وكذلك تهديدات الحركة بعد اعتقالي، وحولوها إلى لائحة اتهام وُضعت في ملفٍ سميك حتى يبقوني في السجن لأطول مدة ممكنة.

زارني خلال الاعتقال ثلاثة وفود من الأمم المتحدة والصليب الأحمر للاطمئنان على صحتي والاطلاع على وجهة نظري لما حصل بعد الاعتقال، وكان وفد الأمم المتحدة على أعلى المستويات، وقد كنت متيقنًا دائمًا أنّ هذه المنظمات الإنسانية تقدم بعض الخدمات للشعب الفلسطيني ونحن نقدر ذلك، ونحترم هذه المواقف النبيلة، ولكنّها على صعيد التأثير على هذا الكيان لا تستطيع أن تفعل شيئًا؛ لأنّها مقيدة من الولايات المتحدة والدول الغربية الداعمة للكيان الصهيوني.

شكر وعرفان وامتنان

أقدم شكري الجزيل لأبناء شعبنا الأصيل على امتداد الوطن وخاصة في قطاع غزة الحبيب

الـذي نفخـر بـه وبأبطالـه أينـما كنـا، وكذلـك لأحـرار الأمـة العربيـة والإسـلامية، ولقـوى المقاومـة الفلسـطينية وقادتهـا ومجاهديهـا ومناضليهـا، ولـلأسرى ونخـص بالذكـر أسرى عوفـر من فتـح وحماس والجهـاد والجبهـات، عـلى مـا لاقيتـه منهـم مـن كـرم الضيافـة واحـترام قـلَّ نظـيره ومـا زلـت، فلهـم منـي كل التحيـة والاحـترام، وهـذا إن دلّ عـلى شيء فإنـما يـدل عـلى أصالـة هـذا الشـعب واحترامـه الكبـير لمجاهديـه ومناضليـه، وشـعبٌ يمتلـك هـذه الـروح وهـذه الإرادة لـن يُهزم أبـدًا، بإذنـه ـ تعالى ـ وسـيعانق الحريـة؛ ويكنـس الاحتـلال؛ ويتخلـص مـن القهـر؛ ويتغلـب عـلى التحديـات المتواصلـة.

إن المدقق في تفاصيل هذه التجربة الجهادية العظيمة الزاخرة بالأحداث والمواقف يدرك بما لا يدع مجالًا للشك أننا أمام قائد من قادة التاريخ الفلسطيني الحديث، قائد أُترعت ذاكرته الغضة الطريّة بصورة الشيخ القائد الشهيد فرحان السعدي، والشيخ القائد الشهيد عز الدين القسام، وزرعت في نفسه نموذجين لهما، يحتذي بهما ويقتدي بهما، وسعيًا وشوقًا لإيجاد مثلهما في محيطة المتلاطم، والذي يعيش أحداثًا جسامًا بفعل الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، وبعض أراضي الدول العربية المجاورة، والذي كان في يقينه ووجدانه وكل ما حوت تصوراته؛ أن نهجهم هو السبيل الأفضل والأكمل إلى تحقيق الأهداف الفلسطينية والعربية والإسلامية في التحرر من الاستعمار والاحتلال، والخلاص من التبعية، والوصاية والانقياد، وتحقيق الاستقلال الكامل والسيادة وبناء الإنسان والأوطان بطريقة الاعتماد على أجلّ الدساتير وأسمى التشريعات السماوية، والهدي النبويّ من خاتم المرسلين وأصحابه الغُرّ الميامين، وعلماء الأمة الذين استلهموا هذا الفكر الرباني المحمدي الأصيل، وقدموه لخير أمة أُخرجت للناس كما جاء.

ففي رحلة البحث عن تلك النماذج التي كان يحلم بوجودها، ووجود أمثالها، التقى بذلك الجدول المتعاظم الواعد، وهو حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، مدرسة الإيمان، والوعيّ، والثورة، ومع تقدم الأيام والسنين والعقود، تعاظم الجدول، فأصبح نهرًا واسعًا عريضًا هدارًا، ينبت من حوله الاخضرار اليانع، والزهر البديع، فتضحك له الشمس، وتعده بالنصر، رغم جبال الآلام والتضحيات، وشلالات الدماء، وتسابق مهج الأرواح للزحام على أبواب الجنان.

كل هذا الزمن المحشو بسجلات الجهاد والمقاومة، لم يقف الشيخ فيه عند أي لحظة وقفة تردد أو انتظار، بل دخل في تفاصيل كل المراحل؛ ليكون فيها من القابضين على ناصية القيادة، والممتطين صهوة المقدمة؛ لأن كل نفس تعرف مكانها ودورها، وما خلقت لأجله، فكان الشيخ منذ أن دقق في ملامح الدكتور المؤسس في لقائه الأول به في مسجد عز الدين القسام في بيت لاهيا، وقرأ الرسالة جيدًا، وسمع النداء بقوة، وقف ملبيًا ومنصهرًا وعاملًا، يخوض الموج، ويعارك عباب البحر، ويسقط على السيوف غير آبه بما ينتظره، ويمسك بذات الشوكة، ويسير

على جمر الصبر، فلا يتوجع، ولا يشكو، ولا يركن لنفسه، كما يركن بعض من تعبوا من المسير، ولو قدر لأحد أن يعد خطواته التي خطاها في هذا الاتجاه وما زال دون أن يستريح ولو لبعض الوقت، لحصل على رقم عالمي في كتاب «غينس»، تحت بند أعظم النفوس بذلًا وصبرًا ومواصلة لدرب طويل لم ينته بعد، وتحت بند الجَلَدْ العظيم، والتخفي الأطول، والأهم من ذلك كله أنه، ومن خلال تجربته، يسوق لك المخاطر الجمّة كأنها سهلة ممتنعة، فترضخ له النوائب، وتمر خجلًا من تحت يديه وكأنها حوادث أليفة، فماذا تقول في إنسان يفقد ولديه التوأم شهيدين في المعركة، وكذلك والدته وابن أخيه، دون أن يرى أحدٌ دموعه، أو يراوده أدنى شعور بالتراجع أو الانكسار؟

هذا من فرط اعتزازه وافتخاره وصبره وتجلده وإيمانه العميق بالطريقة التي يسير عليها، ولكن عندما ارتقى أمينه العام المؤسس بكاه، وعندما سمع بنبأ استشهاد أخيه ورفيق دربه الشهيد القائد نعمان طحاينة (أبو الحسين) بكاه بكاء مرًّا، وعندما تلقى نبأ وفاة أمينه العام الدكتور رمضان عبد الله شلّح نعته العبرات على خديه؛ لأنه شعر في كلتا الشهادتين، والفقدان الكبير، شهادة القائد المؤسس الشقاقي، و(أبو الحسين) ووفاة الدكتور (أبو عبد الله) خسارةً للأمة، ولم تحتمل مشاعره ثقل خسارة الأمة فيهم، وفي باقي الشهداء العظام، لكن ولديه وابن أخيه وأمه، خسارته هو بالدرجة الأولى، فلملم صبره واحتسبه في جوف إيمانه، وكتم مشاعره الخاصة برباطة جأش لا تتأتّى إلا للعظماء، وصناع التاريخ.

إنه مدرسة، لم تُبنَ من إسمنت وحجارة، بل من لَبِنَاتٍ أقوى، صنعت من مداميك صدق بين الجوهر والمظهر، والاعتقاد والعمل، فأوجدت له هيبة عظيمة، ترخي نورها على من حولها، حتى على الأعداء، فتُقيدهم بالاحترام والإجلال والوقار، إنها مدرسةٌ معلمها وهاديها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وتلامذتها أرواح صافية الفطرة مخلصة النية، غالٍ في نفوسها الدين والإيمان والمقدسات والأرض، وكل قيم الشرف والإخلاص، رخيصة فيها المهج والأرواح ومتع الحياه، كُتُبُهَا القرآن والسنة النبوية المطهرة، ومنهجها الجهاد، وحبرها الدم، وممحاتها الاستغفار والتراجع عن كل خطأ، وألواحها الصورة الباسمة المشرقة التي تزين الطرقات والشوارع، والأزقة والساحات العامة، أما جرسها فقد صنع من جماجم أعيرت لله، وقرعت تحت سيف محمد منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، وما زال صدى صوتها يتردد في كل المعمورة إلى أن يشاء الله.

وعندما تتأمل في هذه المذكرات التي يمكن لأقلام كثيرة أن تستشف منها روايات متعددة وفي أكثر من اتجاه، جهادي، وإنساني، وفلسفي، وقيمي، وأخلاقي، وتربوي، وقيادي، وتأثيري؛ ترى أنّك أمام شخص استلهم الفكرة حتى النخاع، ومارس فلسفتها حتى الإشباع، وسار بنورها حتى أصبح يدقّ أبواب نماذجها، ليكون هو نموذجًا للتاريخ القادم، فيتخذ له مكانًا بينهم، وهذه بحد ذاتها عبقرية، ربما كان والده أول من تلمس شعاعها من خلال ما لفته فيه في الصغر، وما عرفه وتابعه من أفعاله في الكبر.

وخلال تسجيلي لحلقات مذكراته الطويلة، لم يأت ولو لمرّة واحدة على طموح شخصي له في هذه الحياة، أو قلق منه على أي متطلب من متطلباتها، بل كان كل كلامه الذي نقلته بأمانة ودقة عن الهمّ العام للشعب الفلسطيني، وأُمّة العرب والمسلمين، والمسيرة الطويلة العظيمة، والمخاطر الجسام والتضحيات الكبيرة التي أتت على معظم عمره إما مطاردًا مطاردة ساخنة خطرة يُحاصره الموت فيها من كل جانب، وإما أسيرًا معتقلًا يتنقل ما بين أقبية التحقيق القاسي، والأحكام الجائرة الطويلة، ولأي سبب كان، فماذا يعني أن يقول له ضابط المخابرات المدعو «شالوم» عندما استدعاه من سجن النقب إلى معسكر سالم لمقابلته في نهاية أطول اعتقال حكم وإداري «مجرّد ابتسامتك لشاب، أو وضع يدك على رأسه، أو التربيت على كتفه، يفهمه الشاب مباركة»، أليس هذا القول الذي بناه ذلك الضابط العدو على نتيجة بحثٍ أمني قامت به أجهزة المخابرات الصهيونية، دليلًا على الحالة عالية التأثير التي وصل إليها الشيخ بسام؟

لقد تمكن الشيخ من تعبئة أيامه التي مرت في عمره حتى الآن، وقد تجاوز الستين عامًا، بالعمل والعمل والعمل، واختار العمل ذا الأجر العظيم في دار البقاء، ورَخّصَ من الثمن الذي يقدمه في دار الفناء، ويكفي أن نعرف أن مجموع سنيّ مطاردته الساخنة قد تجاوزت الخمسة عشر عامًا، وسنيّ اعتقاله بلغت نحو ثلاثة عشر عامًا، وإذا ما جُمعتا معًا، يكون قد أمضى ثمانية وعشرين عامًا بين المطاردة والاختفاء والاعتقال، ما يعني أنه أمضى الشطر الأكبر من حياته في الجهاد وتبعاته.

وختامًا نقول: لأننا أمام هذه الشخصية الجهادية الفريدة بالكثير من صفاتها، فإن إصدار المذكرات لفائدة المعرفة والاطلاع والإضاءة على كثير من جوانب التاريخ الفلسطيني في مكان

كان ولا يزال يتصدر الأحداث، وكذلك توثيق هذه التجربة لكي تستفيد منها الأجيال الحالية واللاحقة، بالرغم من أنها لم تنته بعد، فما زال الاحتلال سبب مصائبنا جاثمًا على صدورنا، وما زال دم الشيخ يجري في عروقه بكلّ ما فيه من إيمان ووعيٍ وثورة، والأعمار بيد الواحد الأحد الفرد الصمد، لذلك حريّ بنا أن نطلق على هذا الكتاب الجزء الأول من المذكرات؛ لأننا نتوقع أن تحمل الأشهر والسنوات القادمة، قصصًا وحكايا ومواقف تستحق أن يحتويها كتاب ثان يحمل الجزء الثاني من مذكرات الشيخ المجاهد بسام السعدي (أبو إبراهيم).

عصري فياض

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة
إهداء	7
تقديم: مذكرات تختصر الزمن الفلسطيني. أ. محمد فارس جرادات	9
تقديم: اكتملت أركان القضية في سيرة. أ. وليد الهودلي	11
الفصل الأول: البدايات	13
التربة والفسيلة	13
الجذور	16
صرخة الروح	19
النقش في الذاكرة	20
انبلاج الضوء	24
أول الخطا	29
الفصل الثاني: في محراب العلم	39
العودة والزواج	46
الفصل الثالث: الاهتداء	49
زيارة غزة	50
الفصل الرابع: انتفاضة الحجارة	57
قبل أن ينفجر المرجل	57
طحن الحجر	62
موت ونجاة	46
طرائف	71
القيد الخامس	73
الفصل الخامس: الإبعاد	81
التنكيل	81
الأمين الوفيّ	87

تجليات الوجع	88
إبداعات	91
يقهرون الألم	92
فضاء المحيط	94
مسيرات العودة	95
الوردة الحمراء	96
ثم عادوا	98
فصل جديد	99
الفصل السادس: النجاة الثانية	**103**
جمعية الإحسان	105
قيد الأشقاء	106
رحيل السند	109
بيت العنكبوت	112
الفصل السابع: انتفاضة الأقصى	**115**
متأهبون	115
حريق آذار	123
معركة نيسان، وأعدوا!	125
صليل السيوف	128
سمو الروح	132
عصف الكمين	134
طهارة الوريد	137
انجلاء الغبار	143
أبو عبد الله الأمين	145
شهادة الأم وتغريدة الطير	147
رصاصتان في الكبد	148
الفصل الثامن: النجاة الثالثة	**157**
قيدٌ غاشم وجبهةٌ مرفوعة	161
التحقيق العسكري	163

السلاسل الطويلة	170
صندوق 2006	181
وثيقة الأسرى	183
إلى سجن عسقلان	186
كثبان النقب	190
الفصل التاسع: القيد السابع	**195**
ينتصرون بأمعائهم	197
الفصل العاشر: النجاة الرابعة	**205**
الكاظمين الغيظ	207
قيد في معصم الحّرة	211
صدى القدس	212
القيد الثامن	213
في وجه السجان	219
الحرية	220
الفصل الحادي عشر: القيد التاسع	**221**
ثلاثون شهرًا من الحرية	221
مساء الاقتحام	222
تظليل وتخوف من تداعيات الجريمة	224
معتقل عوفر مرة أخرى	226
ملف من المقابلات	227
شكر وعرفان وامتنان	227
الفصل الثاني عشر: من الصورة إلى الأسطورة	**229**

تم بحمد الله

ملحق توثيقي بالصور
من حياة الشيخ المجاهد
بسام راغب السعدي

الحاج/ راغب السعدي، والد الشيخ المجاهد/ بسام السعدي
توفاه الله بتاريخ 06/ 01/ 1999م

الحاجة/ أم العبد السعدي، والدة الشيخ المجاهد/ بسام السعدي
استشهدت بتاريخ 19/ 06/ 2002م

الشهيدان المجاهدان/ عبد الكريم وإبراهيم، نجلا الشيخ المجاهد/ بسام السعدي
استشهدا في العام 2002م

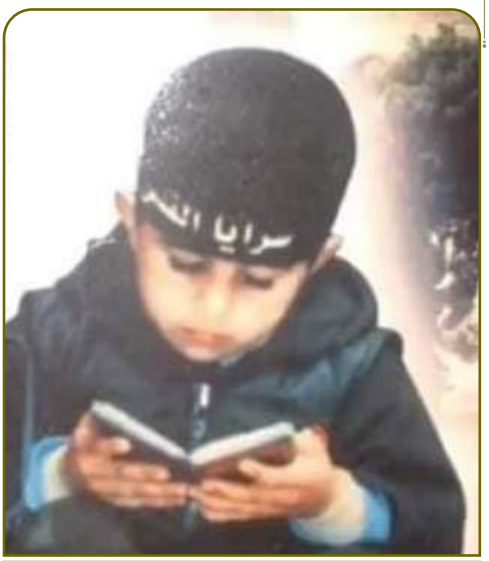

الشهيد الطفل/ بسام غسان السعدي، ابن شقيق الشيخ المجاهد/ بسام السعدي
استشهد بتاريخ 26/ 06/ 2022م

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي بداية الدراسة الجامعية في إيطاليا

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي خلال رحلة الإبعاد إلى مرج الزهور بلبنان

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي يؤدي الصلاة مع المبعدين في مرج الزهور بلبنان

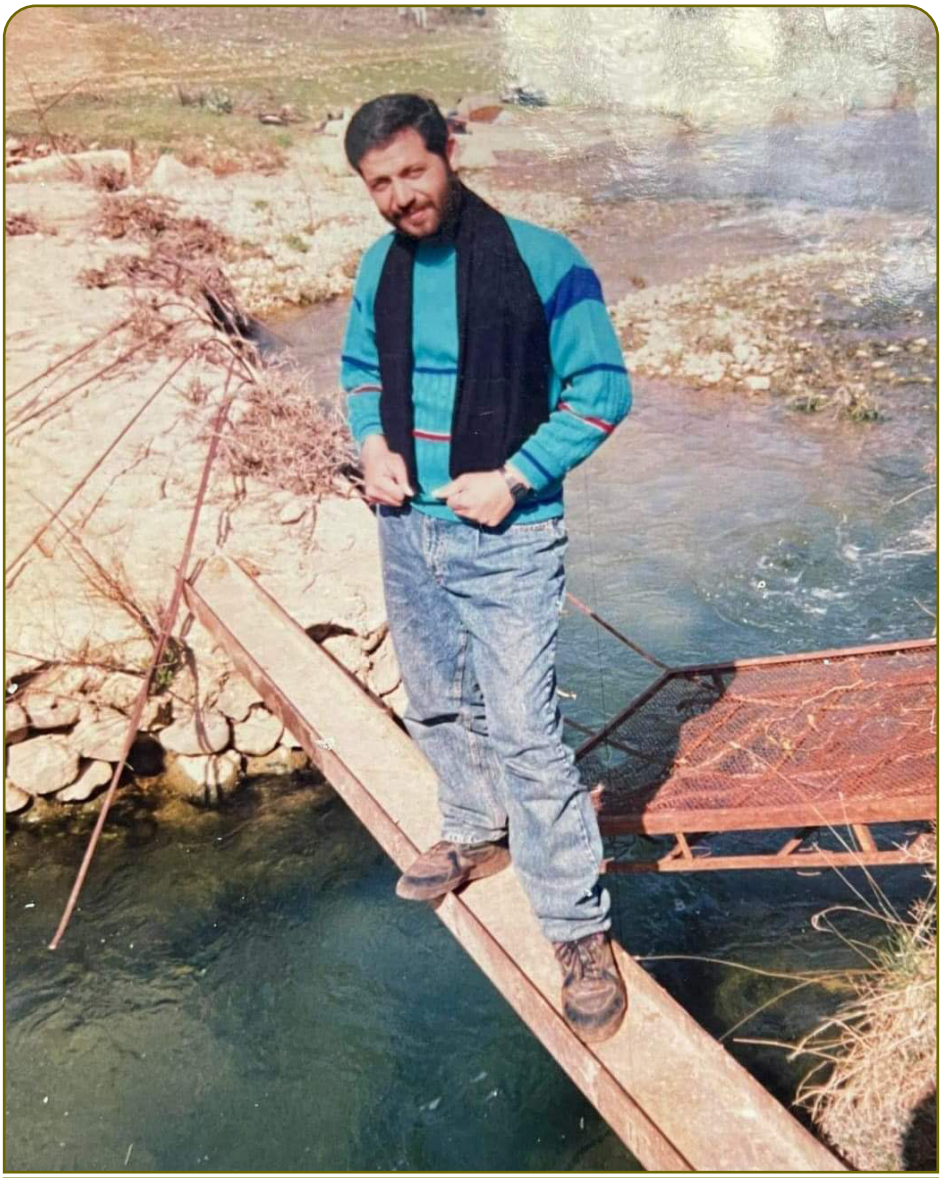

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في مرج الزهور على مجرى النهر

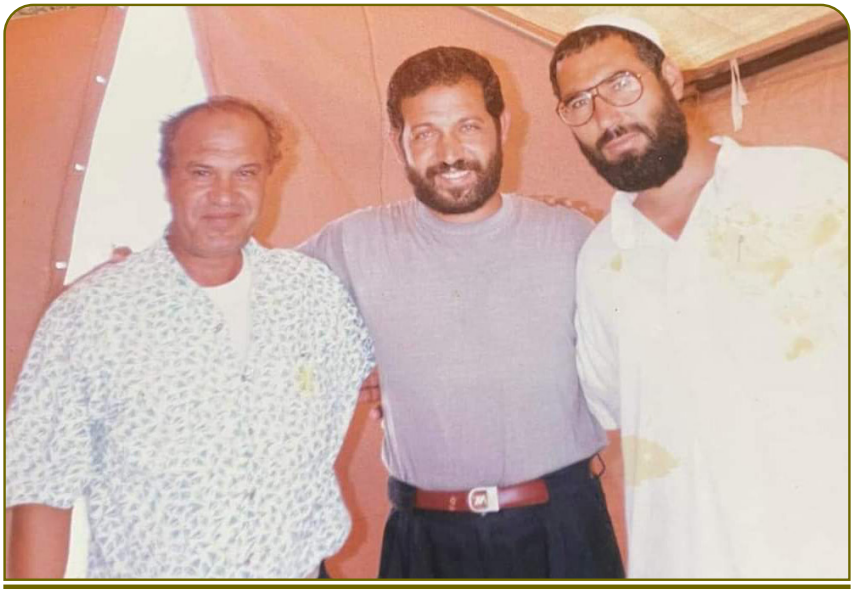

الشيخ المجاهد/ بسام يتوسط الشيخ المجاهد/ عبد الله الشامي وشقيقه الزائر/ عبد اللطيف

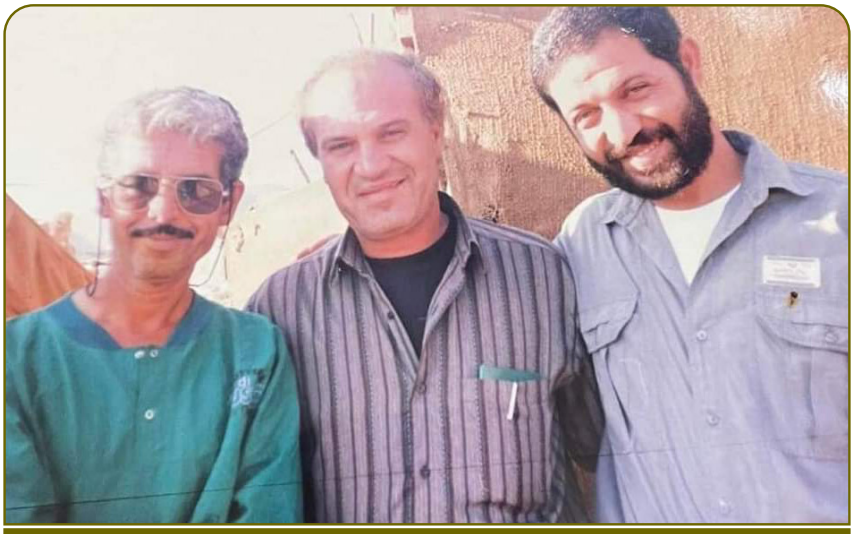

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي مع شقيقه الزائر/ عبد اللطيف والمبعد/ حسن الدحلة

الشيخ المجاهد/ بسام بين نائب حسن الترابي / محمد ياسين الإمام،
والشيخ / حامد البيتاوي في مرج الزهور

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي برفقة الأسير القائد/ مروان البرغوثي في سجن هداريم

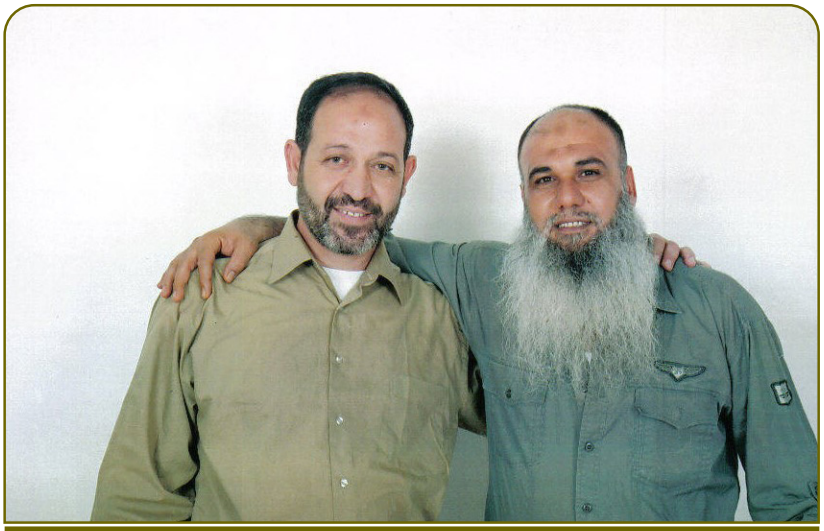

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي برفقة الأسير القائد/ علي السعدي في سجن هداريم

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي برفقة مجموعة من إخوانه الأسرى في سجن النقب

أم إبراهيم، زوجة الشهيد المجاهد/ بسام السعدي بعد اعتقاله في انتفاضة الأقصى (صورة أرشيفية)

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي برفقة أخيه/ غسان في احتفالية قدوم مولود جديد للعائلة

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في حفل تهنئة الأسيرين المحررين بالإفراج طارق قعدان وجعفر عز الدين

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في خيمة المطالبة باسترداد جثامين الشهداء بمخيم جنين

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي خلال حملة عمل تطوعي في أزقة مخيم جنين

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في فعالية رمضانية ببلدة سيلة الحارثية بجنين

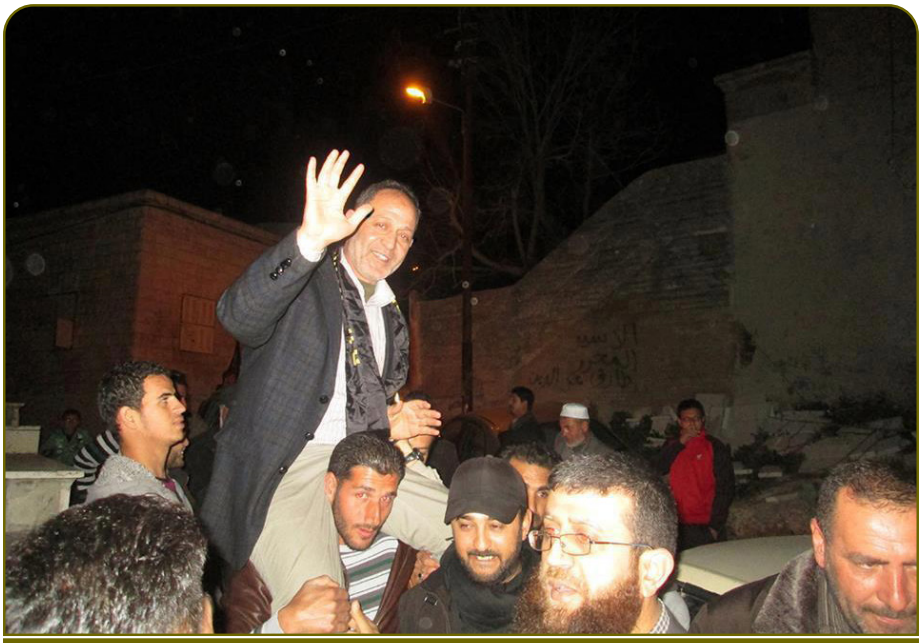

مشهد من حفل استقبال الشيخ/ بسام السعدي بعد تحرره من سجون الاحتلال (2020م)

مشهد من حفل استقبال الشيخ/ بسام السعدي بعد تحرره من سجون الاحتلال (2020م)

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي يتوسط الشيخ/ عبد الحليم عز الدين والشيخ/ خضر عدنان في استقبال المهنئين بتحرره

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي وعلى يساره المناضل/ أحمد القسام، حفيد الشهيد الشيخ عز الدين القسام في حفل إشهار لعائلة الشهيد نصر جرار بجنين

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في حفل إشهار كتاب (أمي مريم الفلسطينية) للأسير المجاهد/ رائد السعدي في جنين (2022م)

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي في استقبال المهنئين بحفل زفاف نجله يحيى

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي يقرأ الفاتحة على ضريح نجليه الشهيدين إبراهيم وعبد الكريم

وفد من الأمم المتحدة خلال زيارة منزل عائلة المجاهد/ بسام السعدي بعد اعتقاله الأخير (2022م)

الشهيد المجاهد/ بسام السعدي خلال مقابلة صحفية قبل اعتقاله الأخير (2022م)

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي بعد الاعتداء الجبان عليه من قوات الاحتلال عند اعتقاله (2022م)

الشيخ المجاهد/ بسام السعدي أثناء وجود في المحكمة الصهيونية بسجن عوفر (2022م)

وفد من الأمم المتحدة خلال زيارة منزل عائلة المجاهد/ بسام السعدي بعد اعتقاله الأخير (2022م)